قبس النور المبين

من

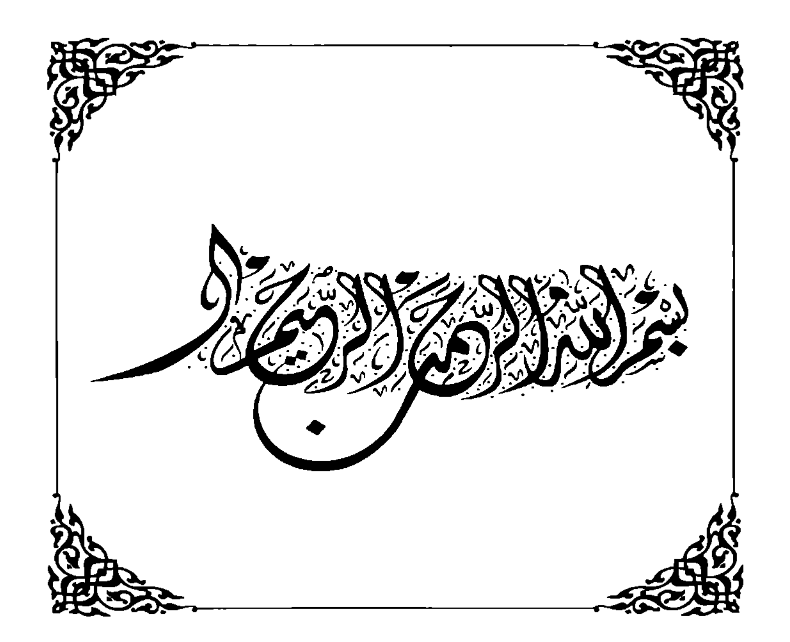
إحياء علوم الدين

اختصره

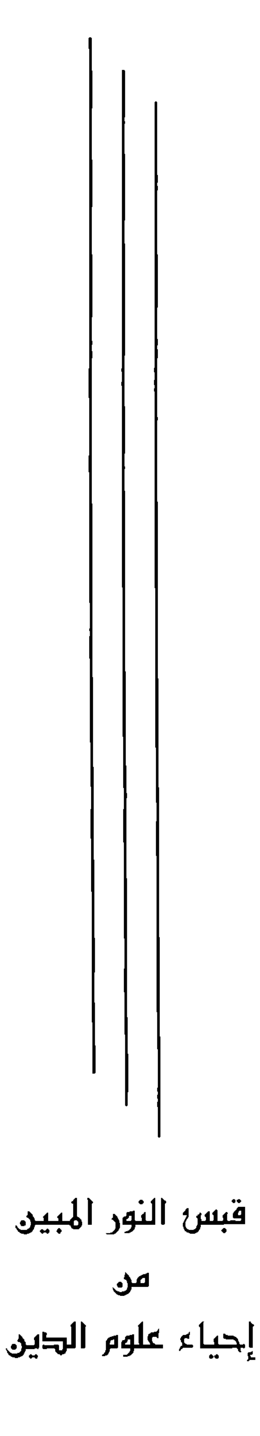
الداعية الإسلامي العلامة

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم



بسم الله الرحمن الرحيم



قبس النور المبين

من

إحياء علوم الدين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله محيِي القلوب ومنوِّرِها، ومزكِّي النفوس ومطهِّرِها، قضى بالفلاح لمن زكَّاها، وبالخَيبة على من دسَّاها. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]. وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُه ورسوله، المؤتمنُ على تلاوة الآيات وتزكية النفوس، وتعليمنا الكتاب والحكمة وما لم نكن نعلم من قِبل الرحمن الرحيم، إذ قال في حقه في الذكر الحكيم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة]، اللهم صلِّ وسلِّم على أمينك المأمون الهادي إلى صراطك المستقيم، سيدنا محمد وعلى آله وأهل بيته الذين أذهبتَ عنهم الرجسَ وطهَّرتَهم تطهيرًا، وعلى أصحابه المهاجرين والأنصار الذين أثنيتَ عليهم في كتابك وأوعدتهم الحسنى وأجراً كبيرا، وعلى من سار في طريقهم القويم بقلبٍ سليم، وعلينا معهم يا علي يا عظيم.

أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، وقال جل وعلا: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى]، وإن شأناً يترتب عليه الفلاح، ويتحقق به الفوز والنجاح، لجديرٌ بأن يصرف إليه المؤمن عنايتَه وحرصَه ورغبتَه ويقوِّي اهتمامه به واجتهاده في تحصيله؛ ولقد ورَّث رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أمَّته في بلاغه عن ربه ما يصلحهم ويهديهم ويكفيهم ويرقِّيهم في تنظيم حركة الحياة والمعاملات بينهم من أحكام الإسلام، وتصحيح معتقداتهم من علوم الإيمان، وما يُحكِمون به الإسلامَ والإيمانَ على وجه الصدق والإخلاص فيتحققون بحقائقهما مُرتقين قمةَ الذوق والوجدان من علوم الإحسان، المفضية بهم إلى شرف وكرامة المعرفة الخاصة بالله والمحبة الخالصة له ومنه والقرب والرضوان، وبذلك يخرج الإنسان عن حصر وحبس المحسوسات ومادة الأكوان بعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين في معرفة الرحمن.

ولقد تلقَّى تلك المواريث النبوية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم صحابته وأهل بيته، وتلقاها عنهم التابعون وتابعوهم بإحسانٍ ممن والاهم واتصل بهم، وهي وإن كانت وسائلُ تَلَقِّيها



قوالبَ الألفاظ والإشارات والكتابات والمجالسات والمصاحبات وملاحظة الأعمال والصفات، إلا أن حقائقها لا تحلُّ إلا في القلوب النقية والأرواح الطاهرة والسرائر الصافية، وقد وعد اللهُ نبيَّه أن لا تزال طائفةٌ من أمته ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من ناوأهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون، فلما بدا الضعفُ والنقصُ في فقه الباطن والتزكية والذوق لعلوم الإحسان هيأ الله في عصر التابعين من يُبيِّنها وينشرها للأمة ويحدوهم إليها ويكونوا قدوةً فيها أمثال سيدنا علي زين العابدين بن الحسين، وأويس بن عامر القرني، والحسن بن يسار البصري، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير. ولم يزل يتوارث التبيينَ لها والقدوةَ فيها أهلُ الصلة الخاصة بهم و التلقي عنهم قرناً بعد قرن.

ولما بدَت حاجة الأمة إلى توضيح أحكام الإسلام في العبادات والمعاملات وحراستها من التقوُّل فيها بغير علم والتطاول عليها من غير أهلها، وبيان كيفية استنباطها لأهلها وضوابط وقواعد استخراجها من أصلها أبرز الله في القرن الثاني والثالث من يقوم بذلك الواجب العظيم على الوجه الأمثل، أمثال الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، وخلَفهم في الحفاظ على ذلك الموروث النبوي مَن تلقَّى عنهم واتصل بهم قرناً بعد قرن.

ولما اتسعت رقعة الإسلام واختلط المسلمون بطوائف من أهل

الشرق والغرب، وظهرت أهواء متَّبَعة احتاجت الأمة إلى من يحفظ عليها ويبيِّن لها الموروثَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته في مسائل الإيمان، هيأ الله تعالى وأبرز أمثال الإمامين العظيمين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، وخلَفهم من تلقى عنهم واتصل بهم قرناً بعد قرن، عليهم رحمة الله تعالى ورضوانه أجمعين.

وكان ممن أظهر الله تعالى وأعظم به النفعَ للأمة في آخر القرن الخامس الهجري وأول السادس حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي أعلى الله درجاته، وكان من أجمع كتبه وأنفعها وأحكمها وأوسعها وأرفعها كتاب: «**إحياء علوم الدين**»، وقد احتوى من أسرار التزكية مع العلم الواسع والنور التام على ما لم يوجد ولم يجتمع في كتابٍ غيره، ونفع الله به أهلَ المشارق والمغارب.

وهو أربعون كتابًا، العشرة الأولى في العبادات، والعشرة الثانية في العادات، والعشرة الثالثة في المهلكات، والعشرة الرابعة في المنجيات.

ولا شك أن جميع مضامين تلك الكتب الأربعين مما يتعلق بسرِّ التزكية يندرج تحت آياتٍ قرآنيةٍ وأحاديثَ صحيحة نبوية وآثارٍ لخواص أهل القرون الأولى مروية، وإذا ذُكر في أثناء الكلام استشهادٌ بشيءٍ من الأحاديث التي في سندها ضعف، فلا توجد مسألةٌ قام عليها أصل بابٍ

من أبواب الإحياء فضلاً عن كتابٍ من كتبه ترتكز على ذلك الحديث أو تلك الرواية. بل كثيراً ما يورِد في المسألة الواحدة عدداً من الأخبار والآثار، وكل ما يهدف إليه عند حسن بيانه ومعالجته لأدواء القلوب وعللها مبنيٌّ على أصلٍ من الكتاب العزيز والسنة والغراء.

ولما كانت الهممُ قد ضعفت لاستيفاء واستيعاب ما تضمنه مثل ذلك الكتاب المبارك من الفوائد، وكانت زبدته المقصودة في شئون هذه التزكية والتهيئة للترقية في مراتب العبودية لله تعالى ينبغي أن يستفيد منها القاصي والدان من أهل الإسلام والإيمان، ومن زمن لآخر يبعث الله في القلوب والنفوس تشوُّقًا وتشوُّقًا للقيام بشأن هذه التزكية وللترقِّي في مراتب القرب من الحق جل جلاله، وفي زمننا قلوبٌ كثيرةٌ راغبةٌ في هذا المسلك، وهي مفتقرة إلى بيانٍ واضح، وإلى نبإٍ عن أخبار السير فصيحٍ صريحٍ نافع، أحببنا لكل ذلك وسواه من المقاصد الحسنة أن نأخذ من إحياء علوم الدين قبسَ نورٍ مبينٍ يهتدي به السائر إلى الله والسالك في طريق الله والمتابع لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من كل راغبٍ في رضوان مولاه والوصول إليه تعالى في علاه بيُسرٍ وسهولة، تجمع له من سر ذلك الكتاب وخيره وخصائصه جوامعَها وزبدتَها وخلاصتَها، فيسهل استيعاب المقصود واستيضاح المراد في شئون هذه التزكية بهذا الإيجاز والاختصار الذي حرصنا فيه على أن نُبقي ألفاظاً وكلماتٍ



من عبائر الشيخ المؤلف نفسه، وأن نستوعب المهمَّ من كل كتاب، وقد ذكرنا تخريج الأحاديث التي نقلناها عنه، وأكثره من تخريج الحافظ العراقي[1] رحمه الله في هذا المختصر المسمى:

«قبس النور المبين من إحياء علوم الدين»

وهذا ملخص ربع المهلكات من الإحياء، والله نسأل أن ينفع به كما نفع بأصله، ويجعلنا ومَن قرأه مفاتيح للخير مغاليق للشر، فائزين بمعرفته تعالى ومحبته ورضاه وقرة عين رسوله وعبده وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم وبارك وعلى آله وصحبه وسائر إخوانه من النبيين والمرسلين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. وزادَنا وكلَّ قارئٍ ومستمعٍ وآخذٍ له ومطالعٍ فيه وناشرٍ له فهماً ونفعاً ونوراً وإرشاداً وفيضاً وإمداداً وإصلاحا وإسعادا. وبالله التوفيق وعليه التكلان، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

---

(١) وقد حرص الناشر على تخريج الأحاديث من مصادرها الرئيسة من الصحاح وكتب السنة النبوية، وإثباته في حواشي سفلية.

كتاب عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المُطَّلِعِ على خفيَّات السرائر، العالمِ بمكنوناتِ الضمائرِ. والصلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين، وجامعِ شَملِ الدين، وعلى آله الطَّيِّبينَ الطاهرين.

أما بعد.. فشرفُ الإنسان وفضيلتُه باستعدادِه لمعرفة الله سبحانه وتعالى، فهي في الدنيا جمالُه وكمالُه وفخرُه، وفي الآخرة عدَّتُه وذخرُه؛ وإنما استعدَّ للمعرفة بقلبه، فالقلبُ هو العالِمُ بالله، والمتقرِّبُ إلى الله، والعاملُ لله، والساعي إلى الله، والمكاشَف بما عندَ الله ولديه، والجوارحُ أتباعٌ وخدمٌ وآلات.

وإن القلبَ والنفسَ والروحَ والعقلَ تُطلَق على معنى، وهو لطيفةٌ ربانية روحانية هي حقيقةُ الإنسان والمدرِكُ العارف منه، فهذه اللطيفة العالِمة المُدرِكة مِن الإنسان قد تسمى قلبًا أو روحًا أو عقلًا أو نفسًا. كما أنّ القلب قد يُطلَق على اللحم الصنوبري الشكلِ المُودَعِ في الجانب الأيسر من الصدر، وهذا القلب موجودٌ للبهائم، وهو مِن عالَمِ المُلك والشهادة.

وقد تُطلَق النفسُ بالمعنى الجامعِ لقوة الغضب والشهوة في الإنسان.

وقد يُطلَق الروحُ على الجسم اللطيف الذي منبعُه تجويف القلب الجسماني، فيُنشَر بواسطة العروق الضوارِبِ إلى سائر أجزاء البدن.



وكما قد يُطلق العقل على العلم بحقائق الأمور، ولكن إذا أُرِيد به المدرِكُ للعلوم كان هو القلبَ، فقد اشتركت الأربعة الألفاظ في هذا المعنى.

❖ جنود القلب:

وللقلب جنودٌ تحصرها ثلاثةُ أصناف:

صنفٌ باعث ومستحِثٌّ إمّا إلى جلبِ النافع المُوافق كالشهوة، وإمّا إلى دفع الضارِّ المنافي كالغضب، ويعبَّر عن هذا الباعث بالإرادة.

والثاني: هو المحرِّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبَّر عنه بالقدرة.

والثالث: هو المُدرِك المتعرِّف للأشياء كالجواسيس، وهي قوة البصر والسمع والشمِّ والذوق واللمس، ويعبَّر عنها بالعلم والإدراك.

❖ بيان خاصية قلب الإنسان:

ما يختص به قلبُ الإنسان ـ ولأجلِه عظُم شرفُه واستأهل القربَ من الله تعالى ـ راجعٌ إلى عِلمٍ وإرادة:

أما العلم: فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية، فإنها وراء المحسوسات ولا يشاركُه فيها الحيَوانات.

وأما الإرادة: فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبةَ الأمر وطريقَ الصلاح فيه، انبعثَ من ذاته شوقٌ إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات، بل يكون على ضدِّ الشهوة، فقد تَنفِرُ الشهوة عن إجراء عملية جراحية والعقل يريدها.



فاختُصَّ قلبُ الإنسان بعلمٍ وإرادةٍ تنفكُّ عنها سائرُ الحيوانات، بل ينفكّ عنها الصبيُّ أول الفطرة، وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ.

وهو في حصول هذه العلوم له درجتان:

إحداهما: أن يَشتمل قلبُه على العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجوازِ الجائزات الظاهرة، فتكون العلوم النظرية غيرَ حاصلةٍ إلّا أنها ممكنةٌ قريبةٌ، كمن عرَف من الكتابة الدواةَ والقلم والحروف المفردة دون المركَّبة، فقد قاربَ الكتابة ولم يبلغها.

الثانية: أن تتحصَّل له العلومُ المكتَسَبة بالتجارِب والفكر، فتكون كالمخزونة عنده يرجع إليها متى شاء.

ولأهل هذه الدرجة مراتبُ لا تُحصى، فهم يتفاوتون بكثرة المعلومات وقلَّتها، وشرفِ المعلومات وخِسَّتِها، وبطريق تحصيلها، إذ تَحصُلُ لبعض القلوب بإلهامٍ إلهي، ولبعضِهم بتعلُّمٍ واكتساب، وقد يكون سريعَ الحصول وقد يكون بطيءَ الحصول. فدرجات التلقِّي فيه غيرُ محصورة، وأقصى الرُّتَب رتبةُ النبي الذي تنكشف له كلُّ الحقائق أو أكثرُها من غير اكتساب وتكلُّف، بل بكشفٍ إلهي في أسرع وقت.

وأشرفُ أنواع العلم هو العلم بالله وصفاتِه وأفعالِه، فبهِ كمالُ الإنسان وفي كماله سعادتُه وصلاحُه لجِوارِ حضرة الجلال والكمال. فالبدن مركَبٌ للنفس، والنفس محَلٌّ للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيّتُه التي لأجلها خُلِق. والإنسان على رتبةٍ بين البهائم والملائكة، فإنه من حيث يتغذَّى ويَنسُل فنبات، ومن حيث يُحسُّ ويتحرك فحيَوان، ومن حيث صورتُه وقامَتُه فكالصورة المنقوشة على الحائط. وإنما خاصيتُه معرفة حقائق الأشياء.

ومَن استعمل جميعَ أعضائه وقُواه على وجه الاستعانةِ بها على العلم والعمل فقد تشبَّه بالملائكة، ومن صرفَ همَّتَه إلى اتِّباع اللذّاتِ البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحطَّ إلى حضيضِ البهائم.

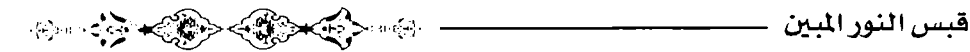
ويمكن الاستعانةُ بكل عضوٍ على طريق الوصول إلى الله، فمَن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدَل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة أن يَجعل لقاءَ الله مَقصِدَه، والدارَ الآخرة مستقرَّه، والدنيا منزلَه، والبدَن مركبَه، والأعضاءَ خدَمَه.

قال سيدُنا عليٌّ رضي الله عنه وكرّم وجهه في تمثيل القلوب: إن لله تعالى في أرضه آنيةً وهي القلوب، فأحَبُّها إليه تعالى أرقُّها وأصفاها وأصلبُها. ثم فسَّره فقال: أصلبُها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقُّها على الإخوان. وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقولِه تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: معناه مَثَلُ نور المؤمن وقلبِه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠] مَثَلُ قلب المنافق. وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ هو قلب المؤمن. وقال سهل: مثَلُ القلب والصدر مثَلُ العرش والكرسي.. فهذه أمثلة القلب.

❖ مجمَعُ أوصافِ القلب:

إنّ الإنسان اصطحب في خِلقتِه أربعَ شوائب:

الأوصاف السَّبُعيَّة والبهيمية والشيطانية والربانية. فمن حيث سُلِّط عليه الغضب يتعاطى أفعالَ السباع من العداوة والبغضاء والتهجُّم بالضرب والشتم.



ومن حيث سُلِّطت عليه الشهوة يتعاطى أفعالَ البهائم من الشَّرَه والحرص. ومن حيث إنّه في نفسه أمرٌ ربّانيٌّ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فإنه يدَّعي لنفسه الربوبيّةَ ويحبّ الاستيلاءَ والاستعلاءَ والتخصصَ والتفردَ بالرئاسة والانسلال عن العبودية والتواضعِ والاطلاعِ على العلوم. ومن حيث يختص عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانيةٌ، فصار يستعمل التمييزَ في استنباط وجوهِ الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمَكرِ والحيلة والخِداع، ويُظهر الشرَّ في معرِض الخير، وهي أخلاقُ الشياطين.

فكأنّ المجموعَ في إهابِ الإنسان: خِنزيرٌ هو الشهوة، وكلبٌ هو الغضب، وشيطانٌ يهيِّج شهوةَ الخنزير وغيظَ السَّبُع، وحكيمٌ وهو العقل، وهو مأمورٌ بأن يدفعَ كيدَ الشيطان بأن يكشِف عن تلبيسه، وأن يكسِر شهوةَ الخنزير بتسليط الكلب عليه، ويدفع ضراوةَ الكلب بتسليط الخنزير عليه، فإن فعل ذلك استقامَ أمرُه وحالُه وجرى على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في تدقيق الفكر ليُشبعَ الخنزير ويُرضيَ الكلب، فيكون دائمًا في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثرِ الناس، والعجب ممن ينكر على عبَدَةِ الأصنام عبادتَهم للحجارة، ولو كُشف الغطاء عنه وكُوشِف بحقيقة حاله لرأى نفسَه ماثلًا بين يدَيْ خنزير ساجدًا له مرةً وراكعًا أخرى، ومنتظرًا لإشارته وأمرِه، أو رأى نفسَه ماثلًا بين يدي كلبٍ عقور عابدًا له مطيعًا سامعًا، وهذا غاية الظلم.

ثمَّ إنه يترتب على طاعة خنزير الشهوةِ صدورُ صفة الوقاحة والخُبث والتبذير والتقتير والرياء والمجانة والعبث والحرص والجشع والمَلَق والحسد والحقد والشماتة وغيرها.



ويصدُر عن طاعة كلبِ الغضب صفةُ التهوُّر والبذالة والبذخ والصَّلَف والاستشاطة والتكبُّر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقيرِ الخلق وإرادة الشرِّ وشهوة الظلم وغيرها.

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفةُ المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والغش والخِب وأمثالها.

ولو عكس الأمرَ وقهر الجميعَ تحت سياسة الصفة الربانية لاستقرَّ في القلب من الصفات الربانية العلمُ والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاقُ التقدّم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة وردِّه إلى حدِّ الاعتدال صفاتٌ شريفة مثلُ العفَّة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظَرَف والمساعدة وأمثالها.

ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردِّها إلى حدِّ الواجب صفةُ الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنُّبل والشهامة والوقار وغيرها.

فالقلب في حكم مرآةٍ قد اكتنفتْه هذه المؤثِّراتُ، وهذه الآثار على التواصل واصلةٌ إلى القلب. أمّا الآثار المحمودة فتزيد مرآةَ القلب جلاءً وإشراقًا ونورًا وضياءً.

وأمّا الآثار المذمومة فإنها مثلُ دخانٍ مُظلِم يتصاعد إلى مرآة القلب، فيتراكم عليه إلى أن يسوَدَّ، وهو الطبعُ والرَّين ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين: ١٤].



❖ مثَلُ القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة:

كما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

أحدها: نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يشكل ويصقل.

والثاني: لخُبثه وصدَئه وكُدورتِه.

والثالث: لكونه معدولًا به عن جهة الصورة إلى غيرها.

والرابع: لحجابٍ مرسلٍ بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة.

فكذلك القلبُ مرآةٌ لأن ينجليَ فيها حقيقةُ الحق في الأمور، وإنما خلَت عن العلوم لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نقصانٌ في ذاته، كقلب الصبي فإنه لا تنجلي له المعلومات لنقصانه.

الثاني: لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال ﷺ: «**من عمِل بما علِم ورَّثه اللهُ علمَ ما لم يَعلم**»[(١)].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٣/٦): «من عمل بما علم فتح الله له ما لا يعلم» (١٥/١٠): قال العراقي: وضعفه. في ترجمة أحمد بن أبي الحواري.

قال السيوطي في «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بهذا اللفظ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس مرفوعًا: «من تعلم علمًا فعمل به كان حقًّا على الله أن يعلمه ما لم يكن يعلم»، وفي كتاب رواية الكبار عن الصغار لأبي يعقوب البغدادي عن سفيان: «من عمل بما يعلم وُفّق لما لا يعلم».

الثالث: أن يكون معدولًا به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلبَ المطيع الصالح وإن كان صافيًا ليس يتّضح فيه جليةُ الحق لأنه ليس يطلبُ الحقَّ وليس محاذيًا بالمرآة شطرَ المطلوب، بل ربما يكون مستوعبَ الهمِّ بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة، ولا يصرف فكرَه إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلٓهية، فلا ينكشف له إلّا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكِّرًا فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكِّرًا فيها.

الرابع: الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرِّد الفكرِ في حقيقةٍ من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبًا باعتقادٍ سبق إليه من الصِّبا على سبيل التقليد، وبه حُجِب أكثرُ المتكلِّمين والمتعصبين للمذاهب، بل كثيرٌ من الصالحين لأنهم محجوبون باعتقاداتٍ تقليديةٍ جُمِّدت في نفوسهم.

الخامس: الجهلُ بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فإنَّ طالبَ العلم ليس يمكنه أن يُحصِّل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبَه، فإن العلوم المطلوبة ليست فِطرية لا تُقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلِفان ويزدَوِجان على وجهٍ مخصوص.

فالجهل بالأصول وكيفيةِ الازدواج هو المانع من العلم، ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي فيها الصورة، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلًا بالمرآة، فإذا دفع المرآةَ بإزاء وجهِه لم يكن قد حاذى بها شطرَ القفا فلا يظهر القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدَل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يُبصرها ويراعي مناسبةً بين وضعِ المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة



المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابَلة العين، ثم تدرك العين صورةَ القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرقٌ عجيبةٌ فيها ازوِرارات وتحريفات أعجبُ ممّا ذكرناه في المرآة.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة الحقائق. وإلّا فكلُّ قلبٍ بالفطرة صالحٌ لمعرفة الحقائق، لأنه أمرٌ ربانيٌّ شريفٌ ومستعدٌّ لحمل الأمانة. قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «**كل مولودٍ يولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»(١). وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إن لله آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوب عباده الصالحين**»(٢)، وفي الخبر أنه قيل: يا رسول الله، مَن **خيرُ الناس**؟ قال: «**كل مؤمنٍ مَخْمُومِ القَلْبِ**»، قيل: وما مخمومُ القلب؟ قال: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لا غِشَّ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غَدْرَ وَلَا حَسَدَ**»(٣).

وإنما مرادُ الطاعات وأعمالُ الجوارح كلها تصفيةُ القلب وتزكيتُه وجلاؤه، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]، ومراد تزكيته: حصولُ أنوار الإيمان فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولهذا التجلّي والإيمان ثلاثُ مراتبَ:

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٢/١٩، رقم ٨٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح (٤٢١٦)، وذكره الحكيم (٢/١٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٨٣)، والخرائطي في المكارم (ص ٣٦ رقم ٤٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/٢١٧، رقم ١٢١٨).



الأولى: إيمانُ العوام، وهو التقليد المحضُ.

الثانية: إيمانُ المتكلمين، وهو ممزوجٌ بنوعِ استدلال.

الثالثة: إيمانُ العارفين، وهو المشاهَدُ بنور اليقين.

ومثال ذلك: أنَّ تصديقَك بكون زيد مثلًا في الدار له ثلاثُ درجات:

الأولى: أن يُخبرَك مَن جرَّبتَه بالصدق ولم تَعرفه بالكذب ولا اتَّهمتَه في القول، فقلبُك يسكن إليه ويطمئن بخبره، وهذا مجرد التقليد، وهو مِثل إيمانِ العوامّ.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلامَ زيدٍ وصوتَه من داخل الدار ولكنه وراء جدار، فتستدل على كونه في الدار، فيكون إيمانُك وتصديقك أقوى من تصديقك بمجرَّد السماع.

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدارَ فتنظر إليه بعينك وتشاهدَه؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية، وهي تشبه معرفةَ المقرَّبين والصدِّيقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة.

فاستعِد وتهيَّأْ لها بتطهير القلب وكثرة الذكر وسدِّ مداخل الشيطان إلى القلب. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قيل: ومَنِ المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»[(١)] وفي لفظ «**المستهتَرون بذكرِ الله**» أي المكثرون منه أبدًا[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فكل

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) رواه الترمذي بلفظ: «الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافًا» (٣٥٩٦) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.



حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلُّمٍ فهي بطريق الإلهام. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق]، أي من الإشكالات والشُّبَه ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] أي يعلِّمه علمًا من غير تعلُّم وتجربة. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قيل: نورًا يفرِّق به بين الحق والباطل فيخرج به من الشبهات.

وكان ﷺ يُكثر في دعائه من سؤالِ النور فقال: «**اللَّهُمَّ أعطني نورًا، وزدني نورًا، واجعل في قلبي نورًا، وفي قبري نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، حتى قال: وفي شعري وفي بشري وفي لحمي ودمي وعظامي**» كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما(1). وقال عليٌّ رضي الله عنه وكرم وجهه: ما عندنا شيء أسرَّه النبيُّ ﷺ إلينا إلّا أن يؤتيَ اللهُ تعالى عبدًا فهمًا في كتابه(2). وليس هذا بالتعلم. وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، إنه الفهم في كتاب الله.

وقال ﷺ: «**اتقوا فِرَاسةَ المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى**»(3). وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**العلم علمان: فعلمٌ باطن في القلب فذلك**

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) أخرجه النسائي (٤٧٥٨) من رواية أبي جحيفة قال: «سألنا عليًا فقلنا: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسَمة، إلا أن يعطي الله عبدًا فهمًا في كتابه... الحديث» وهو عند البخاري (١١١) بلفظ: «هل عندكم من رسول الله ﷺ ما ليس في القرآن؟» وفي رواية: «وقال مرة ما ليس عند الناس؟» ولأبي داود (٤٧٦٠) والنسائي (٤٥٣٠): «فقلنا هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس؟ قال: لا إلا في كتابي هذا... الحديث» ولم يذكر «الفهم في القرآن».

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد.



هو العلم النافع، وعلمٌ في اللسان فذلك حجةُ الله على خلقه»[1]، وروى البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر».

❖ وجوب الحذر مِن تسلُّط الشيطان على القلب وسدِّ مداخله:

اعلم أن القلبَ كقبَّةٍ مضروبةٍ لها أبوابٌ تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضًا هدفٌ تنصب إليه السهام من الجوانب؛ وإنما مداخل هذه الآثار المتجدِّدة إمّا من الظاهر فالحواس الخمس، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركَّبة مِن مزاج الإنسان.

وأخصُّ الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وهي ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار، فهي إدراكاته علومًا إمّا على سبيل التجدُّد وإمّا على سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطرُ من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلًا عنها. فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرِّك الرغبة، والرغبة تحرِّك العزم، والعزم يحرِّك النية، والنية تحرِّك الأعضاء.

وتنقسم إلى ما يدعو إلى الشر وهو ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير وهو ما ينفع في الدار الآخرة. فهما خاطران مختلفان، فالمحمود يسمَّى إلهامًا، والمذموم يسمى وسواسًا، ومهما اختلفت الحوادث دلَّ على اختلاف الأسباب.

وسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمَّى ملَكًا، وسبب الخاطر الداعي

---

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر (٢/٣٠٣)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٠٢)، وابن عبد البر في الجامع (١١٥٠) من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ (٤/٣٤٦) من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد، وأعله ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٧٣، ٧٤).



إلى الشر يسمَّى شيطانًا، واللطف الذي يتهيَّأ به القلبُ لقبول إلهامِ الخير يسمَّى توفيقًا، والذي يتهيَّأ به لقبول وسواس الشيطان يسمَّى إغواءً وخِذلانًا، والملَك عبارة عن خَلقٍ خلقه الله، شأنُه إفاضةُ الخير وإفادة العلم وكشفُ الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخَّره لذلك. والشيطان عبارة عن خَلقٍ شأنُه ضد ذلك، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر.

فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملَك، والتوفيق في مقابلة الخِذلان، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فإنَّ الموجودات كلَّها متقابِلةٌ إلا الله تعالى فإنه فردٌ لا مقابل له، بل هو الواحد الحقُّ الخالق للأزواج كلها.

فالقلب متجاذَبٌ بين الشيطان والملَك. وقد قال ﷺ: «**في القلب لَمَّتان: لَمَّةٌ من الملك إيعَادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فَلْيَعْلَمْ أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولَمَّةٌ من العدوِّ إيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق ونهيٌ عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾ [البقرة][1].

ولِتجاذُب القلب بين هذين المسلَّطَين جاء حديث: «**قلبُ المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله**»[2] قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس]، هو منبسط على القلب، فإذا ذكر الله

(١) أخرجه الترمذي وحسنه (٢٩٨٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٥١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.



خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على القلب. ولِتضادِّهما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]، قال ابن وضاح في حديث ذكره: إذا بلغ الرجلُ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجهُ مَن لا يفلح. وقد اتضح بهذا معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان.

فحقٌّ على العبد أن يقف عند كلِّ همٍّ يخطر له ليعلم أنه من لمة الملَك أو لمة الشيطان، وأن يُمعن النظرَ فيه بعين البصيرة لا بِهوًى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي رجعوا إلى نور العلم ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف]، أي ينكشفُ لهم الإشكال. فأمّا مَن لم يروِّض نفسَه بالتقوى فيميل طبعُه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر غلطُه ويتعجَّل هلاكُه وهو لا يشعر.

❖ تفاصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

للشيطان مداخلُ كثيرة يجب عليك أيها المؤمن أن تسدها:

فمِن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، فإن الغضب هو غَول العقل، وإذا ضعف جندُ العقل هجم جندُ الشيطان.

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصًا على شيء أعماه حرصُه وأصمَّه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**حبُّك للشيء يُعمي ويُصِمُّ**»(١).

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٢١٦٩٤) من حديث أبي الدرداء.



ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام وإن كان حلالًا صافيًا، فإنه يقوِّي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان. وروي أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبتُ بها ابنَ آدم، فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعتَ فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا.. قال: لله عليَّ ألّا أملأ بطني من الطعام أبدًا، فقال له إبليس: لله عليَّ ألّا أنصح مسلمًا أبدًا.

ومن أبوابه: حبُّ التزيُّن من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرَّخ، فلا يزال يدعوه إلى التكاثر بذلك والتزين به والتوسُّع فيه حتى يمُرَّ عمرُه في غفلةٍ ويفاجئه الأجل.

ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزَل الشيطان يحبِّب إليه التصنُّعَ والتزيُّن لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يكون المطموع فيه كأنه معبودُه، فلا يزال يفكرُ في حيلة التودُّد والتحبُّب إليه ويثني عليه بما ليس فيه ويداهنه بِتَرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبُّت في الأمور، قال ﷺ: «**العجلةُ من الشيطان والتأنِّي من الله تعالى**»[1]. لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة، وهي تحتاج إلى تأملٍ وتمهلٍ، والعجلة تمنع ذلك.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدوابّ والعقار، فإن كل ما يزيد عن الحاجة فهو مستقَرُّ الشيطان.

ومن أبوابه: البخل وخوف الفقر، فإن ذلك يمنع الإنفاقَ والتصدُّقَ

(١) رواه الترمذي (٢٠١٢) من حديث سهل بن سعد، بلفظ: «**الأناة**»، وقال: حديث غريب.



ويدعو إلى الادِّخار والكنز، ومن آفات البخل الحرصُ على ملازمة الأسواق لجمع المال، وأماكنِ الغش والكذب والخداع.

ومن أبوابه: التعصبُ للمذاهب والأهواء والحقدُ على الخصوم والنظرُ إليهم بعين الازدراء والاحتقار، وذلك مما يُهلك العُبَّاد والفسَّاق جميعًا.

ومن عظيم حِيَلِ الشيطان أن يُشْغِلَ الإنسانَ عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات. قال عبد الله بن مسعود: جلس قومٌ يذكرون اللهَ فأتاهم الشيطان ليقيمَهم عن مجلسهم ويفرِّق بينهم فلم يستطِع، فأتى رفقةً أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسدَ بينهم فقاموا يقتتلون - وليس إياهم يريد - فقام الذين يذكرون اللهَ تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مُراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه: حملُ العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحَّروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمورٍ لا يبلغها حدُّ عقولهم، حتى يشكِّكهم في أصل الدين، أو يخيِّل إليهم في الله تعالى خيالاتٍ يتعالى الله عنها، يصير أحدُهم بها كافرًا أو مبتدعًا وهو به فرِحٌ مسرورٌ مبتهجٌ بما وقع في صدره يظن المعرفة. وفي الحديث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان يأتي أحدَكم فيقول: مَن خلقك؟ فيقول: الله تبارك وتعالى، فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدُكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه»**[1]، والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإنه يجده عوام الناس دون العلماء، وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلِّموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤)، وأحمد (٢١٨٦٧).



ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فمَن يحكم بشرٍّ على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطوِّل فيه اللسان بالغيبة أو يقصِّر في القيام بحقوقه أو ينظر إليه بعين الاحتقار، وكل ذلك من المهلكات، ولذلك منع الشرع من التعرض للتُّهم فقال ﷺ: «**اتقوا مواضعَ التُّهم**»[(١)] وقال لما انصرف مع صفية رضي الله عنها أم المؤمنين يردُّها إلى البيت للأنصارِيَّين وقد مرَّا به: «**إنها صفية بنت حيي**» فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا خيرًا، فقال: «**إن الشيطان يَجْرِي من ابن آدم مَجْرَى الدم من الجسد، وإني خشيتُ أن يدخلَ عليكما**» كما جاء في الصحيحين[(٢)]. فانظر كيف أشفقَ ﷺ على دينهما فحرسَهما، وكيف أشفق على أمته فعلَّمهم طريق الاحتراز من التهمة، فإن أورعَ الناسِ وأتقاهم وأعلمَهم لا ينظر الناس كلُّهم إليه بعينٍ واحدة، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ... ولكن عين السخط تُبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن سوء الظن وعن تهمة الأشرار.

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه ... وصدَّق ما يعتاده مِن توهُّمِ

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء (كتاب شرح عجائب القلوب): لم أجد له أصلًا، وقال الزبيدي في «شرح الإحياء» (٢٨٣/٧) بعد أن ذكر قول العراقي السابق: «قلت: أخرج الزبير بن بكار في الوقفيات عن عمر بن الخطاب قال: مَنْ تعرض للتهمة فلا يلومنّ مَن أساء به الظن، وأخرج البيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب قال: كتب لي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: من عرض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه»، ورمز له المناوي في «كنوز الحقائق» (١٠٤): للبخاري في التاريخ.

(٢) رواه البخاري (٢٠٣٥) ومسلم (٢١٧٥).

فلا بد مِن سدِّ هذه المداخل، وتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة بكثرة الذكر والالتجاءِ إلى الله تعالى، والأخذ بالعلم والاتصال بالأتقياء.

❖ أحوال القلب قبل العمل بالجارحة:

للقلب قبل العمل بالجارحة أحوال أربعة:

الخاطر: وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم. أما الخاطر فلا يؤاخَذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان تحت الاختيار، وفي الحديث: «**عُفِي عن أمتي ما حدَّثت به نفوسَها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1]، ولا يسمى الهم والعزم حديثَ نفس، فالخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس.

وأما الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا تردُّدٌ بين أن يكون اضطرارًا أو اختيارًا، فالاختياري منه يؤاخَذ به والاضطراري لا يؤاخَذ به.

أما الهم بالفعل فإنه مؤاخَذٌ به، إلا أنه إن لم يفعل نُظر: فإن كان قد تركه خوفًا من الله تعالى وندمًا على همِّه كُتبت له حسنة، وإن تعوَّق الفعلُ بعائقٍ أو تركه بعذرٍ لا خوفًا من الله كُتبتْ عليه سيئة، فإنَّ همَّه فعلٌ من القلب اختياري.

وفي الصحيحين[2] عنه ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لأنه أراد قتلَ صاحبه**» أو «**أنه كان حريصًا على قتلِ صاحبه**».

ولا يزال الوسواس على القلب، وإنما ينقطع في أحوال نادرة عند غلَبة

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧/٢٠١).
(٢) رواه البخاري (٣١) ومسلم (٢٨٨٨).

الذكر وقوة إشراق نوره في القلب، والقلب يتقلَّب، وكان النبي ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال: «**لا ومُقَلِّبِ القلوب**»[1]، وكان كثيرًا ما يقول: «**يا مُقَلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»[2].

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردُّد بينهما، ثلاثةٌ: قلبٌ عُمِرَ بالتقوى وزكا بالرياضة وطهُر عن خبائث الأخلاق فهو تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت، فيكون منصرفًا أبدًا في أمور الخير والهدى والنور، ويُمَدُّ بالعون والتوفيق من الله، ويُشرِقُ فيه نور المصباح من مشكاة الربوبية، فهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، وبقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر].

القلب الثاني: هو القلب المخذول المشحون بالهوى، المُدنَّس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطرٌ من الهوى ويهجس فيه، فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتيَ منه ويكشف وجهَ الصواب فيه، فيكون العقل فيه أَلِفَ خدمةَ الهوى وأنِسَ به واستمر على استنباط الحِيَل له، فتستولي النفس وتساعد عليه، فينجذب بالهوى ويقع في الهُوِي والعياذ بالله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

---

(١) كما في البخاري (٦٦٢٧، ٦٦٢٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه (٢١٤٠) ولمسلم (٢٦٥٤): «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».



القلب الثالث: قلبٌ تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر، فينبعث العقل إلى نصرة خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبِّح فعلَها، فيصير هكذا على المجاهدة والتردد متجاذبًا بين الحزبين إلى أن يغلبَ على القلب ما هو أولى به، فإن كانت الصفات التي في القلب الغالبَ عليها الصفاتُ الشيطانية غلب الشيطان ومال القلبُ إلى جنسهِ من أحزاب الشيطان مُعرِضًا عن حزب الله وأوليائه، وإن كان الأغلبَ على القلب الصفاتُ الملكيّة لم يُصغِ القلبُ إلى إغواء الشيطان وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مالَ إلى حزب الله وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فهو الهادي والمُضلُّ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادَّ لحُكمه ولا معقِّبَ لقضائه، نسألُه الثباتَ والاستقامةَ على ما يحبّ، وأن يجعلنا في عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان.. والحمد لله رب العالمين.

** ** **

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق

وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي زيَّن صورةَ الإنسان بحُسنِ تقويمه وتقديره، وفوَّض تحسينَ الأخلاق إلى اجتهادِ العبد وتشميره. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبدِ الله ونبيِّه وصفيِّه وبشيره ونذيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهَّروا وجهَ الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره.

أما بعد: فالخُلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصدِّيقين، وشطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين. والأخلاق السيئة سمومٌ قاتلة مهلكات، ومخازٍ فاضحة، وخبائث مُبعِدة عن جوارِ رب العالمين، فهي أمراض القلوب. وقد اشتدت عنايةُ الأطباء بضبط العلاج للأبدان وليس فيها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بقانون علاج أمراض القلوب المؤدِّية إلى فوت الحياة الباقية أولى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]. فبِمُعالجتِها تُزكَّى وبإهمالها تُدسَّى.

❖ فضيلة حسن الخلق:

قال الله لنبيِّه مُثنيًا عليه مُظهِرًا نعمته لديه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، وسأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ عن حُسن الخلُق، فتلا قولَه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ثم قال: «**هو أن تصل**

مَن قطعك، وتُعطيَ من حرمَك، وتعفوَ عمن ظلمك»[1]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أثقلُ ما يوضعُ في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسنُ الخلق» وفي رواية «أثقل ما يوضع في الميزان خلقٌ حسن»[2]، وقال ﷺ: «إنكم لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم فسعُوهم ببسطِ الوجه وحسن الخلق»[3]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبدَ ليبلغ بحُسن خلقِه عظيمَ درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيفٌ في العبادة»[4].

وقال الحسن: من ساء خُلقُه عذَّب نفسَه. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن الرجل ليبلغُ بحسن خُلقه أعلى درجةٍ وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلُقه أسفلَ دركٍ وهو عابد. وقال الكناني: التصوف خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في التصوف. وقال ابن عباس: لكل بنيانٍ أساس، وأساس الإسلام حسنُ الخلق. وقال عطاء: ما ارتفعَ من ارتفع إلا بالخلقِ الحسن. ولم ينل أحدٌ كمالَه إلا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فأقرب الخَلق إلى الله عز وجل السالكون آثارَه بحسن الخلق.

❖ بيان حسن الخلق:

الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معًا، يقال حَسَن الخُلُق والخَلْق، أي

---

(١) أخرجه ابن مردويه بأسانيد حسان، ورواه أحمد (١٥٦١٨) بلفظ: «أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ مَنَعَكَ وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ»، والطبراني (٧٣٩)، والحاكم (١٧٨/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وقال في بعض طرقه: حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٨٤٢)، وأبو نعيم (٢٥/١٠)، البزَّار (١٩٧٧ - ١٩٧٩) ورجاله ثقات والحاكم (١٢٤/١) وأبو يعلى (٦٥٥٠)، والبيهقي (٨٠٥٤).

(٤) أخرجه الطبراني (٧٥٤)، والضياء (١٨١٢)، والخرائطي وأبو الشيخ بإسناد جيد. وقال الهيثمي (٢٥/٨): رواه الطبراني عن شيخه المقدام بن داود، وهو ضعيف، وقال ابن دقيق العيد في الإمام: إنه وثق، وبقية رجاله ثقات.



الباطن والظاهر، فيُراد بالخَلق الصورة الظاهرة، والخُلُق الصورة الباطنة. فالخلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة، فإن كانت تصدر عنها الأفعال الجميلة سُمِّيت خلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت خُلُقًا سيّئًا.

فهاهنا أربعة أمور:

الأول: فعل الجميل أو القبيح. والثاني: القدرة عليهما. والثالث: المعرفة بهما. والرابع: هيئة في النفس تميل إلى أحد الجانبين.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل فقط، فربَّ شخصٍ خُلقه السخاء ولا يبذُل إمّا لفقدٍ أو لمانع. فالخُلق هو المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها العمل، فالخُلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم إلا باجتماع حسن العينين والأنف والفم والخد، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها، فإذا اعتدلَت حصل حسنُ الخلق وهي: العلم والغضب والشهوة والعدل بين هذه الثلاثة.

أما قوة العلم فحُسنُها وصلاحُها أن يسهل به دركُ الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، والحق والباطل في الاعتقادات، والجميل والقبيح في الأفعال، فهي تثمر الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأما قوّة الغضب فحُسنُها: أن يصير انقباضُها وانبساطُها على ما تقتضيه الحكمة؛ وكذلك الشهوة صلاحُها أن تكون تحت إشارة الحكمة، أي العقل والشرع.

وأما قوة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

وأمهات محاسن الأخلاق أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. فمِن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطُّن لدقائق الأعمال، وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء. ومن تفريطها يصدر البلَهُ والغَمارة والحمق والجنون.

وأمّا خُلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتوءدة وأمثالها. وأمّا إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأمّا تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأمّا خلق العِفَّة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظُّرْف وقلة الطمع. وأما ميلُها إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والمجانة والعبث والحسد والملق والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء، وغير ذلك.

إذن فالأمهات هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمالَ الاعتدال في هذه الأربع إلا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم. والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد، فكل من قربَ منه في هذه الأخلاق فهو قريبٌ من الله بقدر قربِه من رسول الله ﷺ.



وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات]، فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتيابٍ هو قوة اليقين وثمرة العقل ومنتهى الحكمة. والمجاهدة بالمال هي السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدِّ الاعتدال. وقد وصف الله الصحابةَ فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، إشارة إلى أن للشدة موضعًا وللرحمة موضعًا.

❖ قبول الأخلاق للتغيير:

لو كانت لا تقبل التغييرَ لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، كيف وقد قال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق»[1]؟ فإن الغضب والشهوة تقبل التأثّر بالاختيار، ولو أردنا قمعَهما وقهرَهما بالكلية لم نقدِر عليه، ولو أردنا سلاستَهما وقَودَهما بالرياضة والمجاهدة قدَرنا عليه. كما أن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خُلقت خلقةً يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها، ولا تصير النواة تفاحًا أصلًا ولا بالتربية، فبعض الأمور ممكِنة وبعضها غير ممكِنة، ومن الممكِن تقويم الخُلُق وتعديله بالأسباب.

والجبلاَّت تختلف في قبول التأثير والتغيير لاختلاف قوة الغريزة في أصل الجِبلَّة، ولتأكد الخلق بكثرة العمل بمقتضاه.

فالإنسان الذي لا يميِّز بين الحق والباطل، والجميل والقبيح، سريعُ القبول للعلاج فلا يحتاج إلّا إلى معلمٍ مرشد.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) والحاكم (٢/٦٧٠)، والبيهقي (٢٠٥٧١).

ومن قد عرف ولكن لم يتعوَّد العمل الصالح بل ينقاد لشهوته أمرهُ أصعب من الأول، إذ لابد من قلعِ ما رسخ في نفسه أوَّلًا، ومن أن يغرس في نفسه صفةَ الاعتياد للصلاح ثانيًا.

ومَن اعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسَنة وتربَّى عليها فيكاد تمتنع معالجتُه، وإنما يُرجى صلاحُه على الندور.

وأصعب المراتب أن يكون مع نشأته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل الذي به يرى الفضيلةَ في كثرة الشر ويباهي به، ويظن أن ذلك يرفع قدرَه. فالأول جاهلٌ فقط. والثاني: جاهل وضالّ. والثالث: جاهل وضالّ وفاسق. والرابع: جاهل وضالّ وفاسق وشرّير.

وكذلك ليس المراد من تغيير الخُلق إلى الأحسن قمعَ صفة الشهوة والغضب بالكلية، بل تقويمها، قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، إنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل لبطل الجهاد. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل والفاقدين الغيظ، فردُّ الغضبِ والشهوةِ إلى حدِّ الاعتدال هو المراد بتغيير الخلق. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى في الغضب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير، والشجاعة بين الجُبن والتهور، والعفَّة بين الشرهِ والجمود، وكذلك سائر الأخلاق، فكِلا طرفيِ الأمور ذميم.

إلا أنه يلزم الشيخ في إرشاده المريدَ أن يُقبِّح عنده الغضب رأسًا، ويذم



إمساكَ المال رأسًا، لئلّا يتَّخذ العذرَ في استبقاء البخل والغضب، فإذا اجتهد لم يتيسّر له إلا كسر السَّوْرَةِ فيعود إلى الاعتدال والوسط.

❖ السبب الذي به يُنال حسن الخلق:

قد عرفت أنه يرجع إلى اعتدالِ قوةِ العقل وكمالِ الحكمة، واعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها مطيعةً للشرع والعقل، وهذا يحصل على وجهين:

أحدهما: بجُودٍ إلهي، وكمالٍ فطري.

الوجه الثاني: اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة بحملِ النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلُق المطلوب، فمن أراد تحصيلَ خُلق الجود فيتكلَّف تعاطي فعلَ الجود وهو بذلُ المال، فلا يزال يواظب عليه تكلُّفًا، ويطالب به نفسَه حتى يصير طبعًا له ويتيسر عليه.

وكذلك من أراد تحصيلَ خلقِ التواضع يواظب على أفعال المتواضعين بمجاهدةٍ وتكلُّفٍ إلى أن يصير طبعًا له. وجميع الأخلاق المحمودة تحصل بهذا الطريق، قال الله سبحانه وتعالى في الصلاة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أُعبدِ اللّهَ في الرضا، فإن لم تستطِع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير**»[1].

وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد بكثرة المواظبة. وغاية الأخلاق أن ينقطع عن النفس حبُّ الدنيا ويرسخ فيها حبُّ الله تعالى. أمّا إذا كانت النفس بالعادة تستلذُّ بالباطل وتميل إليه فكيف لا تستلذ الحق إذا رُدَّت إليه والتزمت المواظبة عليه؟

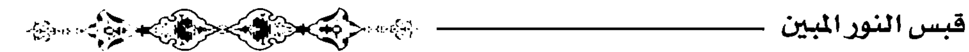
(١) قال الزَّبيدي في «شرح الإحياء» (٣٢٨/٧): «عزاه العراقي إلى المعجم الكبير للطبراني ولم يذكر صحابيًا».

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارةً تكون بالطبع والفطرة، وتارةً باعتياد الأفعال الجميلة، وتارةً بمشاهدةِ أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير. فمَن تظاهرتْ في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلُّمًا فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذِلًا بالطبع واتفق له قرناء السوء، فتعلَّم منهم، وتيسَّرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكلٍّ درجةٌ في القرب والبُعد ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١١٨﴾ [النحل].

❖ تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

مثال النفس في علاجها بمحوِ الرذائل وجلبِ الفضائل مثالُ البدن في علاجه بِمَحْوِ العِلل وكسبِ الصحة له. والغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدةَ المَضرةُ بعوارضِ الأغذيةِ والأهويةِ والأحوال، وكلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، ولا يُخلق البدن في الابتداء كاملًا وإنما يَكمُل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء؛ كذلك النفس تُخلق قابلةً للكمال وإنما تَكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذِّي بالعلم.

فالشيخ المتبوع يطبِّبُ نفوسَ المريدين ويعالج قلوبَ المسترشدين لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف ما لم يعرف أخلاقَهم وأمراضَهم. بل ينظر في مرض المريد وحالِه وما تحتمله بنيتُه من الرياضة. فإن كان مبتدئًا جاهلًا بحدود الشرع فيعلِّمه أوَّلًا الطهارة والصلاة وظواهرَ العبادات، وإن كان مشغولًا



بحرام أو مقارفًا لإثم فيأمره أوّلًا بتَركِ ذلك، فإذا تزيَّن ظاهرًا بالعبادات وتطهّر عن المعاصي الظاهرة انتقل إلى باطنه ليتفطَّن لأخلاق وأمراض قلبه، فيتدرَّج في تخليصه من العلل الباطنة، ويراعيه في ذلك.

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بتركِ الرعونة رأسًا أو صفة أخرى لم يسمح بضدها دفعةً؛ فينقله من خُلقٍ مذموم إلى آخر أخف منه. كما يُرغَّب الصبي في المكتب باللعب والكرة، ثم يُنقل إلى الزينة وفاخرِ الثياب، ثم يُنقل إلى الرئاسة وطلب الجاه، ثم يُنقل بالترغيب في الآخرة.

وحُكي عن بعضهم أنه يعوِّد نفسَه الحلم، فكان يستأجر من يشتُمه على ملأٍ من الناس، ويكلِّف نفسَه الصبرَ وكظمَ الغيظ حتى صار الحلم عادةً له بحيث كان يُضرب به المثل. واستشعر بعضهم في نفسه الجُبْن فأراد تحصيل خُلقِ الشجاعة، فكان يركب البحرَ في الشتاء عند اضطراب الأمواج.

فالطريق الكلِّيُّ سلوك مَسلَك المُضادِّ لما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كلَّه في كلمة واحدة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم، وقد يتيسر أسباب ما عزم على تركه، فليصبر ويستمرّ، فإن من عوَّد نفسه ترك العزم ألِفَتْ ذلك ففسدت.

❖ علامات أمراض القلوب وعودُها إلى الصحة:

خاصيّة نفس الآدمي ما يتميز به عن البهائم هي معرفة الأشياء على ما هي عليه، وأصل الأشياء ومُوجدها الله. فلو عرف كلَّ شيء ولم يعرف اللهَ عز وجل فكأنه لم يعرف شيئًا. وعلامة المعرفة المَحبّة، فمن عرفه جل جلاله

أحبه، وعلامة المحبة ألّا يُؤْثِر عليه دنيا ولا غيرها من المحبوبات. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، فمن عنده شيءٌ أحبُّ إليه من الله فقلبُه مريض، ومن الأمراض ما لا يعرفُها صاحبُها، وقد يعرفها فيصعب عليه الصبر على مرارة الدواء فإن دواءَ القلب مخالفةُ الشهوات، وقد يجد الصبرَ على ذلك ولا يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، وعلامة العود إلى الصحة الاستقامةُ على المطلوب في كل خلقٍ بلا إفراطٍ ولا تفريط.

ولمّا كان الوسط الحقيقي في غاية الغموض، بل أدقَّ من الشعر وأحدَّ من السيف، فمن استوى عليه في الدنيا جاز على مثله في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]، أي الذين كان قربُهم إلى الصراط المستقيم أكثرَ من بُعدهم. ولعُسرِ الاستقامة وجب على كل عبدٍ أن يدعوَ الله في كلّ يوم سبع عشْرَةَ مرةً بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة]، إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

وروي أن بعضهم رأى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال: قد قلتَ (شيَّبتْني هود) فلِم ذلك؟ قال: لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، فعلى الإنسان أن يجتهد في القرب من الاستقامة إن لم يَقدِر على حقيقتها. نسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

❊ ❊ ❊



❖ الطريق الذي يَعرف به الإنسان عيوبَ نفسه:

إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا بَصَّرَه بِعيوب نفسه، ومن عرف العيوبَ أمكنه العلاج، ولكن الأكثر جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدُهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجِذعَ في عينه.

ولمعرفة عيوب النفس أربع طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخٍ بصيرٍ مطَّلعٍ على خفايا الآفات، ويحكِّمَه في نفسه ويتَّبعَ إشارتَه. وقد عزَّ في الزمان وجودُه.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متديِّنًا يُنصِّبه رقيبًا على نفسه ليلاحظ أحوالَه وأفعالَه فينبِّهه، فهكذا فعلَ الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم اللهُ امرَأً أهدى إليَّ عيوبي. وكان يسأل سلمانَ عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغَك عني ممّا تكرهه؟ فاستعفى فألحَّ عليه فقال: بلغَني أنك جمعتَ بين إدامَين على مائدة، وأنّ لك حُلَّتين حلَّة بالنهار وحلَّة بالليل، قال: وهل بلغَك غيرُ هذا؟ قال: لا، قال: أمّا هذان فقد كُفِيتَهما. وكان يسأل حذيفة يقول له: أنت صاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنافقين، فهل ترى عَلَيَّ شيئًا من آثار النفاق؟

وكل من كان أوفرَ عقلًا كان أقلَّ إعجابًا وأعظمَ اتِّهامًا لنفسه، وهذا قد عزَّ، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنةَ فيُخبِر بالعيب، أو يترك الحسدَ فلا يزيد على قدر الواجب. فلا يخلو الأصدقاء عن حَسودٍ أو صاحب غرضٍ أو مداهِنٍ يُخفي العيوب.

وقيل لداود الطائيّ: لِمَ لا تخالط الناس؟ قال: ما أصنع بقومٍ يُخْفُون عني عيوبي؟ شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم.

وقد آل الأمرُ في أمثالنا إلى أن أبغضَ الخلق إلينا مَن ينصحنا ويعرِّفنا بعيوبنا، ويكاد هذا أن يكون مفصِحًا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيَّات وعقاربُ لدَّاغة، فلو نبَّهَنا منبِّهٌ أن تحت ثوبنا عقربًا لتقلَّدنا منه مِنَّةً وفرِحنا به، واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها، وما نكايتُها إلا على البدن، لكن الأخلاقَ الرديئة على صميم القلب، يُخشى أن تدوم بعد الموت أبدًا أو آلافًا من السنين. كيف لا نفرح بمن ينبِّهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بقول: وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت، وتَشغَلُنا العداوة عن الانتفاع بنُصحه، وذلك من قساوة القلب التي أثمرَتْها كثرةُ الذنوب. وأصل ذلك ضعف الإيمان.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفةَ عيوب نفسه من ألسنةِ أعدائه، فإن عين السُّخط تُبدِي المساويا. والطبع مجبولٌ على تكذيب العدو وحَملِ ما يقوله على الحسد، ولكنّ البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه، فإن مَساويه تنتشر على ألسنتِهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناسَ، فكلُّ ما رآه مذمومًا طالَبَ نفسَه بتركِه، فإن المؤمن مرآةُ المؤمن. قيل لعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ قال: رأيت جهلَ الجاهِل شَينًا فاجتنبتُه.

وكل هذا حِيلُ مَن فقد شيخًا عارفًا ذكيًا بصيرًا بعيوب النفس مشفقًا ناصحًا في الدين، فارغًا من تهذيب نفسه مشتغلًا بتهذيب عباد الله، فمَن وجد ذلك فقد وجد الطبيب، فليُلازِمْه فهو الذي يخلِّصه مِن مرضه.



ومن تأمل ما ذكرناه بعين الإعتبار انفتحت بصيرتُه، وانكشفت له عللُ القلب وأدويتُها بنور العلم واليقين، فإن عجز فلا ينبغي أن يفُوتَه التصديق على سبيل التلقي، فإن للإيمان درجة، كما أن للعلم درجة، وهو حاصلٌ بعد الإيمان قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١١]، فمن صدَّق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله ولم يطَّلع على سببه فهو من الذين آمنوا، وإذا اطَّلع على ما تقدم ذكرُه من غوائل الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم، وكلاً وعدَ اللهُ الحسنى.

والذي يقتضي الإيمانَ بهذا في القرآن والسنة وأقاويلِ العلماء أكثرُ من أن يُحصر، قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**المجاهد مَن جاهد نفسَه في طاعة الله عز وجل**»[١].

وقال سفيان الثوري: ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نفسي. وقال الحسن: ما الدابّة الجموح بأحوجَ إلى اللجام الشديد من نفسك. وقال يحيى بن معاذ الرازي: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترِس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات. وقال أبو يحيى الورَّاق: من أرضى الجوارحَ بالشهوات فقد غرسَ في قلبه شجرَ الندامات. وقال وُهيب بن الوَرد: من أحبَّ شهواتِ الدنيا فليتهيَّأْ للذُّل.

وقال الجنيد: أرِقتُ ليلةً فقمتُ إلى وِردِي فلم أجد الحلاوةَ التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أُطِق، وخرجت فإذا رجلٌ

(١) أخرجه الترمذي وصححه (١٦٢١)، وابن حبان (٤٦٢٤). وابن المبارك فى الجهاد (١٧٥)، وأحمد (٢٣٩٥١)، والطبراني (٧٩٧).

ملتفٌّ بعباءة، فلما أحسَّ بي قال: يا أبا القاسم إليَّ الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ قال: بلى سألت الله أن يحرِّكَ لي قلبك، قلت: قد فعل فما حاجتك؟ قال: متى يصير داءُ النفس دواءَها؟ قلت: إذا خالفَت النفسُ هواها؛ فأقبل على نفسه يقول: اسمعي فقد أجبتكِ بهذا سبع مرات فأبيتِ أن تسمعيه إلا من الجنيد، فها قد سمعتيه. ثم انصرف وما عرفته.

وما من عاقلٍ إلّا وهو راضٍ باحتمالِ المشقَّة في سفرٍ وتعلُّمِ صناعةٍ وغيرها شهرًا ليتنعَّم به دهرًا، وكلُّ العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عُمر الدنيا. فلا بد من الصبر والمجاهدة، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قاله علي رضي الله عنه.

❖ علامات حسن الخلق:

قد يظن من جاهد نفسَه أدنى مجاهدةٍ حتى ترك فواحشَ المعاصي أنه قد هذَّب نفسه، فلا بُدَّ من إيضاح علامةِ حسن الخلق، فإن حسنَ الخلق هو الإيمان، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**» متفق عليه[1]، وقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِم ضيفَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمُت**» متفق عليه[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا رأيتُم الرجلَ قد أُعطي زهدًا في الدنيا وقلَّـةَ منطقٍ فادنوا منه، فإنه يُلَقَّن الحكمة**»[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم «**من سرَّتهُ حسنتُه وساءته سيّئتُه فهو مؤمن**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠١).
(٤) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في الكبرى (٩٢٢١)، وابن حبان (٩٢٢١)، وأحمد (١١٤)، وأبو يعلى (١٤١).



وأَولَى ما يُمتحن به حسنُ الخلق الصبرُ على الأذى واحتمال الجفاء، ومَن شكا من سوء خلقِ غيرِه دلَّ على سوءِ خلُقِه. وقد كان رسول الله ﷺ يمشي يومًا ومعه أنس، فأدركه أعرابي فجذبه جذبًا شديدًا، وكان عليه بُردٌ نجراني غليظُ الحاشية، قال أنس: حتى نظرت إلى عنقِ رسول الله ﷺ قد أثَّرت فيه حاشيةُ البرد من شدّة جذبه، فقال: يا محمد هَبْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه رسول الله وضحك ثم أمر بإعطائه. رواه البخاري ومسلم(١).

وخرج إبراهيم بن أدهمَ يومًا إلى بعض البراري، فاستقبله جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، قال: أين العِمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردتُ العمران، فقال: هو المقبرة، فغاظَه ذلك فضرب رأسَه بالسَّوط فشجَّه وردَّه إلى البلد، فاستقبله أصحابه فقالوا: ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له، فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم، فنزل عن فرسه وقبَّل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لِمَ قلتَ له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني عبدُ مَن أنت، بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبد الله، فلمّا ضرب رأسي سألتُ اللهَ له الجنة، قيل: كيف وقد ظلمك؟! قال: علمتُ أنني أؤجَر على ما نالني منه فلم أرِد أن يكون نصيبي منه الخيرَ ونصيبُه مني الشرَّ.

وسئل سهلٌ عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له. وقيل: إن أويسًا القَرْنيَّ كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فكان يقول: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تُدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشتمَ رجلٌ الأحنف بن قيس وهو لا

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (١٧٤٩).

يجيبه، وكان يتبعه، فلما قرُبَ من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقُله كيلا يسمعَك بعضُ سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن سيدَنا عليًّا كرم الله وجهه دعا غلامًا فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعًا فقال: أما تسمع!؟ قال: بلى، قال: فما حملَك على تركِ إجابتي؟ فقال: أمِنتُ عقوبتَك فتكاسلتُ، فقال: امضِ فأنت حُرٌّ لوجهِ الله تعالى.

وقالت امرأةٌ لمالك بن دينار: يا مُرائي، فقال: يا هذه لقد وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهلُ البصرة. وكان ليحيى بن زياد غلامُ سوءٍ فقيل له: لِمَ تمسكه؟ قال: لأتعلَّم الحلمَ عليه.

❖ الطريق في رياضة الصبيان ووجهُ تأديبهم:

ذلك من أهم الأمور وأوكدِها، فالصبيان أمانةٌ لدى آبائهم وأمهاتهم، وقلوبُهم جواهرُ نفيسةٌ قابلة لكل ما نُقِش ومائلةٌ إلى ما تُمال إليه، فمن عُوِّد منهم الخير نشأ عليه وسعد، وشاركه أبوه وكل معلِّمٍ له، وإن عُوِّد الشر وأُهمل شقي وهلك، وكان الوِزرُ في رقبة القيِّم والوالي عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، فيجب على الأب والولي أن يؤدِّبَ صبيَّه ويُهذِّبه بحفظهِ من قرناء السوء، ولا يعوِّدَه اتباعَ الشهوات والتوسعَ في الملذّات، ولا يحبِّبَ إليه الزينة والرفاهية، بل ينبغي أن يراقبه من أولِ أمرِه، فلا يستعمل في حضانته إلا امرأةً متديِّنة تأكل الحلال.

ومهما رأى فيه مخايلَ التمييز فينبغي أن يُحسِن مراقبتَه، وأول ذلك ظهور الحياء، فإنه إشراقٌ من نور العقل عليه وتلك هديةٌ من الله، فالصبي



المستحي ينبغي ألّا يُهمَل بل يُستعان بحيائه وتمييزه، فينبغي أن يؤدَّب في الطعام، فأول ما يُغلَب عليه من الصفات هو شَرَهُ الطعام، ولا يأخذ الطعامَ إلا بيمينه، وليُسمِّ الله، ولْيأكلْ ممّا يليه، ولا يبادرْ قبل غيره، ولا يحدِّقِ النظرَ إلى مَن يأكل، ولا يُسرِع في الأكل، وأنْ يجيدَ المَضغ، ولا يواليَ بين اللُّقم، ولا يلطِّخَ يدَه ولا ثوبَه، ويُعوَّد الخبز القفار في بعض الأوقات، ويُقبَّح عنده كثرةُ الأكل بتشبيه صاحبِه بالبهائم، ويُحبَّب إليه الإيثارُ بالطعام وقلَّةُ المبالاة به والقناعةُ بما تيسَّر، ويحبَّب إليه الثيابُ البيضُ، ويُحفظ عن مخالطة كل من يُسمِعُه ما يرغِّبه في الرفاهية والمظاهر الفاتنة الكاذبة، ثم يُشغَل في المكتب، فيتعلَّمُ القرآن وأحاديثَ الأخبار وحكاياتِ الأبرار، لينغرس في نفسه حبُّ الصالحين.

ثمّ مهما ظهر من خلُقٍ جميلٍ ينبغي أن يُكرَّم عليه ويُجازَى بما يَفرَح به، فإن خالفَ مرّةً فينبغي أن يُتغافَل عنه لا سيما إذا اجتهد في إخفائه، فإن عاد ثانيًا فينبغي أن يُعاتَب سرًّا ويعَظَّم الأمرُ فيه، ويُقال له: إيّاك أن تَعودَ فتُفتَضَح. ويُبعَد عن مظاهر الكسل، ويُعَوَّد الخشونة في المفرَش والملبَس والمطعَم، ويُعَوَّد المشيَ والحركةَ والرياضة. وألّا يكشِفَ أطرافَه ولا يسرعَ في المشي، ويُمنعَ أن يفتخر بشيء ممّا يَملكُه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه وأدواته، بل يُعَوَّد التواضع، ويُمنَع أن يأخذ من الناس شيئًا، بل يُعلَّم أنّ الرِّفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذَ لؤمٌ ودناءة.

وينبغي أن يُعَوَّد ألّا يَبصُق في مجلسه ولا يَمتخِط ولا يَتثاءب بحضرة غيرِه، ولا يستدبرَ غيرَه، ولا يَضعَ رِجلًا على رجل، ولا يضعَ كفَّه تحت ذَقَنِه، ولا يعمدَ رأسه بساعده فإنه دليل الكسل، ويُمنَع اليمين رأسًا، وأن يبتدئ

بالكلام، وأن يُعوَّد حسن الاستماع مهما تكلم غيره، وأن يقوم لمن فوقه ويوسِّعَ له المكان، ويحافِظ عليه من مخالطة من يجري على لسانه اللعن والسب والفحش واللغو.

وينبغي أن يُؤذَنَ له أن يلعب لَعِبًا جميلًا يستريح إليه من تعبِ المكتب حتى يتَنشَّط ويرغب، ولا يُبطِل ذكاءه بإرهاقه إلى التعلُّم دائمًا فيَطلبُ الحيلةَ في الخلاص ويَبغض العلم. وينبغي أن يُعلَّم طاعة والديه ومعلِّمه ومؤدِّبه ومَن هو أكبر منه، وأن يُجِلَّهم، ويترك اللعبَ بين أيديهم. ومهما بلغ سنَّ التمييز فلا يسامَح بتركِ الطهارة والصلاة، ويُؤمَر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويُخوَّف من السرقة والخيانة والكذب وكلِّ ما يغلُب على الصبيان.

فمن وقع نشؤُه كذلك فمهما قاربَ البلوغَ أمكن أن يُعرَّف أسرار هذه الأمور، فيُذكرَ له أن المقصود من الأطعمة التقوِّي على طاعة الله، وأن الدنيا لا أصل لها، وأنها دار ممرٍّ، وأن الآخرة دارُ مقرٍّ، وأن الكَيِّس العاقل مَن تزوَّد للآخرة حتى تعظُم درجتُه عند الله وتعلو مرتبتُه ويتَّسع نعيمُه في الجنان. فإن كان النُّشوءُ صالحًا كان هذا الكلام عند البلوغ مُؤَثِّرًا ناجعًا يثبُت في قلبه، وإلا نَبا قلبُه عن قبول الحق نَبوَة الحائط عن التراب اليابس. قال ﷺ: **«كل مولود يولَد على الفطرة، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»**[1].

قال سهل بن عبد الله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سَوّار، فقال لي يومًا: ألا تذكر اللهَ الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك من غير أن تحرِّك لسانَك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات: الله معي، الله ناظري، الله شاهدي، فقلت ذلك

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، وقد سبق تخريجه.



ليالِيَ ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فأعلمته فقال: قل ذلك في كل ليلة إحدى عشرة مرّة فقلتُه، فوقع في قلبي حلاوتُه، فلما كان بعد سنة قال لي: احفظ ما علّمتُك ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة. فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لذلك حلاوةً في سِرِّي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل من كان الله معه وناظرًا إليه وشاهَده أيعصيه؟ إياك والمعصية. فكنت أخلو بنفسي؛ فبعثوا بي إلى المكتب، فقلت: أخشى أن يتفرق عَلَيَّ هَمِّي، ولكن شارِطوا المعلِّم أني أذهب إليه ساعة ثم أرجع، فمضيتُ فتعلَّمت القرآن وحفظتُه وأنا ابن ست سنين أو سبع، وكنت أصوم وقُوتي من خبز الشعير.

❖ شروط الإرادة وتدريج المريد في السلوك:

مَن شاهَد الآخرة بقلبِه مشاهدةَ يقينٍ أصبح مريدًا حرثَ الآخرة مشتاقًا إليها مستهينًا بنعيم الدنيا ولذّاتها، فإنّ مَن بيده خرزة فرأى جوهرةً نفيسةً لم تبقَ له في الخرزة رغبة، وقويت إرادتُه في بيعها بالجوهرة، ومَن لا يريد الآخرة فلِعدم إيمانه.

ولستُ أعني بالإيمان حديثَ النفس والنطقَ بكلمتَيِ الشهادة من غير صدقٍ وإخلاص، فذلك يضاهي قولَ من صدَّق بأن الجوهرة خيرٌ من الخرزة، إلا أنه لا يدري مِن الجوهرة إلا لفظها، فقد لا يترك الخرزة ولا يعظُم اشتياقُه إلى الجوهرة، فإذًا المانعُ من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان وضعفُه، وسبب ضعف الإيمان عدم الهُداة والمذكِّرين والهادين المنبِّهين على حقارة الدنيا وعِظَم الآخرة ودوامها.



فإن تنبَّه مُتنبِّهٌ انبعثت له الإرادة في الآخرةِ وحرثِها، فلْيَعلَمْ أنّ عليه أن يقدِّم شروطًا لرفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق، وهي أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية. فلا يتعلق قلبه بشيء من المال الذي لا يحتاج إليه ولا يضطرُّه، وليَبعُد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول، وليرتفع عن حجاب التقليد بتركِ التعصب والهوى، وليَصدُق في التوبة والخروج من المظالم، ومن لم يصحِّحِ التوبةَ وأراد أن يقف على أسرار الدين كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وهو لم يتعلم لغةَ العرب، فلا بد من تقديم اللغة ثم الترقِّي إلى أسرار المعاني، فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة ثم الترقي إلى أسرارها.

فإذا قدَّم الشروطَ الأربعة كان كمَن تطهَّر وصار صالحًا للصلاة، فيحتاج إلى إمامٍ يقتدي به وهو الشيخ الهادي، فمن لم يكن له شيخٌ يهديه قاده الشيطانُ إلى طُرقِه، والمستقِل بنفسه كالشجرة التي تَنبُت بنفسها تَجفُّ على القرب، وإن بقيت أورقَت ولم تُثمِر.

فإذا وَجد الشيخَ كان مُعتَصَمُهُ وكان عليه أن يحميَه بحصنٍ حصينٍ، وهو أربعة: الجوع، والسهر، والصمت، والخلوة. قال سهل بن عبد الله التُّستَري: ما صار الأبدال أبدالًا إلا بأربع خصالٍ: بإخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس. وقال عيسى: يا معشر الحواريين جَوِّعوا بطونَكم لعل قلوبَكم ترى ربّكم.

والصمتُ يُلَقِّح العقل ويجلُب الورع ويعلّم التقوى.

فإذا فعل ذلك اشتغل بسلوك الطريق بقطعِ العقبات وهي صفات القلب، وبعضُها أعظم من بعض. فكما أخلى الظاهر عن العلائق المانعة فلا بد أن



يُخْلِيَ الباطن عن آثارها، وطريقُ المجاهدة مضادّة الشهوات، ثم يُشغله الشيخ بالذكر فيلازم قلبُه ذكرَ الله، فإذا واظب على ذكرٍ حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جاريةٌ على اللسان من غير تحريك، ثم لم يزل يواظب حتى يسقط الأثر عن اللسان وتتمكن صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى ينمحي عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقةُ معناه حاضرةً معه غالبةً عليه، متنبِّهًا من حراسة القلب من ورود الخواطر المتعلقة بغير الله، ولا يزال كارهًا لما يرِد عليه كرهًا من كل ما ليس محبوبًا ولا جامعًا على الحق تعالى، وليُقِم حارسًا على قلبه من تصديقِ أي خيالٍ فاسدٍ، وليمكِّن من قلبه التنزيه للملك الحق جل جلاله، ولا يزال على ذلك حتى يجد قلبَه مع الله على الدوام، فذلك منتهى الرياضة، ولا يمكن إلا بالخلو عن غير الله، ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة.

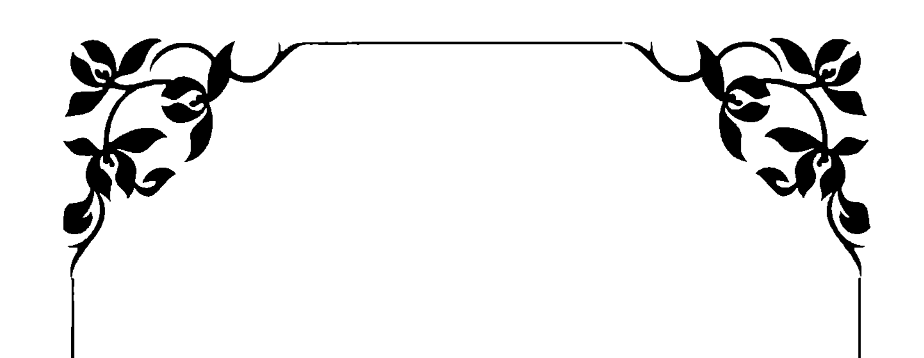
قال بعض السيَّاحين: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: أن تكون كأنك عابرُ طريق. قلت له: دُلَّني على عملٍ أجد فيه قلبي مع الله على الدوام؟ قال: لا تنظرْ إلى الخلق، فالنظر إليهم ظُلمة، قلت: لا بد من ذلك.. قال: لا تسمعْ كلامَهم فإنه قسوة، قلت: لا بد من ذلك. قال: لا تعامِلْهم فإنها وحشة، قلت: لا بد من ذلك. قال: لا تسكن إليهم فإنه مهلَكة. قلت: هذا لعلَّه. قال: يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمعُ الجاهلين وتعامل الباطلين، وتريد أن تجد قلبَك مع الله على الدوام!؟

ثم إذا انكشف للمريد شيءٌ من جلال حضرة الربوبية وظهر له من لطائف الله ما لا يُوصف فأعظَمُ القواطع عليه أن يتكلم به، فتجدَ نفسُه لذةً تدعوه إلى التفكير في إيراد تلك المعاني وتزيينها، ويُخَيِّل إليه الشيطان أن

ذلك نفعٌ للناس وحرصٌ عليهم، ويظهر كيدُه أن لو قام بذلك أحدٌ من أقرانه وكان أقدرَ فإنه يتحرَّك عقربُ الحسد فيه، فدلَّ على عدم الصدق، فإن من كان صادقًا عظُمَ فرحُه بمن يُنقذ الناس، والله يأخذ بيدِ المتوجهِ إليه مهما صدقَ وبالله التوفيق.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلى كل عبدٍ مصطفى.. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

** ** **



كتاب كسر الشهوات

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله المنفردِ بالجلالِ في كبريائه وتعالِيه، المستحقِّ للتَّحميدِ والتقديسِ والتسبيحِ والتنزيه، المتكفِّلِ بحفظِ عبدِه المُنعِمِ عليهِ بما يزيدُ على مهمَّاتِ مقاصدِهِ ويفِي بأمانيه، فهو يرشدُه ويهديه، ويميته ويحييه، وإذا مرضَ يشفيه، وإذا ضَعُفَ يُقوِّيه؛ والصلاة والسلام على سيدِنا محمدٍ عبدِ الله النَّبيه، ورسولهِ الوجيه، وعلى الأبرارِ من عترتِه وأقربيه، والأخيارِ من صحابتِه وتابعيه.

أما بعدُ: فأعظمُ المُهلِكاتِ لابنِ آدمَ شهوةُ البطن، بها أُخرِجَ آدمُ وحوَّاء عليهِما السلامُ مِن دار القرار، إذ نُهِيا عن الشجرةِ فأكلا منها فبدَت لهما سوآتُهما. والبطنُ يَنبوعُ الشهواتِ ومنبتُ الأدواء، يتبعها شهوةُ الفرج؛ ثم تتبع شهوةَ الطعامِ والنكاحِ شدّةُ الرغبةِ في الجاه والمال؛ ثم يتبعُ استكثارَ المالِ والجاهِ أنواعُ الرعوناتِ والمُحاسدات؛ ثم يتولّد آفةُ الرياء والتفاخر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقدِ والبغضاء، ثم يُفضي إلى اقتحامِ البغي والفحشاء، وكل ذلك ثمرةُ إهمالِ المَعِدة وما يتولّد منها من بطَرِ الشِّبعِ والامتلاء، ولو ذلَّل العبدُ نفسَه بالجوعِ وضيَّق مجاريَ الشيطان لأذعنَتْ لطاعة الله ولم ينجَرَّ إلى الانهِماك في الدنيا. ولعظمةِ آفةِ شهوةِ البطنِ وجبَ شرحُ غوائِلها تحذيرًا، وإيضاحُ طريقِ المجاهدةِ ترغيبًا.. ونوضحُ ذلك بعون الله تعالى.



❖ بيان فضيلة الجوع:

أخرج الترمذي[(١)] من حديثِ المِقداد قولَه ﷺ: «**ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنه، حسبُ ابنِ آدم لقيماتٍ يُقِمنَ صُلبَه، فإن كان لا بد فاعلًا فثُلُثٌ لطعامه وثُلُثٌ لشرابِه وثُلُثٌ لنفَسه**»، وعن أبي هريرة «**البَسُوا الصُّوفَ وشمِّروا وكلُوا في أنصافِ البطونِ، تدخلوا في ملكوتِ السماء**»[(٢)]، وقال عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام: **يامعشرَ الحواريِّين أجِيعوا أكبادَكم وأعرُوا أجسادَكم لعلَّ قلوبَكم ترى اللهَ عز وجل**[(٣)]. وروى البخاري ومسلم[(٤)] عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «**المؤمنُ يأكلُ في مِعًى واحدٍ، والكافر يأكل في سبعةِ أمعاء**»، وروى الترمذي وحسَّنه وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تجشَّأ رجلٌ في مجلسِ رسول الله ﷺ فقال له: «**أَقصِر من جُشائكَ فإنَّ أطولَ الناسِ جوعًا يومَ القيامة أكثرُهم شِبَعًا في الدنيا**»[(٥)]، وروى أبو موسى المَدِيني عن الحسنِ عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسولَ الله ﷺ لم يمتلئ قطُّ شبعًا، وربما بكيتُ رحمةً مما أرى به من الجوع فأمسحُ بطنَه بيدي، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغتَ من الدنيا

---

(١) (٢٣٨٠)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦٧٦٨)، وابن حبان (٥٢٣٦)، وأحمد (١٧١٨٦)، والطبراني (٦٤٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦٥٠)، والحاكم (٣٦٧/٤) وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسندِ الفردوس عن الحسن (٣٣٨)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: «بسند ضعيف».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٧٠/٢)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: «لم أجده أيضًا» قال الزبيدي في شرح الإحياء (٣٨٨/٧): «قلت: ورواه عبد الرحيم بن يحيى الأسود في كتاب الإخلاص».

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٩٤)، ومسلم (٢٠٦٠).

(٥) أخرجه الترمذي وحسَّنه (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠).



بقدرِ ما يقوِّيك ويمنعُك من الجوع! فقال: «يا عائشة إخواني من أولي العزمِ من الرسلِ قد صبروا على ما هو أشدُّ من هذا، مضَوا على حالِهم فقدِموا على ربِّهم فأكرمَ مآبَهم وأجزلَ ثوابَهم، فأجدُني أستحي إن ترفَّهت في معيشتي أن يقصُر بي غدًا دونهم، فالصبر أيامًا يسيرةً أحبُّ إلَيَّ من أن ينقصَ حظِّي غدًا في الآخرة، وما من شيء أحبُّ إليَّ من اللحوقِ بأصحابي وإخواني» قالت عائشة: فواللهِ ما استكملَ بعد ذلك جمعةً حتى قبضَه اللهُ إليه[1]. وأخرج مسلمٌ[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما شبعَ النبي ﷺ ثلاثةَ أيامٍ تباعًا مِن خُبزِ الحِنطةِ حتى فارقَ الدنيا.

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبِطنَةَ فإنها ثِقَلٌ في الحياة نِتَنٌ في الممات. وقال شقيق البلَخي: العبادةُ حرفةٌ حانوتها الخَلوة وآلتها المجاعة. قال لقمان لابنه: يابنيَّ إذا امتلأتِ المعدة نامتِ الفكرة وخرِسَت الحكمة وقعدَت الأعضاءُ عن العبادة. وكان فتحُ المَوْصِلي إذا اشتدَّ مرضُه وجُوعه قال: إلهي ابتليتَني بالمرضِ والجوع وكذلك تفعلُ بأوليائك، فبأيِّ عملٍ أؤدِّي شكرَ ما أنعمتَ به علَيَّ؟ وكان كلٌّ من كَهمَس والفُضيل بن عياض يقول: إلهي أجعتَني وتركتَني في ظلَم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعلُ ذلك بأوليائك، فبأيِّ منزلةٍ وبأيِّ وسيلةٍ نلتُ هذا منك؟ وفي التوراة: اتَّقِ الله وإذا شبعتَ فاذكرِ الجِياع. وقال أبو سليمان: لأن أَترُكَ لقمةً من عَشائي أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ

(١) قال العراقي في تخرج الإحياء: «لم أجده» وقال الزبيدي في شرح الإحياء (٣٩١/٧): «قلت هو أشبه بمخاطبة عمر رضي الله عنه مع ابنته حفصة حين لامت عليه في خشونة العيش. أورده الذهبي في نعم السمر في سيرة عمر» وقال السيوطي في المناهل (٣٠٧): «الحديث بطوله لم أقف عليه هكذا، ولكن أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديثها قالت: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ...».

(٢) (٢١/٢٩٧٠).

إلى الصبح. وقال سهل بن عبد الله: لا يوافي القيامةَ عملُ بِرٍّ أفضلُ مِن تركِ فُضولِ الطعام اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في أكله. وقال: وُضِعَت الحكمةُ والعلمُ في الجوع، ووُضِعت المعصيةُ والجهلُ في الشِّبَع.

❖ بيان فوائد الجوع:

لعلّك تقول: هذا الفضلُ للجوعِ ما سببُه؟ وليس فيه إلا إيلامُ المعدة! ومَن شرب دواءً فانتفعَ به وظنَّ أنَّ منفعتَه لكراهةِ الدواءِ فتناولَ ما يكرهُه المذاقُ غلط، بل نَفعُه في خاصيّةٍ في الدواء يقفُ عليها الأطباء.

ونشرحُ لك في الجوعِ فوائد:

الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، قال ابن عباس: من شبعَ ونامَ قسا قلبُه. وقال الشِّبلي: ما جُعتُ للهِ يومًا إلا رأيتُ في قلبي بابًا مفتوحًا من الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُه قطُّ.

الثانية: رقّةُ القلب وصفاؤه، وبه يتهيَّأُ لإدراكِ لَذّةِ المثابَرة والتأثر بالذكر، وتأثرُ القلبِ بلذةِ المناجاةِ أمرٌ وراءَ تيسيرِ الفكرِ واقتناصِ المعرفة. قال الجنيد رحمه الله: يجعلُ أحدُهم بينه وبين صدره مِخلاةً من الطعام ويريدُ أن يجدَ حلاوةَ المناجاة.

الثالثة: الانكسار وزوال البَطَر، وما لم يشاهدِ الإنسان ذُلَّ نفسِه وعجزَه لا يرى عزةَ مولاه ولا قهرَه، ولما عُرِضتِ الدنيا وخزائنُها على النبي ﷺ قال **«لا، بل أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، فإذا جعتُ صبرتُ وتضرعت، وإذا شبعتُ شكرت»**[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧) وحسنه.



الرابعة: أن يكونَ متذكِّرًا لبلاءِ اللهِ وعذابِه، فإنَّ الشبعانَ ينسى الجائع، والفَطِن يذكر مِن عَطَشِه عطشَ الخلقِ في عرصاتِ القيامة، ومن جوعِه جوعَ أهلِ النار، إذ يجوعونَ فيُطعَمونَ الضريعَ والزّقُّومَ، ويُسقَون الغَسَّاق والمُهل. قيلَ ليوسفَ عليه السلام: لِمَ تجوعُ وفي يديك خزائنُ الأرض؟ فقال: أخافُ أن أشبعَ فأنسى الجائع. فالجوع يدعو إلى الرحمةِ والإطعامِ والشفقةِ على خلق الله.

الخامسة: كسرُ شهواتِ المعاصي والاستيلاءِ على النفسِ الأمّارة. قالت عائشة رضي الله عنها: أوّلُ بدعةٍ حدثت بعد رسولِ الله ﷺ: الشِّبع. قال ذو النون: ما شبعتُ قط إلا عصيتُ أو هممتُ بمعصية. وجميعُ معاصي الأعضاء سببُها القوةُ الحاصلة بالشِّبع.

السادسة: دفعُ النوم وتيسيرُ السهرِ في الطاعةِ، وفي كَثرةِ النوم ضياعُ العمر. ومهما غلب النومُ فإنْ تهجَّد لم يجد حلاوةَ العبادة.

السابعة: تيسير المواظبةِ على العبادة بتخفيفِ مؤونة الاشتغالِ بالشراء والطبخِ والتَّردادِ إلى بيت الماء. قال السَّري: رأيت مع عليٍّ الجرجاني سَويقًا يستفُّ منه، فقلت: ما حملَكَ على هذا؟ قال: إني حسبتُ ما بين المضغِ إلى الاستفاف سبعينَ تسبيحة، فما مضغتُ الخبزَ منذ أربعينَ سنة. فانظر كيف أشفقَ على وقتِه أن يضيعَ في المضغ. والصومُ ودوام الاعتكافِ ودوام الطهارة أرباحٌ تتيسَّر للمُقتصدِ في الطعام. قال أبو سليمان الداراني: من شبعَ دخلَت عليه ستُّ آفات: فقدُ حلاوةِ المناجاة، وتعذُّر حِفظِ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق، وثِقَلُ العبادة، وزيادةُ الشهوات، وأن سائرَ المؤمنين يدورونَ حول المساجد والشِّباع يدورونَ حول المزابل.

الثامنة: الصحةُ في البدنِ ودفعُ الأمراض، فالمعدةُ بيتُ الداء، وفي

الحديث: «صوموا تَصِحُّوا»[1]، وفي الصوم وتقليلِ الطعامِ صحةُ الأجسامِ وصحةُ القلوب.

التاسعة: خفّةُ المؤُونة. قال بعضُ الحكماء: إني لأقضي عامَّةَ حوائجي بالتَّركِ، فيكون ذلك أروحَ لقلبي.

العاشرة: أن يتمكَّنَ من الإيثارِ والتصدُّقِ بما فضَل من الأطعمة، فيكونُ يوم القيامة في ظلِّ صدقتِه.

❖ طريق الرياضة في كسر شهوة البطن:

على المريدِ في بطنِه أربعُ وظائف:

الوظيفة الأولى: ألّا يأكلَ إلّا حلالًا، فالعبادةُ مع أكلِ الحرام كالبناءِ على أمواجِ البحار.

الوظيفة الثانية: في تقليلِ الطعام، وسبيلُه الرياضةُ بالتدريج، فإن شاءَ بالوزن وإن شاءَ بالمشاهَدة. فيتركُ كلَّ يومٍ مقدارَ لُقمةٍ عمّا أكلَه بالأمس، ثم فيه أربعُ درجات:

أقصاها: أن يَرُدَّ نفسَه إلى قدرِ القِوام وهو عادةُ الصدِّيقين.

الدرجة الثانية: أن يردَّ نفسَه إلى نصفِ مدٍّ وهو رغيفٌ وشيء، ويشبه أن يكونَ مقدار ثلثِ البطنِ في حقِّ الأكثرين. وكان عادةُ عمر رضي الله عنه أن يأكلَ سبعَ لقم أو تسعَ لقم.

الدرجة الثالثة: أن يردَّها إلى مقدارِ المُدِّ وهو رغيفان ونصف.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣١٢). قال الهيثمي (١٧٩/٣): رجاله ثقات. وقال العراقي في تخريج الإحياء: «وأبو نعيم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف».



الدرجة الرابعة: أن يزيدَ على المُدِّ إلى المَنّ، ويشبهُ أن يكونَ ما وراءَ ذلك إسرافًا في حق الأكثرين. فإنَّ مقدارَ الحاجةِ يختلفُ بالسنِّ والشخصِ والعملِ الذي يشتغلُ به.

وهناك طريقٌ خامسٌ لا تقديرَ فيه، لكنه موضعُ غلط، وهو أن يأكلَ إذا صدقَ جوعُه ويقبضَ على شهوةٍ صادقةٍ بعد. وعلامةُ صدقِ الجوعِ ألّا تطلب النفسُ الأُدم.

وتقديرُ الطعامِ يختلف بالأحوالِ والأشخاص. وكان قوتُ جماعةٍ من الصحابة صاعًا من حِنطةٍ في كلِّ جمعة، كل يومٍ قريبٌ من نصف مُدٍّ نحو ثُلثِ البَطن. وكان قوتُ أهلِ الصُّفَّة مُدًّا من تمرٍ بين اثنينِ في كلِّ يوم[١]. وكان الحسنُ رحمه الله يقول: المؤمنُ مثلُ العُنيزَةِ، يكفيهُ الكفُّ مِن الحشَفِ والقَبضةُ مِن السَّويقِ والجُرعةُ من الماء، والمنافقُ مثل السَّبعِ الضَّاري، بَلعًا بلعًا وسَرطًا سرطًا، لا يطِوي بطنَه لجارِه، ولا يؤثرُ أخاه بِفَضلِه، وجِّهوا هذه الفضولَ أمامَكم.

الوظيفة الثالثة: في الوقتِ ومقدارِ التأخير، ومن أهلِ الدرجاتِ العُليا مَن يطوي ثلاثةَ أيامٍ فما فوقَها. والدرجةُ الثانية: طيُّ ما بين يومين إلى ثلاثة. والدرجة الثالثة: أن يقتصرَ في اليوم والليلة على أكلة.

الوظيفة الرابعة: في نوعِ الطعامِ والإدام، وأعلى الطعامِ مخُّ البُرِّ، وأوسطُه شعيرٌ منخول، وأدناه شعيرٌ لم يُنخَل. وأعلى الأُدمِ اللحم والحلاوة، وأدناه الملح والخلُّ، وأوسَطُه المزوَّراتُ بالأدهان.

ومن دامَ على الأعلى تتربَّى نفسُه بالنعيمِ فتأنسُ بالدنيا وتألفُ اللذات

(١) أخرجه الحاكم (١٦/٣) وصحَّح إسنادَه مِن حديثِ طلحة البصري، ووافقه الذهبي.

وتسعى في طلبِها، فيجرُّها ذلك إلى المعاصي. رُوِي أن وهبَ بن منبِّه قال: التقَى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال: أمرتُ بسَوقِ حُوتٍ من البحرِ اشتهاهُ فلانٌ اليهودي لعنهُ الله، وقال الآخر: أمِرتُ بإهراقِ زيتٍ اشتهاهُ فلانٌ العابد. ومن أعظمِ عبادةِ الله مخالفةُ النفسِ في الشَّهوات وتَركِ اللَّذات.

قال شقيق بن إبراهيم: لقيتُ إبراهيمَ بن أدهم بمكةَ في سوق الليل عند مَولدِ النبيِّ ﷺ يبكي بناحيةٍ من الطريق، فعدلتُ إليهِ وقلت: إيشٍ هذا البكاءُ يا أبا إسحاق؟ فقال خير، فعاودتُه، فقال: يا شقيقُ استُر علَيَّ، قلتُ: قل ما شئتَ، قال: اشتهَت نفسي منذُ ثلاثين سنةٍ سَكباجًا فمنعتُها، حتى إذا كانت البارحة كنتُ جالسًا وغلَبني النُّعاس، فإذا أنا بفتًى بيدِه قدحٌ أخضَر تعلو منه رائحةُ سَكباج، فاجتمعتُ بهمَّتي عنه فقرَّبه وقال: يا إبراهيمُ كُل، قلت: قد تركتُه للهِ عز وجل، فقال: قد أطعمكَ الله كُل، فبكيتُ فقال: كُل رحمكَ الله، فقلتُ: قد أُمِرنا ألّا نطرحَ في وعائنا إلا مِن حيثُ نعلم، قال: كُل عافاكَ الله فإنَّما أعطيتُه قيلَ لي: يا خضِر اذهب بهذا وأطعِمهُ نفسَ إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طولِ صبرِها على ما يحملها من مَنعِها. اعلم يا إبراهيم أني قد سمعتُ الملائكةَ يقولون: من أُعطِيَ فلم يأخذ طلبَ فلم يُعطَ، فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديكَ لأجلِ العقد مع الله تعالى، ثم التفتُّ فإذا أنا بفتًى آخر ناولَه شيئًا وقال: يا خضِر لقِّمهُ أنت، فلم يزَل يُلقِّمُني حتى نعستُ فانتبهتُ وحلاوتُه في فمِي، قال شقيق: فقلتُ: أرِني كفَّكَ فقبَّلتُها ودعوتُ الله، فقام إبراهيم ومشى حتى أدرَكنا البيت.

قال بعضُهم: أتيتُ قاسمًا الجُرعِي فسألتُه عن الزهد أي شيء هو؟ فقال:



أيَّ شيءٍ سمعتَ فيه؟ فعدَّدتُ أقوالًا فسكتَ، فقلت: وأيَّ شيءٍ تقولُ أنت؟ فقال: اعلم أنَّ البطنَ دُنيا العبد، فبقدرِ ما يملك من بطنِه يملكُ من الزُّهد، وبقدرِ ما يملكُه بطنُه تملكُه الدنيا.

وعلى الجملةِ لا سبيلَ إلى إهمالِ النفسِ في المباحاتِ واتِّباعِها بكلِّ حالٍ، وبقدرِ مجاهدةِ النفسِ يكونُ التَّمتُّعُ في الدار الآخرة. قال أبو سليمان: تَركُ شهوةٍ من الشهواتِ أنفعُ للقلبِ من صيامِ سنةٍ وقيامِها. وفقنا الله لما يرضيه.

❖ اختلافُ حكمِ الجوعِ وأحوال الناسِ فيه:

اعلم أن المطلوبَ الأقصى: الوسط، فخيرُ الأمورِ أوساطُها، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، ومهما لم يحسَّ الإنسانُ بجوعٍ ولا شِبَعٍ تيسَّرت له العبادةُ والفكرُ وخفَّ وقَوِيَ على العمل، ولكن هذا بعد اعتدالِ الطبع.

أما في بدايةِ الأمر فإذا كانت النفسُ جَموحًا مُتشوِّقةً إلى الشهواتِ مائلةً إلى الإفراطِ فالاعتدالُ لا ينفعها، بل لا بدَّ من المبالغةِ في إيلامِها، فإذا ارتاضَت واستوَت ورجَعت إلى الاعتدالِ تركَ إيلامَها. ولأجلِ هذا يأمر الشيخُ مريدَه بما لا يتعاطاهُ هو في نفسِه لأنه قد فرغ من تأديبِ نفسِه. ولمَّا كان أغلبُ أحوالِ النفسِ الشرهَ والجماحَ والامتناعَ عنِ العبادةِ كان الأصلحُ لها الجوعَ الذي تحسُّ بألمِه، والمقصودُ أن تنكسرَ حتى تعتدل.

وإنما يمتنعُ من ملازمةِ الجوع من سالكي طريقِ الآخرة: إمّا صدِّيقٌ وإمّا مغرورٌ أحمق. أما الصِّدِّيق: فلاستقامةِ نفسِه على الصراطِ المستقيم، واستغنائهِ عن أن يُساقَ بسياطِ الجوع. وأما المغرور: فلظنِّه بنفسِه أنه الصدِّيقُ المستغنِي

عن تأديبِ نفسه. وهذا غرورٌ عظيمٌ، فإن النفسَ قلَّما تتأدبُ تأدُّبًا كاملًا، وكثيرًا ما تَغترُّ فتنظر إلى الصدِّيق ومسامحتِه نفسه فيقيسُ نفسَه عليه، كمريضٍ ينظرُ إلى مَن قد صحَّ فيتناولُ ما يتناوله يظنُّ بنفسهِ الصحةَ فيهلِك.

ويدلُّ على أنَّ تقديرَ الطعامِ ليس مقصودًا في نفسِه إنما هو مجاهدةُ نفسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكن له تقديرٌ وتوقيتٌ لطعامه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يصومُ حتى نقولَ: لا يفطر، ويفطرُ حتى نقولَ: لا يصوم. رواه البخاري ومسلم[1]. وكان يدخل على أهلِه فيقول: **«هل عندكم من شيء؟»** فإن قالوا: نعم، أكل، وإن قالوا: لا، قال: **«إني صائم»**[2]. وخرج ﷺ يومًا وقال: **«إني صائم»** فقالت عائشة: يا رسول الله قد أهديَ إلينا حَيسٌ، قال: **«قد كنتُ أصبحتُ صائمًا ولكن قرِّبيه»**[3].

وحُكي عن سهلٍ أنه قيل له: كيف كنتَ في بدايتك؟ فأخبرَ بضُروبٍ من الرياضات، فقيل له: فكيف أنت في وقتِك هذا؟ فقال: آكلُ بلا حدٍّ ولا توقيت.

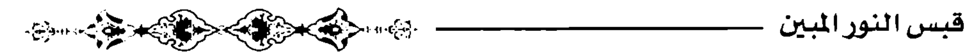
وآخِذُ العلمِ من السَّماعِ تقليدًا يرى التناقضَ بين ما يُروى عن الأكابرِ فيتحيَّر، والبصيرُ بأسرارِ القولِ يعلم أن كلَّ ذلك حقٌّ بالإضافةِ إلى اختلافِ الأحوال، ويسمعُها المحتاطُ أو الغبيُّ المغرورُ فيقول الفطِنُ المحتاطُ: ليس نفسي أطوع من أنفسِ هؤلاءِ الكُبراء الذينَ امتنعُوا. ويقول المغرور: ما نفسي بأعصى من نفسِ هؤلاء الذين رفعوا التقديرَ في مأكُولهم. ولذا يقتصرُ الشيوخُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٩٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٥٥)، والترمذي (٧٣٣، ٧٣٤) وحسنه، والنسائي (٢٣٢٢)، من حديث عائشة ورواه مسلم (١١٥٤) بنحوه.

(٣) رواه مسلم (١١٥٤).



مع المريدِ المبتدئ على مدحِ الجوعِ فقط، حتى لا يجدَ الشيطانُ مُتعلَّقًا مِن قلبِه فيلقيَ إليه: إنكَ عارفٌ كامل وما الذي فاتَك؟

وأدَّبَ عمرُ رضي الله عنه ولدَه عبدَ الله إذ دخلَ عليه فوجده يأكلُ لحمًا مأدُومًا بسمنٍ، فعَلاهُ بالدِّرةِ وقال: لا أمَّ لك كُل يومًا خبزًا ولحمًا، ويومًا خبزًا ولبنًا، ويومًا خبزًا وسمنًا، ويومًا خبزًا وزيتًا، ويومًا خبزًا وملحًا، ويومًا خبزًا قَفارًا. وهذا هو الاعتدال، فالمواظبةُ على اللحمِ إفراطٌ، ومهاجرتُه بالكليةِ إقتارٌ، وهذا قوامٌ بين ذلك.

❖ آفة الرياء لمن تركَ أكلَ الشهوات:

يدخلُ على تاركِ الشهواتِ آفتان عظيمتان:

إحداهما: أن يُخفيَ الشهوةَ ويأكل في الخلوةِ ما لا يأكلُ مع الجماعة، وإظهارُها صدقُ الحال. وإخفاءُ النقصِ وإظهارُ ضدِّه نُقصَانانِ مُتضاعفان، فيكونُ مستحقًّا لمقتَين. وكمالُ العارفِ أن يتركَ الشهواتِ لله، ويُظهِرَ من نفسهِ الشهوةَ إسقاطًا لمنزلتِه من قلوبِ الخلق. وهذا جمعٌ بينَ صِدقَين، فلا جرمَ أولئك يؤتَون أجرهم مرَّتين بما صبروا.

الآفة الثانية: أنه مع تركِ الشهواتِ يفرحُ أن يُعرفَ به فيشتهر بالتعفُّف، فقد خالفَ شهوةً ضعيفةً وأطاعَ شهوةً هي شرٌّ منها، وهي شهوةُ الجاهِ. ومن تركَ شهوةَ الطعام ووقعَ في شهوةِ الرياءِ كان كمَن هربَ من عقربٍ وفزعَ إلى حية.. والله ولي التوفيق.

* * *

* القول في شهوة الفرج:

سُلِّطتْ على الإنسان لفائدتين:

الأولى: بقاء النَّسل. الثانية: أن يقيسَ على اللذةِ المنقَضيةِ الزائلةِ لذَّاتٍ لا تنقضي ولا تزول، وفيها من الآفاتِ ما يُهلِكُ الدينَ والدنيا إن لم تُضبَط وتُقهَرْ وتُرَدَّ إلى حدِّ الاعتدال. فالإفراط يَحرِمُ سلوكَ طريق الآخرة، أو يَقهرُ الدينَ حتى يجرَّ إلى اقتحام الفواحش. ومثالُ مَن يكسرُ سَورةَ الالتفاتِ إلى الشهوةِ أول انبعاثِه مثالُ مَن يَصرفُ عَنانَ الدابَّة عند تَوجُّهِها إلى بابٍ لتدخلَه، ومثالُ من يعالجُها بعد استِحكامِها مثالُ مَن يتركُ الدابةَ حتى تدخلَ وتُجاوزَ البابَ ثم يأخذُ بذنَبِها إلى ورائها.

فإذن إفراطُ الشهوةِ أن تغلبَ العقل، وهو مذمومٌ جدًّا. وتفريطُها بالعِنَّةِ أو الضَّعفِ عن أداءِ حقِّ المنكوحة، وهو أيضًا مذمومٌ. وإنما المحمودُ أن تكونَ معتدلةً ومطيعةً للعقلِ والشرع، ومهما أفرطَت فكسرُها بالجوعِ والنكاحِ وكَثرةِ الذِّكر، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**معاشرَ الشبابِ من استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوَّج، فمَن لم يستطِع فعليهِ بالصومِ فإنه له وِجاء**»[(١)].

❖ ماذا على المريد؟

ينبغي ألّا يَشغَلَ نفسَه إذا لم تغلِبه الشهوة، فإن غلَبَتهُ فليَكسِرها بالجوعِ والصوم، فإن لم تَنقمع وكان لا يقدرُ على حِفظِ العينِ فالنكاحُ أولى له. وزنى العينِ من كبائرِ الصغائر. قال عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرعُ في

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٥)، مسلم (١٤٠٠).



القلبِ شهوة وكفى بها فتنة. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِن سهامِ إبليس، فمن تركَها خوفًا من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيمانًا يجدُ حلاوتَه في قلبه**»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء**»[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساء**»[3]. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] الآية.

قال بعضُهم: غلبَت عليَّ شهوَتي في بدءِ إرادتي فأكثرتُ الضجيجَ إلى الله، فرأيتُ شخصًا في المنام قال: ما لك؟ فشكوتُ إليه، قال: تقدَّم، فوضع يدَه على صدرِي فوجدتُ بردَها في فؤادِي وجسدِي وأصبحتُ وقد زالَ ما بي وبقيتُ مُعافًى سنة، ثم عاودَني ذلك فأكثرتُ الاستغاثةَ، فأتاني شخصٌ في المنام فقال: أتحبُّ أن يذهبَ ما تجدُه وأضرب عنقَك؟ قلت: نعم، فقال: مُدَّ رقَبَتَك، فمددتُها فجرَّد سيفًا من نورٍ فضربَ به عُنقي فأصبحتُ وقد زالَ ما بي، فبقيتُ معافًى سنةً، ثم عاودني ذلك فرأيتُ كأنَّ شخصًا فيما بين جنبِي وصدرِي يخاطبنُي: ويحك كم تسألُ اللهَ رفعَ ما لا يحبُّ رفعَه؟ فتزوَّجتُ فانقطعَ ذلك عنِّي ووُلِد لي.

ومهما احتاج المريدُ إلى النكاح فلا يترك شرطَ الإرادةِ في الابتداءِ بالنيةِ الحسنة، وفي الداومِ بِحُسنِ الخُلقِ وسدادِ السيرةِ والقيامِ بالحقوق، فيطلبُ ذاتَ الدين ولا يطلبُ الغنيَّة. وتزوَّج بعضُهم امرأةً ذاتَ جمالٍ فلمَّا قَرُبَ

(١) أخرجه الحاكم وصحح إسناده (٣٤٩/٤)، والقضاعي (٢٩٢)، والطبراني (١٠٣٦٢). قال الهيثمي: (٦٣/٨): فيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢).

زفافُها أصابَها الجُدريّ فاشتدَّ حُزنُ أهلِها خوفًا مِن أن يستقبحَها، فأراهم أنه أصابَه رمد، ثم إن بصره قد ذهب، حتى زُفَّت إليه فزالَ عنهم الحزَن، فبقيَت عنده عشرين سنة، ثم تُوفِّيَت، ففتح عينَيه، فقيل له، فقال: تعمَّدتُه لأجلِ أهلِها حتى لا يحزنوا. فقيل: قد سبقتَ إخوانَك بهذا الخُلق.

فلينظرِ المريدُ إلى حالهِ وقلبِه فإن وجدَه في العزوبةِ فهو الأقرب. ودواءُ هذه العلةِ ثلاثةُ أمور: الجوع وغضُّ البصر والاشتغالُ بشغلٍ يستولي على القلب. فإن لم تنفع فالنكاحُ يستأصلُ مادَّتها. ولهذا كان السلفُ يبادرونَ إلى النكاح، وعن عبدِ اللهِ بن أبي وداعةَ قال: كنت أجالسُ سعيدَ بن المسيِّب فتفقدَّني أيامًا فلمَّا أتيتُه سألني، فقلت: توفيت أهلي فاشتغلتُ بها، قال هلا أخبرتَنا فشهِدناها؟ ثم قال: هل استحدثتَ امرأةً؟ فقلتُ: يرحمُكَ الله، ومَن يُزوِّجُني وما أملكُ إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا، قلت: وتفعل؟ قال: نعم، فحمدَ اللهَ وصلى على النبي وزوَّجَني على درهمينِ ـ أو قال ثلاثة ـ فقمتُ وما أدرِي ما أصنعُ منَ الفرح، فصِرتُ إلى منزِلي وجعلتُ أفكِّرُ ممَّن آخذُ وممَّن أستدين، فصلَّيتُ المغربَ وانصرفتُ إلى منزلي، وكنتُ صائمًا فقدَّمتُ عَشائي لأفطر، وإذا بابي يُقرَع قلت: مَن هذا؟ قال: سعيد، فأفكَرتُ في كلِّ إنسانٍ اسمُه سعيد إلا ابن المسيِّب، وذلك أنه لم يُرَ أربعينَ سنةً إلا بينَ دارِه والمسجد، فإذا به ابنُ المسيِّب، فظننتُ أن قد بدا له، قلت: لو أرسلتَ إليَّ لأتيتُك، فقال: لا، أنتَ أحقُّ أن تؤتى، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنتَ عزَبًا فتزوَّجتَ فكرهتُ أن أُبيتَك الليلةَ وحدَك، وهذه امرأتُك، وإذا هي خلفَه فأخذَ بيدِها فدفعَها إلى الباب، فسقطَت من الحياء، فتقدَّمتُ إلى القصعةِ فوضَعتُها في ظلِّ السراجِ وصعِدتُ السطحَ وناديتُ الجيرانَ فجاؤوني، قلتُ: زوَّجَني



سعيدُ بن المسيِّب ابنتَه اليوم، وقد جاء بها، قالوا: وهي في الدار؟ قلتُ: نعم، فنزلوا وبلَغَ أمي فجاءت فأقامت ثلاثًا تُصلحُها، ثم دخلتُ بها فإذا هي مِن أحفظِ الناسِ لكتابِ اللهِ وأعلمِهم بسُنّةِ رسوله وأعرَفِهم بحقِّ الزوج. فمكثتُ شهرًا، ثم أتيتُ سعيدًا وهو في حلقته فسلَّمتُ فردَّ عليَّ السلام، فلمَّا تفرَّقَ مَن في المجلس، قال: ما حالُ ذلك الإنسان؟ قلتُ: بخيرٍ على ما يحبُّ الصديقُ ويكرهُ العدو، قال: إن رابَكَ منهُ أمرٌ فدونَك والعصا، فانصرفتُ إلى منزلي فوجَّهَ إليَّ بعشرينَ ألف درهم. وكان قد خطبَها منه عبدُ الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهدَ فأبى سعيد، فاحتالَ عليهِ حتى ضربه مائة سوطٍ وصبَّ عليه في يومٍ باردٍ جرةَ ماء، وألبسَهُ جبَّةَ صوف رضي الله عنه ورحمه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه ـ وعدَّ منهم ـ: رجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ إلى نفسِها فقالَ: إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمين**»(١).

وعن سليمانَ بنِ يسار أنه خرجَ من المدينةِ حاجًّا ومعه رفيقٌ حتى نزلَ بالأبواء، فأخذ رفيقَه السُّفرةَ وانطلقَ إلى السوقِ وسليمانُ في الخيمةِ وكان مِن أجملِ الناس، فبصُرَت به أعرابيةٌ من قُلَّةِ الجبلِ وانحدرت إليه فأسفرَت عن وجهِها، فظنَّ أنها تريدُ طعامًا، فقامَ إلى فضلةِ السُّفرةِ ليعطيَها، قالت: لستُ أريدُ هذا، قال: جهَّزكِ إليَّ إبليس؟ ثم وضعَ رأسَه بين ركبتَيهِ وأخذَ في النَّحيب، فلمَّا رأت منه ذلك سدَلت البُرقُعَ وانصرفَت، وجاء رفيقُه فرآه قد انتفخَت عيناه مِن البكاء، فقال: ما يُبكيك؟ قال: ذكرتُ صِبيَتي، قال: لا والله إن لك قصةً إنما عهدُك بصِبيتِك منذُ ثلاث، فلم يزَل به حتى أخبره، فوضعَ

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

السفرةَ وجعلَ يبكي بُكاءً شديدًا، فقال: وأنت ما يُبكِيك؟ قال: أنا أحقُّ بالبكاءِ لأني أخشى أن لو كنتُ مكانَك لمَا صبَرتُ، فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمانُ إلى مكة وطافَ وسعى وأتى الحِجر، فاحتبى فأخذتهُ عينُه فنام، فإذا رجلٌ طويلٌ له شارةٌ حسنةٌ ورائحةٌ طيبةٌ، فقال: رحمكَ اللهُ من أنت؟ قال: أنا يوسف، قال: الصدِّيق؟ قال: نعم، قال: إنَّ في شأنِك وامرأة العزيزِ عجبًا! فقال له يوسف: شأنُك وصاحبةِ الأبواءِ أعجَب.

فهذا فضلُ مَن تمكَّنَ فعفَّ، وقريبٌ منه مَن تمكَّنَ مِن قضاءِ شهوةِ العَين؛ فحِفظُها مُهِمٌّ قد يُستهانُ به والآفاتُ منه. قال ﷺ: «**لكَ الأُولى وعليكَ الثانية**»[1]. وعن أبي بكر المزَني أن قصَّابًا أُولِعَ بجاريةٍ لبعض جيرانه، فأرسلَها أهلُها في حاجةٍ إلى قريةٍ أخرى، فتبعَها وراودَها فقالت: لا تفعل، لأنا أشدُّ حبًّا لكَ، ولكني أخافُ الله، قال: فأنتِ تخافينَه وأنا لا أخافُه! فرجعَ تائبًا، فأصابه العطش، فإذا برسولٍ لبعضِ أنبياءِ بني إسرائيل، سأله فقال: ما لك؟ قال: العطش، قال: تعالَ حتى ندعوَ الله أن تُظِلَّنا سحابةٌ حتى ندخلَ القرية، قال: ما لي مِن عملٍ صالحٍ فأدعو، فادعُ أنت، قال: أنا أدعو وأمِّن أنت، فدعا وأمَّن هو، فأظلَّتهُما سحابةٌ إلى القرية، فأخذَ القصَّابُ إلى مكانِه فمالَت معه، فقال له: زعمتَ أنْ ليس لك عملٌ صالح، وأنا دعوتُ وأنت أمَّنتَ ثم تبعَتكَ السحابة، لَتُخبِرَنِّي بأمرِك، فأخبره، فقال: إنَّ التائبَ عندَ اللهِ بمكانٍ ليس أحدٌ منَ الناسِ بمكانه.

والحمدُ للهِ أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلاتُه على سيدِنا محمدٍ خيرِ خلقِه، وعلى كلِّ عبدٍ مصطفى مِن أهلِ الأرضِ والسماء، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

لحمد للهِ الذي أحسنَ خَلقَ الإنسانِ وعدَله، وأمدَّه بلسانٍ يترجمُ به عمَّا حواهُ القلبُ وعقَله؛ وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه صلى الله عليه وآله وأصحابهِ ما كبَّرَ اللهَ عبدٌ وهلَّله.

أما بعد: فإنَّ اللسانَ من نعمِ اللهِ ولطائفِ صُنعِه، صغيرٌ جِرمُه، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرمُه، به يستبينُ الكفر والإيمان، ويتناولُ الموجوداتِ والمعدوماتِ وصفاتِ الخالقِ والمخلوقات، وهذه خاصيةٌ له، فإن العينَ لا تصلُ إلى غير الصور والألوان، والأذنَ لا تصلُ إلى غيرِ الأصوات، واليدَ لا تصلُ إلى غير الأجسام وهكذا. واللسانُ رحبُ الميدان، وقد تساهلَ الخلقُ في الاحترازِ عن آفاتِه، وإنه أعظمُ آلةِ الشيطانِ في استغواءِ الإنسان، ونحن نفصِّلُ مجامعَ آفاتِه، ونعرِّفُ طريقَ الاحترازِ عنها.

❖ عظيم خطرِ اللسان وفضيلةُ الصمت:

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن صمتَ نجا**»[1]، وعن أنسٍ أن لقمانَ قال: الصمتُ حُكمٌ وقليلٌ فاعلُه. رواه ابن حبان بسندٍ صحيح. قال عقبة بن عامر: قلتُ يارسولَ الله: ما النجاة؟ قال: «**أمسِك عليك لسانَك، وليسَعكَ**

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٦٤٨١، ٦٦٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٨٣)، والدارمي (٢٧١٣)، وهو عند الطبراني بسندٍ جيد.

بيتُك، وابكِ على خطيئتِك»[1]. وقال سهل بن سعد: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[2]. وقد سُئلَ رسولُ الله عن أكثرِ ما يُدخلُ الناسَ الجنةَ فقال: «تقوى الله وحُسنُ الخُلق» وعن أكثرِ ما يدخلُ الناس النار فقال: «الأجوفان: الفم والفرج»[3]. وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أكثرَ خطايا ابنِ آدمَ في لسانِه»[4]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن كفَّ لسانَه سترَ اللهُ عورتَه، ومن ملكَ غضبَه وقاهُ اللهُ عذابَه، ومن اعتذرَ إلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذرَه»[5].

وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليَقُلْ خيرًا أو ليسكُت»[6]، وعن البراءِ بنِ عازب قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: دُلَّني على عملٍ يُدخلُني الجنة، قال: «أطعِمِ الجائعَ واسقِ الظمآنَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عنِ المنكر، فإن لم تُطِق فَكُفَّ لسانَكَ إلا مِن خير»[7].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وقال: حسن.

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي وصححه (٢٠٠٥)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني (١٠٤٤٦) قال الهيثمي (١٠/٣٠٠): رجاله رجال الصحيح. وأبو نعيم فى الحلية (٤/١٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٣). وقال المناوي (٢/٨٠): «قال المنذري: رواة الطبراني رواة الصحيح، وإسناد البيهقي حسن، وقال الهيثمي: رجال الطبراني رجال الصحيح، وقال شيخه العراقي: إسناده حسن».

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢١)، والبيهقي في الشعب (٨٠٨٠، ٨٠٨١) بسندٍ حسن، والحكيم الترمذي (٢/٢٦٨).

(٦) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسنادٍ جيد في الصمت (٦٧)، والطيالسي (٧٣٩)، وأحمد (١٨٦٤٧)، قال الهيثمي (٤/٢٤٠): رجاله ثقات. وابن حبان (٣٧٤)، والبيهقي (١٠/٢٧٣) وفي الشعب (٤١٦٦)، والحاكم (٢/٢٣٦).



كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضعُ حصاةً في فيهِ يمنعُ نفسَه عن الكلام، ويشير إلى لسانه يقول: هذا الذي أورَدَني الموارد. وقال ابن مسعود: ما شيءٌ أحوج إلى طولِ سجنٍ من لسان. قال الحسن: ما عقلَ دينَه مَن لم يَحفظ لسانَه. قال يونسُ بن عبيد: ما مِن الناسِ أحدٌ يكونُ منه لسانُه على بال إلا رأيتَ صلاحَ ذلك في سائرِ عمله. وما تكلم الربيعُ بن خُثَيم بكلامِ الدنيا عشرين سنة، وإذا أصبحَ كتبَ ما تكلَّمَ به ثم يحاسبُ نفسَه عند المساء. وأقام المنصور بن المعتزِّ لم يتكلم بكلمةٍ بعد العشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنة.

فإن قلتَ: ما سببُ هذا الفضلِ الكبيرِ للصمت؟ فاعلم أنه كثرةُ آفاتِ اللسان، وهي لا تثقلُ عليه، ولها بواعثُ من الطبعِ والشيطان، وفي الصَّمتِ جمعُ الهمِّ ودوامُ الوقارِ والفراغُ للذكرِ والعبادةِ والسلامةُ مِن تَبِعاتِ القولِ في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث: «من صَمَتَ نَجَا»[1]، ولقد أوتي واللهِ جواهرَ الحِكَم وجوامعَ الكَلِم.

ولنعدَّ آفاتِ اللسان مبتدئينَ بالأخف مُتَرقِّينَ إلى الأغلظ وهي عشرون آفة:

❖ الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك:

وهو أن تتكلمَ بما أنتَ مستغنٍ عنه، فيضيعُ زمانك وتستبدلُ الذي هو أدنى بالذي هو خير، إذ لو صرفتَ ذلك إلى الفكرِ لربَّما انفتح لك مِن نفحاتِ رحمةِ اللهِ ما يعظمُ جدواه، ولو هلَّلتَه وذكرتَه سبحانه لكانَ خيرًا، ومَن قدرَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٦٤٨١، ٦٦٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٨٣)، والدارمي (٢٧١٣)، وهو عند الطبراني بسندٍ جيد. وقد تقدم.

على أن يأخذَ كنزًا فأخذَ مكانه مَدرةً لا تنفعُه كان خاسرًا، وإن المؤمنَ لا يكونُ صمتُه إلا فكرًا، ونظَرُه إلا عِبرةً، ونُطقُه إلا ذكرًا.

فرأسُ مالِ العبدِ أوقاتُه، فإذا صُرِفت فيما لا يعنيهِ ضيَّعَ رأسَ مالِه، وقد قال ﷺ: «**من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه**»[١]، قال أنس: استُشهِدَ غلامٌ منا يومَ أُحدٍ فوجدنا على بطنهِ حجرًا منَ الجوعِ، وقالت أمه: هنيئًا لكَ الجنة، فقال ﷺ «**وما يدريكِ؟ لعلَّه كانَ يتكلمُ فيما لا يعنيه ويمنعُ ما لا يضرُّه**»[٢].

وحدُّه أن تتكلَّمَ بما لا تُثابُ عليه، ولو سكتَّ عنه لم تأثَم ولم تستضِر به في حالٍ ولا مال.

وسبَبُه الباعثُ عليه الحرصُ على معرفةِ ما لا حاجةَ إليه أو تزجِيةِ الأوقاتِ بما لا فائدةَ فيه.

وعلاجُه مِن حيثُ العلم أن يعلمَ أن أنفاسَه رأسُ مالِه وأنه مسؤولٌ عن كلِّ كلمة، وأن اللسانَ شبكةٌ يقدرُ أن يقتنصَ بها الدرجاتِ العلا وتضييعُه خسرانه. ومن حيث العمل أن يُلزِمَ نفسَه السكوتَ حتى عن بعضِ ما يعنيه لكي يعتادَ اللسانُ تركَ ما لا يعنيه، وإن أراد استعانَ بالعزلةِ ونحوها.

❖ الآفة الثانية: فضول الكلام:

وهو يتناولُ الخوضَ فيما لا يعني والزيادةَ فيما يعني على قدرِ الحاجة. قال عطاء: إنّ مَن كان قبلَكُم يكرهون فضولَ الكلام، ويعدُّونَ الفضولَ ما عدا كتابِ الله تعالى وسنةِ رسوله، أو أمرًا أو نهيًا، أو أن تنطقَ بحاجةٍ في معيشتِكَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٦).

لابدَّ منها. وعن بعضِ الصحابة: إن الرجلَ ليُكلِّمُني بالكلامِ لَجوابُه أشهى إليَّ مِن الماءِ البارِدِ للظمآن فأتركه خِيفَةَ أن يكونَ فضولًا.

ومهمُّ الكلامِ محصورٌ في كتابِ الله، قال عز وجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

والباعثُ عليه وعلاجُه ما سبق في الآفةِ الأولى.

❖ الآفة الثالثة: الخوضُ في الباطل:

كحكايةِ أحوالِ النساءِ ومجالسِ الخمر وتَنَعُّمِ أهلِ الترفِ والمُلكِ ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، وهو ممَّا لا يَحِلُّ الخوض فيه. أمّا الكلامُ فيما لا يعني أو أكثر ممّا يعني فهو تركُ الأَولى ولا تحريمَ فيه. إلا أنه لا يُؤمَن على مُكثِرِ الكلامِ الخوضُ في الباطل، وعن بلالِ بن الحارثِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِن رضوانِ اللهِ ما يظنُّ أن تبلغَ به ما بلغَت فيكتبُ اللهُ بها رضوانَه إلى يومِ القيامة، وإن الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ مِن سخطِ اللهِ ما يظنُّ أن تبلغَ به ما بلغَت فيكتب اللهُ عليه بها سخطَه إلى يومِ القيامة**»(١). قال علقمة: كم مِن كلامٍ منَعَنيهِ حديثُ بلالِ بن الحارث. قال ابن مسعود: أعظمُ الناسِ خطايا يومَ القيامةِ أكثرُهم خوضًا في الباطل، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر]، وبقوله جل جلاله: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

❖ الآفة الرابعة: المراء والجدال:

قال ﷺ: «**من تركَ المِراءَ وهو مُحِقٌّ بُنيَ له بيتٌ في أعلى الجنة، ومن تركَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩) وقال حسن صحيح. وابن ماجه (٣٩٦٩). وأصله في البخاري (٦٤٧٨).

المراءَ وهو مُبطل بُنيَ له بيتٌ في ربَضِ الجنة»[1]، وقال ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعد أن هداهمُ اللهُ تعالى إلا أُوتُوا الجدل**»[2]. وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلَّمِ العلمَ لثلاثٍ ولا تتركهُ لثلاث، لا تتعلَّمهُ لتُماريَ به، ولا لتباهيَ به، ولا لتُرائيَ به؛ ولا تترُكْهُ حياءً من طلبِه، ولا زهادةً فيه، ولا رضًا بالجهلِ منه. وقيل لميمون بن مهران: ما لكَ لا تتركُ أخاك عن قِلى؟ قال: لأنِّي لا أشاريهِ ولا أماريه.

وحدُّ المراءِ هو كلُّ اعتراضٍ على كلامِ الغير بإظهارِ خَللٍ فيه، في اللفظِ أو المعنى أو القصد. وتركُ المراءِ بتركِ الإنكارِ والاعتراض، فكلُّ ما سمعتَه فإن كان حقًّا فصَدِّق، وإن كان باطلًا أو كذبًا لا يتعلق بأمورِ الدينِ فاسكُت عنه.

وأما المجادلة فعبارة عن قصدِ إفحامِ الغير وتعجيزِه وتنقيصِه بالقدحِ في كلامه. والباعثُ عليه الترفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضلِ والتهجُّمِ على الغير، وهما شهوتان للنفسِ قويتان، من قبل تزكية النفس، ومُقتضى ما في العبد مِن طغيانِ دعوى العلوِّ ومن مقتضى طبعِ السَّبُعيّة أن يمزِّقَ غيرَه، فهما صفتان مُهلكتان قوَّتُهما المراءُ والجدالُ، والمواظِبُ عليهما مُقَوٍّ لهذه الصفات المهلكة.

وعلاجه: بأن يكسرَ الكِبرَ الباعثَ له والسَّبُعية بما سيأتي إن شاء الله في ذمِّ الكبرِ والعجُبِ وذمِّ الغضب.

قال أبو حنيفة لداود: لم آثرتَ الانزواء؟ قال: لأجاهدَ بتركِ الجدال، قال: احضُر واستمع ولا تتكلم، قال: ففعلت، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها. ومن اعتادَ المجادلةَ مدةً وأثنى الناسُ عليه ووجدَ لنفسهِ عزًّا وقبولًا قويَت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٣)، وابن ماجه (٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢٢١٦٤).



❖ الآفة الخامسة: الخصومة:

وهي وراءَ الجدالِ والمِراء؛ فالمِراء طعنٌ في كلامِ الغير. والخصومةُ لَجاجٌ في الكلامِ ليستوفيَ به مالًا أو حقًّا مقصودًا، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغضَ الرجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِم**»[1].

فإن قلت: إذا كان للإنسانِ حقٌّ لابدَّ له مِن الخصومةِ في طلبِه، فكيف تُذَمُّ خصومتُه؟ فاعلم أن الذمَّ يتناولُ مَن يخاصم بالباطل وبغيرِ علم، والذي يطلبُ حقًّا ولكنه يتجاوز قدرَ الحاجة ويظهرُ اللَّدَدَ قصدَ التسلُّطِ أو الإيذاء، ويتناولُ كلماتٍ مؤذيةً لا يحتاجُ إليها في إظهارِ الحق. فأما المظلومُ الذي ينصرُ حُجَّتَه بطريقِ الشرعِ من غير لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لجاجٍ على قدرِ الحاجة، ومِن غيرِ قصدِ عنادٍ وإيذاء، فليس فِعلُهُ بحرامٍ ولكن الأَولى تركُه ما وجدَ سبيلًا، وأقلُّ ما فيهِ تشويشُ خاطرِهِ حتى أنه في صلاتهِ يشتغلُ بِمُحاجَّةِ خصمِه، فمَنِ اقتصرَ على الواجبِ في خصومتهِ سَلِم، إلا إن كان مستغنيًا لأنَّ عنده ما يكفيهِ فيكونُ تاركًا للأَولى، وأقلُّ ما يفوتُه طيبُ الكلامِ وما وردَ فيهِ من الثواب، وأخرج الطبراني[2] من حديث هانئ بإسنادٍ جيِّد قال ﷺ: «**يوجبُ الجنةَ إطعامُ الطعامِ وحُسنِ الكلام**» قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنةِ لغُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها مِن ظاهرِها، أعدَّها اللهُ تعالى لمَن أطعمَ الطعامَ وألانَ الكلام**»[3]، ورُوِي أن سيدَنا عيسى عليه السلام مرَّ به خنزير فقال: مُرَّ بسلام، فقيل: يا روحَ الله أتقول هذا لخنزير!؟

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) قال الهيثمي (٥/٢٩): «رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات».

(٣) رواه الترمذي (١٩٨٤)، وأحمد (٦٦١٥)، وابن خزيمة (٢١٣٦، ٢١٣٧) وقال عقبهما: إن صح الخبر. وابن حبان (٥٠٩)، والطبراني (٣٤٦٦)، قال الهيثمي (٢/٢٥٤): رجاله ثقات.

قال: أكره أن أعوِّدَ لساني الشر. وقال نبيُّنا ﷺ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»[1].

❖ الآفة السادسة: التقعُّر في الكلامِ بالتشدُّقِ وتكلُّفِ السجعِ والفصاحةِ والتصنُّع:

قال ﷺ: «**إنَّ أبغضَكُم إلى اللهِ وأبعدَكم منِّي مجلِسًا الثرثارون المُتفيهِقون المتَشدِّقون**» رواه أحمد[2] والترمذي[3] وحسَّنه بلفظ: **إنَّ أبغضَكم إليَّ**، وقال ﷺ: «**ألا هلكَ المتنطِّعون ـ ثلاث مرات ـ**»[4]، والتنطُّع: التعمُّق والاستقصاء، ولا يدخلُ في تحسينِ ألفاظِ الخطابةِ والتذكيرِ من غيرِ إفراطٍ وإغراق، فإن المقصودَ منها تحريكُ القلوبِ وتشويقُها، ولرشاقةِ اللفظِ تأثيرٌ فهو لائقٌ به، أما المحاوراتُ فلا يليقُ بها السجعُ والتشدُّق، ولا باعثَ عليه إلا الرياءُ وإظهارُ الفصاحة.

❖ الآفة السابعة: الفحش والسبُّ وبذاءة اللسان:

قال ﷺ: «**إياكم والفحشَ فإنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الفحشَ ولا التفحُّش**»[5]، ونهى عليه الصلاة والسلام عن أن تُسبَّ قتلى بدرٍ من المشركين فقال: «**لا تسبوا هؤلاء فإنَّه لا يخلُص إليهم شيءٌ مما تقولونَ وتؤذونَ الأحياء، ألا إنَّ البذاءَ لؤم**»[6]، وقال ﷺ: «**ليس المؤمنُ بالطعَّانِ ولا اللعَّانِ ولا**

---

(١) رواه مسلم (١٠٠٩).

(٢) في مسنده (١٧٧٣٢).

(٣) في سننه (٢٠١٨).

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٠).

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٨٣)، والحاكم وصحَّحه (٥٦/١)، وابن حبان (٥١٧٧)، وأحمد (٦٤٨٧). وبنحوه رواه مسلم (٢١٦٥)، وابن ماجه (٣٦٩٨).

(٦) قال العراقي في تخريجه: «أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورجاله ثقات، وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح: «إن رجلًا وقع في أب للعباس كان في=

الفاحشِ ولا البذيء»[1]، وعن جابر بن سَمُرة قال: قال ﷺ: «**إنَّ الفُحشَ والتفاحُشَ ليسا من الإسلامِ في شيء، وإن أحسنَ الناسِ إسلامًا أحاسنُهم أخلاقا**»[2].

قال الأحنف: ألا أخبرُكم بأدوأِ الداء: اللسانُ البذيء، والخلقُ الدنيء.

وحدُّ الفحشِ التعبيرُ عن الأمورِ المُستَقبَحةِ بالعباراتِ الصريحة، وأهلُ الصلاحِ يتحاشَون عنها بل يدلُّون بالرموز، قال ابن عباس: إن اللهَ حيِيٌّ كريم يعفُو ويكنُو، كنَى باللمسِ عن الجماع. فينبغي الكنايةُ لقضاءِ الحاجةِ عن البول والغائط وعن النساء، فيُقال: قيل في الحجرة، أو مِن وراءِ السَّتر، أو أم الأولاد، لا زوجتُك أو أختك.

قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفَّظ في منطِقه، فخرج خرَّاجٌ تحت إبطِه، فأتيناه نسأله لنرى ما يقول، فقلنا: من أين خرج؟ قال: من باطنِ اليد. وقال أعرابيٌّ لرسولِ الله: أوصِني، قال: «**عليكَ بتقوى الله، وإن امرؤٌ عيَّرَك بشيءٍ يعلمُه فيك فلا تُعيِّرْه بشيءٍ فيه، يكُن وبالُه عليه وأجرُه لك، ولا تسبَّنَّ شيئًا**»[3]، وقال ﷺ: «**سِبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالُه كفر**»[4]، وفي

= الجاهلية فلطمه...» الحديثَ، وفيه: «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا». النسائي (٤٧٨٩)، والحاكم (٣٧١/٣).

(١) رواه الترمذي بإسنادٍ صحيح (١٩٧٧)، والحاكم وصحَّحه (١٢/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣١٢، ٣٣٢)، والبيهقي (١٩٣/١٠)، وأبو نعيم (٢٣٥/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٩٤٣)، وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٨٤)، وأحمد (٢٠٦٣٢)، والطبراني بإسناد جيد (٦٣٨٦)، وابن حبان (٥٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٨٢)، والبيهقي (٢٠٨٨٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).



الحديث: «**ملعونٌ مَن سبَّ والديه**»[1]، وفي لفظ «**ومِن أكبرِ الكبائرِ أن يسبَّ الرجلُ والديه**» قالوا: يا رسولَ الله كيف يسبُّ الرجلُ والديه؟ قال: «**يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ الآخرُ أباه**»[2].

❖ الآفة الثامنة: اللعن:

لحيوانٍ أو جمادٍ أو إنسان، قال ﷺ: «**ليس المؤمنُ باللعَّان**»[3]، وقال حذيفة: ما تلاعنَ قومٌ قطُّ إلا حقَّ عليهم القول، قال عمران بن حصينٍ رضي الله عنه: بينما رسولُ الله ﷺ في بعضِ أسفاره إذ امرأةٌ على ناقةٍ لها ضجِرَت منها فلعنَتها، فقالَ ﷺ: «**خذوا ما عليها وأعرُوها**»[4]، قال: فكأني أنظرُ إلى تلك الناقةِ تمشي لا يتعرض لها أحد. وقال رسول الله ﷺ: «**إن اللعَّانين لا يكونونَ شُفعاءَ ولا شهداءَ يوم القيامة**»[5]، قال أنس: كان رجلٌ يسير على بعيرٍ فلعنَ بعيرَه، فقال ﷺ: «**يا عبدَ اللهِ لا تَسِر معنا على بعيرٍ ملعون**»[6].

ويقتضي اللعنَ الكفرُ والبدعةُ والفسقُ، وفي كلِّ واحدةٍ مراتب:

الأولى: اللعنُ بالوصفِ الأعمِّ كلعنةِ الله على الكافرين والمبتدعينَ والفسَقَة.

الثانية: اللعنُ بأوصافٍ أخصَّ كاليهودِ والنصارى والمجوسِ والقدريةِ

---

(١) رواه أحمد (٢٩١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٣٢)، وأبو يعلى (٢٥٣٩)، والطبراني (١١٥٤٦) بإسناد جيد. والحاكم (٤/٣٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٧٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠١٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٥).

(٥) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسنادٍ جيد في الصمت (٣٩٠)، وأبو يعلى (٣٦٢٢)، وقال الهيثمي (٧/٣٩٣): «رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط بنحوه، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح».



والخوارجِ والروافضِ والظلَمةِ وآكلي الربا، وذلك جائز، لكن في أوصافِ المبتدعةِ خطَرٌ ينبغي أن يُمنعَ منه العوام، لأنه يستدعي المعارضةَ بمثله ويثيرُ نزاعًا وفسادًا.

الثالثة: اللعنُ للشخصِ المعين، وفيه خطر، وكل شخصٍ ثبتَت لعنتُه شرعًا كفرعون وأبي جهلٍ تجوز لعنتهُ لموتهم على الكفر ومعرفةِ ذلك شرعًا، وأمّا شخصٌ بعينِه ممن لم يرِد النصُّ في موتهِ على الكفرِ فلا يجوز، فإنه ربما يُسلمُ أو يتوبُ أو يرجع إلى السنة والاستقامة. وإذا علمتَ تحريمَ لعنِ الشخصِ الكافرِ فهو في الفاسقِ أو المبتدعِ أَوْلَى، ولما حُدَّ بعضُهم في الخمرِ مراتٍ قال بعضهم: لعنه الله ما أكثرَ ما يؤتَى به! فقال ﷺ: «**لا تكُن عونًا للشيطانِ على أخيك، ولا تقُل هذا فإنه يحبُّ اللهَ ورسولَه**»[١]. قال ﷺ: «**لا يرمي رجلٌ رجلًا بالكفرِ ولا يرميهِ بالفسقِ إلا ارتدَّت عليهِ إن لم يكن صاحبُه كذلك**»[٢].

فإن قيل: هل يجوز أن يُقال: قاتلُ فلان ـ يعني أحد أهل الصلاح والخير ـ قاتل فلان لعنه الله، أو الآمر بقتلِه لعنه الله، قلنا: الصوابُ إن ماتَ قبل التوبةِ لعنهُ الله، لأن وحشيًّا قاتل حمزة عمِّ رسولِ الله تابَ عن الكفرِ والقتلِ جميعًا فلا يجوزُ أن يُلعَن.

ولا يجوز التهاون باللعن، والمؤمن ليس بلعّان. والاشتغالُ بذكرِ الله أَولَى. قال مكي بن إبراهيم: كنا عند ابن عَون، فجعلوا يقعُونَ في ابن أبي بردة وهو ساكتٌ، فقالوا: يا بن عَون إنما نذكرُه لِمَا ارتكبَ منك، فقال: هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يومَ القيامة: لا إله إلا الله، ولعنَ اللهُ فلانًا، فلأن

---

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦٠).

يخرج من صحيفتي «لا إله إلا الله» أحبُّ إليَّ مِن أن يخرجَ منها «لعنَ الله فلانًا». وقال ﷺ: «لَعنُ المؤمنِ كقتلِه»[١].

ويقرب من اللعنِ الدعاءُ على الإنسانِ بالشر كقول: لا صحَّحَ الله جسمَه، ولا سلَّمه. وما يجري مُجراه.

❖ الآفة التاسعة: ما يحرم من الغِناء والشعر:

وهو كلامٌ حَسَنُهُ حَسن وقبيحُه قبيح، وفي الحديث: «**لأن يَمتَلئَ جوفُ أحدِكُم قَيحًا خيرٌ لهُ مِن أن يمتلئَ شِعرًا**»[٢]. وقال ﷺ: «**إن مِن الشِّعرِ لَحِكمة**»[٣]. وقد أمرَ رسولُ اللهِ حسَّانَ بن ثابت بِهجَاءِ الكفارِ بقوله: «**اهجُهُم وجبريلُ معك**»[٤]. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله كان يَخصفُ نعلَه، وهي تَغزِلُ فنظرت إليه فجعلَ جبينُه يعرَقُ ويتَولَّدُ نُورًا، قالت: فَبُهِتُّ فنظرَ إليَّ قال: مَا لَكِ بُهِتِّ؟ قلت: يا رسولَ الله نظرتُ إليك فجعل جبينُك يَعرق ويتوَلَّدُ نورًا، ولو رآكَ أبو كبيرٍ الهُذَلي لعَلم أنك أحقُّ بشعرِه، قال: وما يقول يا عائشة؟ قلتُ: يقول:

ومُبَرَّأً مِن كُلِّ غُبَّرِ حَيضَةٍ ... وفَسادِ مُرضعَةٍ وداءٍ مِغيلِ

وإذا نظرت إلى أسِرَّةِ وجهِهِ ... برقَت كبرقِ العارِضِ المُتهَلِّلِ

قالت: فوضعَ ما كان بيدِهِ وقام إليَّ وقال: جزاكِ الله خيرًا يا عائشة، ما سُرِرتِ مِنّي كسرورِي منك[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠).
(٢) رواه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧).
(٣) رواه البخاري (٦١٤٥).
(٤) رواه البخاري (٦١٥٣)، ومسلم (٢٤٨٦).
(٥) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٠٨، ٢١١).



❖ **الآفة العاشرة: المزاح:**

وأصلُهُ مذمومٌ إلا قَدرًا يَسيرًا يُستَثنى، قال ﷺ: «**لا تُمَارِ أخاكَ ولا تُمَازِحهُ**»[1]. والمنهي عنه الإفراط فيه والمداومة عليه لأنه اشتغالٌ باللعب والهزل، والإفراطُ فيه يورِثُ كثرةَ الضَّحك، وهي تميتُ القلبَ وتورثُ الضغينةَ وتُسقط المَهابة، فما خلا عن هذه فلا يُذَمّ، قال ﷺ: «**إني لَأمزحُ ولا أقول إلا حقًّا**»[2] رواه ابن عدي. ومَن كَثُرَ كَلامُه كَثُرَ سَقَطُه، قال ابن عباس: من أذنبَ ذنبًا وهو يضحك دخل النارَ وهو يبكي. قال عمر: من مزحَ استُخِفَّ به. قال سعيد بن العاصِ لابنه: يا بُنَيَّ لا تُمَازِح الشَّريفَ فيحقِد عليك، ولا الدنيءَ فيجترئ عليك. وقيل: بذورُ العداوةِ المزاح.

والغلط أن يُتَّخذَ حِرفةً ثم يُتَمسَّك بما ورد فيه، مع أن الورادَ ليس فيه إلا القول بحقٍّ مع سلامته من الإيذاءِ والتَّروِيع، وأكثرُ تلك المطايَباتِ منقولةٌ مع الصبيان والنساءِ معالجةً لضَعفِ قلوبِهم من غيرِ مَيلٍ إلى هَزل، وقال ﷺ مرةً لصُهَيب وبه رمَد: «**أتأكلُ التمرَ وأنت رَمِد**»؟ قال: إنما آكلُ بالشقِّ الآخَرِ يا رسول الله، فتبسَّم[3]. وطلَعَ رسولُ اللهِ على خوَّاتِ بن جُبيرٍ وهو جالسٌ إلى نسوةٍ بطريقِ مكة فقال: **يا أبا عبدِ الله ما لكَ مع النسوة**؟ قال: يفتُلنَ ظَفيرًا لجملٍ لي شَرود، فمضى لحاجتِه ثم عاد، قال: **يا أبا عبدالله أما تركَ ذلكَ الجملُ الشُّرادَ بعدُ**؟ قال: فاستَحيَيتُ، وكنتُ بعد ذلك أتفَرَّرُ منه حتى لَحِقَني يومًا وهو على حمار وقد جعل رجلَيهِ في شِقٍّ واحد، قال: **يا أبا عبدِ الله أما**

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) وقال: حسن غريب، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥)، والبيهقي (١٠/٢٤٨)، والطبراني في الأوسط (٨٧٠٦)، وقال الهيثمي (٩/١٧): إسناده حسن.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٣٤) والحاكم (٥٧٠٣) ورجاله ثقات.



تركَ ذلك الجملُ الشُّراد بعد؟ فقلتُ: والذي بعثكَ بالحقِّ ما شردَ منذُ أسلَمت، فقال: الله أكبر الله أكبر، **اللَّهُمَّ اهدِ أبا عبدِ الله**، قال: فَحَسُنَ إسلامُه وهداهُ الله[1].

وكان نُعَيمانُ لا يدعُ طُرفةً تدخل المدينةَ إلا اشترى منها، ثم يجيءُ بها إلى النبي ﷺ يقول: قد اشتريته لك وأهديتُه لك، فإذا جاء صاحبُها يتقاضى الثمنَ جاء به إلى النبي ﷺ وقال: يا رسولَ اللهِ اعطِهِ ثمنَ متاعِه، فيقول له: **أوَلَم تُهدِهِ لنا؟** فيقول: يارسول الله إنه لم يكُن عندي ثمنُه وأحببتُ أن تأكلَ منه، فيضحك النبيُّ ﷺ ويأمُر لصاحبِهِ بثمَنِه، فهذه مُطَايَباتٌ على النُّدورِ لا الدوام. أخرجه الزبير بن بكار في الفكاهة وابن عبد البر.

❖ الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء:

وهذا مُحرَّم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١]، ومعناه: الاستهانةُ والتحقيرُ والتنبيهُ على العيوبِ والنقائص على وجهٍ يُضحَك منه، وقد يكون بالمُحاكاةِ في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء. قالت عائشة: حاكَيتُ إنسانًا فقال لي النبي ﷺ: «**والله ما أحبُّ أني حاكيتُ إنسانًا ولي كذا وكذا**»[2]، وقال النبي ﷺ: «**مَن عيَّرَ أخاهُ بذَنبٍ قد تاب منه لم يَمُت حتى يعملَه**»[3].

وهو راجعٌ إلى استحقارِ الغَيرِ والضحكِ عليه، ويَحرُم استِصغَارٌ يتأذَّى به

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٣٠٤)، والحاكم (٤٥١/٣) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وابن ماجه (٣٤٤٣)، والبيهقي (٣٤٤/٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي وصححه (٢٥٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥)، وقال: حسن.



المستَهزَأُ به بأن يضحكَ على كلامِه إذا تَخبَّطَ ولم ينتَظِم، أو على أفعالهِ كالضَّحكِ على خَطِّهِ وصَنعتِه، أو على صورته إذا كان قصيرًا أو ناقصًا لِعَيبٍ من العُيوب، وذلك منهيٌّ عنه.

❖ الآفة الثانية عشرة: إفشاء السرّ:

وفيه الإيذاءُ والتَّهاونُ بحقِّ المعارفِ والأصدقاء، قال النبي ﷺ: «**إذا حدَّثَ الرجلُ بحديثٍ ثم التَفتَ فهي أمانة**»(١) وفي رواية ابن أبي الدنيا «**الحديثُ بينكم أمانة**»(٢).

قال الحسن: إن من الخيانة أن تُحدِّثَ بسِرِّ أخيك، وهو حرامٌ إذا كان فيه إضرار، ولُؤمٌ إن لم يكن فيه إضرار.

❖ الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب:

واللسانُ سبَّاقٌ إليه، وربما لا تسمح النفسُ بالوفاء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقد أثنى اللهُ على نبيِّه إسماعيلَ فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤]، قيل: إنه وعدَ إنسانًا في موضِع فنَسيَ ذلك الإنسان، فبقيَ إسماعيلُ اثنَين وعشرين يومًا في انتظارِه.

ولما حضرت عبدَ الله بن عمر الوفاةُ قال: إنه كان خطبَ ابنتي رجلٌ من قريشٍ كان إليه مني شبهُ الوعد، فوَالله لا ألقى اللهَ بثلثِ النفاق، أشهدُكم أني قد زوَّجته ابنتي. وقد كان ﷺ جالسًا يَقسِمُ غنائمَ هوَازن، فوقف رجلٌ فقال:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي وحسنه (١٩٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٠٦)، والبيهقي (٢٤٧/١٠)، وقال الزبيدي في شرح الإحياء (٥٠٥/٧): «رواه مرسلًا وهو إسناد جيد».

إن لي عندَك موعدًا يا رسولَ الله، قال: صدقتَ فاحتكِم ما شئت، قال: أحتكمُ ثمانين ضائنةً وراعيَها، قال: هي لك، وقال احتكمتَ يسيرًا[١].

وإن كان عندَ الوعدِ عازمًا على ألَّا يَفِيَ فهو النِّفاق، قال ﷺ: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه فهو منافق وإن صامَ وصلَّى وزعمَ أنه مسلم: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعدَ أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان**»[٢] وفي خبر: **ليس الخُلفُ أن يَعِدَ الرجلُ وفي نيَّتِهِ أن يفِيَ**[٣].

❖ الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائحِ الذنوب. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يخطب: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول ـ ثم بكى ـ وقال: «**إياكم والكذبَ فإنه مع الفجورِ وهما في النار**»[٤]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**كَبُرَت خِيانةً أن تحدِّثَ أخاك حديثًا هو لك به مُصدِّق، وأنت له به كاذب**»[٥]. وقال ﷺ: «**لا يزال العبدُ يكذب حتى يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّابا**»[٦]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثلاثةٌ لا يكلمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهم: المنَّانُ بعَطيَّته،**

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه ابن حبان والحاكم في المستدرك من حديث أبي موسى مع اختلاف، قال الحاكم: صحيح الإسناد. وفيه نظر».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٩٥)، والترمذي (٢٦٣٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٧١٩)، وفي اليوم والليلة (١٧١٩) بسندٍ حسن. وأحمد (١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤)، والطبراني (١٩/٣٨٠، رقم ٨٩٤) وقال الهيثمي (١/٩٣): إسناده حسن.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٩٣)، وأبو داود (٤٩٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٢٠).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).



والمُنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذب، والمُسبِل إزارَه»[١]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم «ما حلفَ حالفٌ باللهِ فأدخلَ فيها مثلَ جناحِ بعوضةٍ إلا كانت نُكتَةً في قلبهِ إلى يومِ القيامة»[٢]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيتُ كأن رجلًا جاءني فقال لي: قم، فقمتُ معه، فإذا أنا برجلين أحدُهما قائمٌ والآخرُ جالس، وبيدِ القائمِ كلُّوبٌ من حديدٍ يقيمُه في شِدقِ الجالسِ فيجذِبُه حتى يبلغَ كاهلَه ثم يجذبُه فيُلقمه الجانبَ الآخر فيمدُّه فإذا مدَّه رجع الآخرُ كما كان، فقلت للذي أقامَني: ما هذا؟ فقال: هذا رجلٌ كذَّابٌ يُعذَّبُ في قبرِه إلى يومِ القيامة»[٣]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبدَ ليكذبُ الكذبةَ فيَتَباعدُ الملكُ عنه مسيرةَ مِيلٍ من نَتْنِ ما جاء به»[٤]. قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان مِن خُلُقٍ أشدَّ على أصحاب رسول الله من الكذب، ولقد كان ﷺ يطَّلِعُ على الرجلِ من أصحابِه على الكذِب فما ينجلي من صدرِهِ حتى يعلمَ أنه قد أحدثَ توبةً للهِ عز وجل منها[٥].

قال سيدنا علي بن أبي طالب رضيَ الله عنه وكرّم وجهَه: أعظمُ الخطايا عندَ الله اللسانُ الكذوب، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامة.

قال عمر بن عبد العزيز: ما كذبتُ كذبةً منذُ شَددتُ علَيَّ إزاري. وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: أحبُّكم إلينا ما لم نرَكُم أحسَنُكم اسمًا، فإذا رأيناكم أحسَنُكُم خُلُقًا، فإذا اختبَرناكُم أصدَقُكم حديثًا وأعظمُكُم أمانةً.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٢٠)، والحاكم وصحَّح إسناده (٣٢٩/٤)، وابن حبان (٥٥٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة.

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) وقال: حسن غريب.

(٥) أخرجه أحمد (٢٥١٨٣)، ورجاله ثقات. وبنحوه الترمذي (١٩٧٣) وقال: هذا حدث حسن.

❖ ما رُخِّصَ فيه من الكَذِبِ:

الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصدِ، فكل محمودٍ يُتَوَصَّلُ إليه بالصدقِ والكذبِ فالكذبُ فيه حرامٌ، فإن لم يُمكِن إلا بالكذبِ وكان تحصيلُ ذلك المقصَدِ واجبًا وجبَ، فعِصمةُ دمُ المسلمِ واجبة، فإن كان في الصدق سَفكُ دمِ مُختَفٍ من ظالمٍ فالكذبُ واجب. وإن كان لا يتم مقصود الحرب وإصلاحُ ذات البَينِ واستِمالةُ قلب المجنِيّ عليه إلا بالكذبِ فهو مباحٌ، إلا أنه ينبغي أن يُحتَرَز منه ما أمكن.

قالت أم كلثوم: ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يُرَخِّصُ في شيءٍ من الكذبِ إلا في ثلاث: الرجلُ يقول القولَ يريدُ بهِ الإصلاح، والرجلُ يقول القولَ في الحرب، والرجل يحدِّثُ امرأتَه، والمرأةُ تحدِّث زوجَها[1]. وفي الصحيحين: «**ليس بكذّابٍ من أصلحَ بين اثنينِ فقال خيرًا أو نَمَى خيرًا**»[2].

ومهما كانت الحاجةُ له فيُستحبُّ أن يتركَ أغراضَه ويَهجُرَ الكذِبَ، فإذا تعلَّقَ بغيرِه فلا تجوز المسامحةُ لِحَقِّ الغير، وأكثرُ كذبِ الناس لِحُظوظِ أنفسِهم، إما هو لِزيادات المالِ والجاهِ حتى إنّ المرأةَ لتحكي عن زوجِها ما تفخرُ به وتكذبُ، وذلك حرام، قالت أسماء: سمعتُ امرأةً سألَت رسولَ الله: إن لي ضَرَّة وإني أتكثَّرُ من زوجي بما لم يفعل أُضارُّها، فهل علي شيءٌ فيه؟ قال: «**المُتَشبِّعُ بما لم يُعطَ كلابِسِ ثوبَيْ زُور**»[3]. ويدخلُ في هذا فتوى العالِم

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٥).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٣)، ومسلم (٦٥٧٦).

(٣) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).



بما لا يتحقَّقُه، وروايتُه الحديث الذي لا يَتَثَبَّتُه، غرضُه إظهارُ فضلِ نفسِه، يستَنكِفُ من أن يقول: لا أدري.

ويلتحقُ بالنساءِ الصبيانُ إذا كان لا يُرَغِّبُ الصبيَّ في المكتبِ إلا وعدٌ أو وعيدٌ أو تخويفٌ كاذب.

وقد ظن ظانُّون أنه يجوز وضعُ الأحاديثِ في فضائلِ الأعمالِ والتشديدِ في المعاصي، وهو خطأٌ محض، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كذبَ عليَّ مُتعمِّدًا فليتَبوَّأْ مقعدَه مِن النار**»[1].

وفيما وردَ مِن الآياتِ والأخبارِ كفاية؛ والكذبُ على رسولِ الله مِن الكبائرِ التي لا يقاوِمُها شيء.

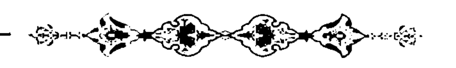
المعاريض:

نُقِلَ عن بعض السلفِ أن في المعاريض مندوحةً عن الكذب، وإنما أرادوا إذا اضطرَّ الإنسان، فإذا لم تكُن حاجةٌ فلا يجوز التعريض ولا التصريح، ولكن التعريضَ أهون. وكان إبراهيم إذا طلبه من لا يحبُّ أن يَخرج إليه قال للجارية: قولي له اطلبه في المسجد، ولا تقولي له ليس هاهنا، وهذا في موضعِ الحاجة، أما في غيرِ حاجةٍ فلا. قال عبد الله بن عتبة: دخلتُ مع أبي على عمر بن عبد العزيز فخرجتُ وعلَيَّ ثوب، فجعلَ الناسُ يقولون: هذا كَساكَهُ أميرُ المؤمنين؟ فكنتُ أقول: جزى اللهُ أميرَ المؤمنين خيرًا، فقال لي أبي: يا بنيَّ اتقِ الكذب وما أشبهَه، فنهاه لأن غرضَ المفاخرةِ باطل.

نعم، تباحُ المعاريضُ لغرضٍ خفيفٍ كقوله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) رواه البخاري (١١٠)، ومسلم (٤).



«زوجُكِ الذي بعينهِ بياضٌ»[1]، وقولهِ «نحمِلُك على ولدِ البعير»[2].

ومما يُعتادُ الكذبُ فيه ويُتساهلُ به أن يُقال: كُلِ الطعام، فيقول: لا أشتهيه، قالت أسماء بنت يزيد: كنتُ صاحبةَ عائشةَ في الليلةِ التي هيَّأْتُها وأدخلتها على رسولِ الله ﷺ، ومعي نسوة، قالت: فوالله ما وجدنا عنده قِرًى إلا قدحًا من لَبن، فشربَ ثم ناولَه عائشة، فاستحيَتْ، فقلتُ: لا تُردِّي يدَ رسولِ الله، فأخذَت منه على حياءٍ فشربَت منه، ثم قال: **ناولي صواحبَك**، فَقُلنَ: لا نشتهيه، فقال: **لا تجمَعنَ جُوعًا وكَذِبًا**[3]. وزاد أحمد: قالت: فقلتُ: يارسول الله إن قالت إحداهن لشيءٍ تشتهيهِ: لا أشتهيهِ أيُعَدُّ كَذِبًا؟ قال: «**إن الكذبَ ليُكتبُ كذبًا، حتى تُكتبَ الكُذَيبةُ كُذَيبة**»[4].

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعيدِ بن المُسيِّب تَرمِص، فيُقَال له: لو مَسحتَ عَينيك، فيقول: وأين قولُ الطبيبِ: لا تمس عينَيك؟ فأقول: لا أفعل، وهذه مراقبةُ أهلِ الورع.

والكذبُ في حكايةِ المنامِ الإثمُ فيه عظيم، قال ﷺ: «**إن مِن أعظمِ الفِرَى أن يدَّعيَ الرجلُ إلى غيرِ أبيه، أو يُرِيَ عينَيه في المنامِ ما لم تَرَيا، أو يقولَ عليَّ ما لم أقُل**»[5]. وفي رواية: «**مِن أفرَى الفِرى أن يُرِيَ عينَيه ما لم تَرَيا**»[6]،

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف».

(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١) وصححه.

(٣) رواه أحمد (٢٧٤٧١)، وابن ماجه (٣٢٩٨)، قال البوصيرى (١٥/٤): هذا إسناد حسن. والطبراني (٤٣٤)، قال الهيثمي (٥١/٤): إسناده حسن. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٢١).

(٤) رواه أحمد (٢٧٤٧١).

(٥) رواه البخاري (٣٥٠٩).

(٦) رواه البخاري (٧٠٤٣).

وقال ﷺ: «من كذبَ في حُلُمِهِ كُلِّفَ يومَ القيامةِ أن يعقدَ بين شعيرة»[1].

❖ **الآفة الخامسة عشرة: الغيبة:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلمِ حرام، دمُه ومالُه وعِرضُه**»[2]. والغِيبةُ تتناولُ العِرضَ، قال ﷺ: «**مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي على أقوامٍ يَخمِشُون وجوهَهم بأظافيرِهم، فقلت: يا جبريل مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتَابون الناسَ ويقعُونَ في أعراضِهم**»[3]، وقال البراء: خطَبنا رسولُ الله ﷺ حتى أسمعَ العواتِقَ في بيوتِهنَّ فقال: «**يا معشرَ من آمنَ بلسانه ولم يُؤمِن بِقلبِه لا تغتابوا المسلمين ولا تَتَّبِعُوا عوراتِهم، فإنه من تَتبَّعَ عورةَ أخيهِ تتبَّع اللهُ عورتَه، ومن تتبَّعَ اللهُ عورتَه يفضحه في جوفِ بيته**»[4]. ولما رجمَ رسولُ اللهِ ماعزًا، قال رجل لصاحبه: هذا أقعَصَ كما يَقعَصُ الكلب، فمرَّ ﷺ وهما معه بِجِيفة فقال: **انهَشا منها**، قالا: يا رسول الله: ننهشُ جيفةً!؟ فقال: **ما أَصَبتُما من أخيكُما أنتَنُ مِن هذه**[5]. وقيل: أوحى اللهُ إلى موسى عليه السلام: مَن ماتَ تائبًا مِن الغيبةِ فهو آخرُ مَن يدخلُ الجنة، ومَن ماتَ مُصِرًّا علَيها فهو أولُ مَن يدخل النار.

وقال الحسن: واللهِ لَلغيبةُ أسرعُ في دينِ الرجلِ المؤمن من الأكَلَةِ في

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٧٨).

(٤) رواه أبو داود بإسناد جيد (٤٨٨٠).

(٥) رواه أبو داود (٤٤٢٨)، والنسائي في الكبرى بإسناد جيد (٧٢٠٠).

الجسد. وقال بعضهم: أدرَكنا السلفَ وهم لا يرون العبادةَ في الصومِ ولا في الصلاة، ولكن في الكفِّ عن أعراضِ الناس. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أردتَ أن تذكرَ عيوبَ صاحبِك فاذكُر عيوبَك.

حدُّ الغِيبة:

حدُّ الغِيبةِ أن تذكرَ أخاكَ بما يكرهُه لو بلَغَه في بدنهِ أو نَسبِه أو خَلقِه أو خُلُقِه أو فِعلِه أو قولِه أو دينِهِ أو دنياه، حتى ثوبِه ودارِه ودابّتِه. قال ﷺ: «**هل تدرونَ ما الغِيبة؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **ذكرُكَ أخاكَ بما يَكرهُه**، قيل: أرأيتَ إن كان في أخِي ما أقولُه؟ قال: **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكُن فيه فقد بهتَّه**»(١).

والإشارة والإيماء والغَمز والهَمز والكتابة والحركة، وكلُّ ما يُفهِم المقصودَ داخلٌ في الغِيبةِ وهو حرام.

ومِن الغيبة: بعضُ من مرَّ بنا اليوم، أو بعضُ مَن رأيناه، إذا كان المخاطِب يفهَم شخصًا مُعيَّنا، فإذا لم يفهم عينَه جاز. ومن أخبثِ أنواعِها: غِيبةُ المرائين، يُظهرون من أنفسِهم التَّعفُّفَ، ويُفهِمون المقصود، يقولُ عند ذكرِ إنسان: الحمدُ للهِ الذي لم يَبتَلِنا بالدخولِ على السُّلطان والتبذُّل في طلبِ الحُطام، أو يقول: نعوذُ باللهِ من قِلَّةِ الحياء، نسأل اللهَ أن يعصمَنا منها، والقصدُ أن يُفهِم عيبَ الغَير. أو يقول: ما أحسنَ أحوالَ فلان ما كان يُقَصِّرُ ولكن اعتراهُ فتورٌ وابتُليَ بما يُبتَلى به كُلُّنا وهو قلَّةُ الصبر، فيكون مغتابًا ومُرائيًا ومُزَكِّيًا نفسَه كأنه المُتَشبِّه بالصالحين بذمِّ نفسِه.

ومنه أن يُذكرَ عيبُ إنسانٍ فلا يتنبَّهَ له بعضُ الحاضرين، فيقول: سبحانَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).



الله ما أعجبَ هذا! حتى يُصغَى إليه ويُعلَم ما يقول، ويقول: ساءني ما جرى على صديقِنا، من الاستِخفَافِ به كاذبًا في دعوى الاغتمامِ وإظهارِ الدعاء، ولو قصدَه لأخفاه في خَلوَتِه وعقيبَ صلاته.

ومنه الإصغاءُ إلى الغيبةِ على سبيلِ التعجُّب ليزِيدَ نشاطُ المُغتاب، ففيه تصديقٌ له، بل الساكتُ شريكٌ، وفي الحديث: «**مَن أُذِلَّ عندَه مُؤمِنٌ وهو قادرٌ على أن يَنصُره فلَم ينصُره أذلَّه اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائق**»[1]، وفيه أيضًا: «**مَن ردَّ عن عِرضِ أخيهِ بالغيبِ كان حقًّا على اللهِ أن يردَّ عن عِرضهِ النارَ يوم القِيامة**»[2]، وفي رواية عند الطبراني: «**ردَّ اللهُ عن وجههِ النارَ يومَ القِيامة**»[3].

البواعث على الغيبة:

يجمعُها أحدَ عشر، ثمانية تطَّرِد في حقِّ العامة، وثلاثة تختصُّ بأهلِ الدينِ والخاصة.

أما الأول: أن يشفيَ الغيظَ إذا هاجَ غضبُه، وقد يمتنع فيَحتقنُ الغضبُ فيصير حِقدًا فيَدفع لذكرِ المساوِي، فالحقدُ والغضبُ مِن البواعثِ العظيمةِ على الغيبة.

الثاني: موافقةُ الأقرانِ ومُجَاملةُ الرُّفقاء، إذ يتفكَّهون بذكرِ الأعراض، فيَرى أنه لو أنكرَ استثقلوه فيساعدهم، يرى أنه من حُسنِ المعاشرة.

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٨٥)، والطبراني (٥٥٥٤)، وقال الهيثمي (٧/٢٠٦): «وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات». وابن السني (٤٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥٤٣) والترمذي (١٩٣١). وابن أبي الدنيا في الصمت (٢٤١).

الثالث: أن يستَشعرَ من إنسانٍ أنه سيقصدُه ويطوِّلُ لسانَه عليه عندَ مُحتَشمٍ أو يشهَد عليهِ فَيُبادرُه ويطعنُ فيه ليُسقِطَ أثرَ شهادتِه، أو يبتدئَ بذكرِ ما فيه صادقًا ليكذبَ عليه فيما بعد فيروج كذبه بالصدق الأول.

الرابع: أن يُنسَبَ إلى شيءٍ فيريدُ أن يتبرَّأ منه فيذكرُ الذي فعلَه، وكان حقُّه أن يُبرِّئَ نفسَه ولا يذكُر من فعل. أو يذكر مشاركةَ غيره ليمهِّد عذرًا لنفسه.

الخامس: التَّصَنُّع والمباهاةُ بأن يرفعَ نفسَه بتَنقيصِ غيره، يقول: فلانٌ فَهمُه ركيكٌ وكلامُه ضعيف، لِيُثبتَ فضلَ نفسِه أو يَحذَر أن يُعَظَّمَ كتعظِيمِه.

السادس: الحسد، إذا رأى مَن يُثني عليه الناسُ ويكرِمُونه جعل السَّبيلَ إلى زوالِ ذلك القدحَ فيه، وهذا عينُ الحسد.

السابع: الهَزلُ والمُطايَبة، فيذكر العُيوبَ بما يُضحِكُ الناس، ومَنشَؤُه التكبُّرُ والعُجُب.

الثامن: السخريَة والاستهزاء.

وأما الثلاثة في الخاصة:

فالأول: أن تنبعثَ داعيةُ التعجبِ في إنكار المنكر، فيقول: ما أعجبَ ما رأيتُ من فلان! وقد يكونُ صادقًا وتعجُّبهُ مِن المُنكر، ولكن حقُّه أن يتعجبَ ولا يذكرَ اسمَه فيسهِّلَ الشيطانُ ذكرَ اسمِه في تعجُّبِه فصار مُغتابًا وآثِمًا.

الثاني: الرحمة، فيقول: مسكينٌ فلان قد غمَّني أمرُه وما ابتُلِيَ به، فيكونُ صادقًا في دعوى الاغتِمام ويلهُو عن الحذَرِ من ذكرِ اسمه، فيصيرُ مُغتابًا ساقَهُ الشيطانُ إلى شرٍّ من حيث لا يدري، والترحُّم والاغتمام ممكن دون ذكرِ الاسم.

الثالث: الغضبُ لله تعالى على منكرٍ قارفَه إنسانٌ فيُظهر غضبَه ويذكر اسمَه،

وكان الواجبُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر ولا يظهرُه على غيرِه، أو يسترُ اسمَه ولا يذكرُه بالسوء.

فهذه الثلاثةُ مما يغمُضُ دَرْكُها على العلماءِ فضلًا عنِ العوامّ.

عن عامرِ بن واثلةَ رضي الله عنه أن رجلًا مرَّ على قومٍ فسلَّمَ فردُّوا، فلما جاوزَهم قال رجل: إني لأبغضُ هذا في الله، فقالوا: بئس ما قلتَ لنُنبِئَنَّه، يا فلان قم فأدرِكهُ وأخبره، فأتى الرجلُ رسولَ الله وحكى له، فدعاه، فقال: قد قلتُ ذلك، فقال: لِمَ تبغضُه؟ قال: أنا جاره والله ما رأيتُه يصلي صلاةً قط إلا هذه المكتوبة، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتُها عن وقتِها أو أسأتُ الوضوءَ لها أو الركوعَ أو السجود؟ فسأله فقال: لا، فقال: واللهِ ما رأيتهُ يصومُ شهرًا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البَرُّ والفاجر، قال: فاسأله هل رآني قط أفطَرتُ فيه أو نقصتُ مِن حقه شيئًا؟ فسألَه فقال: لا، فقال: ما رأيتهُ يعطي سائلًا ولا مسكينًا قط ولا رأيته ينفقُ في سبيلِ الله إلا هذه الزكاة، قال: فاسألهُ هل رآني نَقَصتُ منها أو ماكستُ طالبَها؟ فسأله فقال: لا، فقال ﷺ للرجل: **قم فلَعلَّه خيرٌ منك**(١).

العلاج:

تُعالَجُ المساوي بمعجون العلمِ والعمل، وعلاجُ كفِّ اللسان عن الغيبة على وجهين: على الجملة وعلى التفصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلمَ تعرُّضهُ لسخطِ الله، وأنها مُحبِطةٌ لحسناتِه، وأنه مُشبَّهٌ عند اللهِ بآكلِ المَيتة، وربما تُنقَل إليه سيئةٌ واحدة ممّن اغتابه فيحصلُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٣) بإسناد صحيح، وقال في مجمع الزوائد (١/٣٦٢): «رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال أحمد ثقات أثبات».

بها رُجحانُ كفَّةِ السيئات. رُويَ أن رجلًا قال للحسن: بلغَني أنك تغتابُني، فقال: ما بلغَ من قدرِكَ عندي أني أحكِّمُك في حسناتي.

وليتدبَّرْ في نفسِه فإن وجدَ فيها عيبًا اشتغلَ به واستحيا أن يتركَ ذمَّ نفسِه ويذمُّ غيرَه، فعجزُ غيرِه في التنزُّهِ كعجزِه إن كان أمرًا يتعلقُ بفعلِه واختياره، وإن كان خلقيًّا فالذمُّ له ذمُّ الخالق، قيل لحكيم: يا قبيحَ الوجه، قال: ما كان خَلقُ وجهي إليَّ فأُحسِّنَه.

وإذا لم يجدِ العبدُ عيبًا في نفسه فليَشكرِ اللهَ تعالى ولا يُلوِّثنَّ نفسَه بأعظمِ العيوب وهو ثَلبُ الناس، بل لو أنصفَ علِمَ أن ظنَّه أنه بريءٌ مِن كلِّ عيب جهلٌ، وهو من أعظمِ العيوب، وليعلَمْ أن تألُّمَ غيرِه بغيبَتِهِ كتألُّمِهِ بغيبةِ غيره له.

أما على التفصيل: فليقطعِ السببَ الباعثَ له. فأما الغضبُ فيُعالجُه بِخَوفِ أن يُمضيَ اللهُ غضبَه عليهِ باجترائه على نهيِه، قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «مَن كظمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفِذَه دعاه الله تعالى يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ حتى يخيِّره في أيِّ الحورِ شاء»[1].

وأما الموافقةُ فبأنْ يعلمَ غضبَ الله عليهِ إذا تركَ سخطَه في رضا المخلوقين، بل ينبغي أن يغضبَ لله على رفقائه إذا ذكروا أحدًا بالسُّوء. وأما تنزيهُ النفسِ بنسبةِ الغيرِ إلى الخيانةِ فيُعالجهُ بأن يعرفَ أن التعرضَ لمقتِ الخالقِ أشدُّ مِن التعرُّضِ لمقتِ المخلوقين، فهو متعرِّضٌ لسخطِ الله يقينًا ولا يدري التخلص من سَخطِ الناس، فيُخلِّص نفسَه في الدنيا بالتوهُّم ويهلِكُ في الآخرةِ بالحقيقة ويُذمُّ من قِبل الله نقدًا، وينتظر دَفعَ ذمِّ الخلقِ نسيئةً، وهذا غايةُ الجهلِ والخِذلان.

وأما قَصدُ المباهاةِ بزيادةِ الفضلِ فليعلَمْ أنه بما يذكرُ يُبطِلُ فضلَه عندَ

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي وحسَّنه (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦).



الله، وربما نقصَ اعتقادُ الناسِ فيه إذا عرفوه بالثَّلب، فقد باع ما عند الخالقِ يقينًا بما عند المخلوقين وهمًا، ولو اعتقدوا فيه فضلًا لم يُغنوا عنه من الله شيئًا.

وأما الحسدُ فجمعٌ بين عذابين إذ كان في الدنيا مُعذَّبًا بالحسد، فما قنعَ حتى أضافَ إليه عذابَ الآخرة، فجمعَ بين النَّكالَين، قصدَ محسودَه فأهدى إليه حسناتِه وأصابَ نفسَه، فهو صديقُ المحسودِ وعدوُّ نفسِه، وقد يكونُ حسدُه سببَ انتشارِ فضلِ المحسود.

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِيَت أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

وإما الاستهزاء فمقصوده إخزاء غيره عند الناس بإخزاءِ نفسِه عندَ الله والملائكةِ والنبيِّين، فلو تفكَّر في حسرتِه وخَجلتهِ يومَ القيامةِ عند حَملِ سيئاتِ مَن استهزأ به إليه لأدهشَه ذلك، وكان أولى أن يضحكَ من نفسِه إذ سخرَ عندَ نفرٍ قليلٍ وعرَّضَ نفسَه لأن يُخزَى على ملأ من الناس.

وأما الرحمةُ فَحسنٌ، ولكن بِتعرُّضِكَ لنقلِ حسناتِك إلى حسناتِه تكونُ أحقَّ بالرحمةِ إذ حبط أجرُك ونقصت حسناتُك.

وأما التعجبُ إذا أخرجكَ إلى الغيبةِ فيجبُ أن تعجبَ مِن نفسِكَ كيف أهلكتَها ودينَك بدينِ غيرِك أو بدنياه، فعلاجُ جميعِ ذلك المعرفة، والتحقُّقُ بها من الإيمانِ، فمن قويَ إيمانُه انكفَّ عن الغيبة.

تحريم الغيبة بالقلب:

اعلم أن سوءَ الظنِّ حرامٌ مثل سوءِ القول، وأعني به عقدَ القلبِ وحُكمَه على الغيرِ بالسوء، فأما الخواطرُ وحديثُ النفسِ فَمعفوٌّ عنه، ولكن المنهي عنه هو الظن، وهو عبارة عما تركنُ إليه النفس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وأسرارُ القلوبِ لا

يعلمُها إلا الله، فليس لك أن تعتقدَ سوءًا في غيرِك إلا ما انكشفَ بعيانٍ لا يقبلُ التأويل، فلا يجوزُ تصديقُ إبليس وما يُلقيهِ مِن الخيال، وفي الحديث: «إن اللهَ حرَّمَ مِن المسلمِ دمَه ومالَه وأن يُظنَّ به ظنَّ السوء»[1].

وأمارة سوءِ الظن تغيُّرُ القلبِ عما كان فينفرُ ويستثقلُ ويفتُر عن المراعاةِ والإكرام.

والمخرَجُ من سوءِ الظن ألَّا يحقِّقَه بعقدٍ ولا فِعل، ومهما خطرَ لك خاطرٌ بسوءٍ على مسلمٍ فينبغي أن تزيدَ في مراعاتِه وتدعوَ له بالخيرِ، فذلك يغيظُ الشيطانَ ويدفعُه خيفةً من اشتغالِك بالدعاءِ والمراعاة، وانصَح في السرِّ ولا تغتَب، وإذا وعظتَ فلا تعِظ وأنت مسرورٌ باطِّلاعك على نقصه، وليكُن قصدُك تخليصَه وأنت حزينٌ كما تحزنُ على نفسك، وليكُن تركهُ مِن غيرِ نُصحك أحبَّ إليك، فإذا فعلتَ جمعتَ بين أجرِ الوعظِ وأجرِ الغمِّ بمصيبتِه والإعانةِ له على دينِه. ويثمرُ سوءُ الظن التجسُّسَ وهو منهيٌّ عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

الأعذار المرخِّصة للغيبة: هي ستة أمور:

الأول: التظلُّم، قال ﷺ: «إن لصاحبِ الحقِّ مقالًا»[2]، وقال: «مَطلُ الغنيِّ ظُلم»[3]، وقال ﷺ: «لَيُّ الواجدِ يُحِلُّ عِرضَه وعقوبتَه»[4].

الثاني: الاستعانةُ على تغييرِ المنكر وردِّ العاصي إلى الصلاح. مرَّ بعضُ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٤٣١)، وأبو نعيم (٢٩٢/٩)، وأخرجه ابن ماجه بنحوه (٣٩٣٢) قال البوصيري (١٦٤/٤): هذا إسناد فيه مقال.

(٢) رواه البخاري (٢٣٩٠)، ومسلم (١٦٠١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٠٠)، ومسلم (١٥٦٤).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٦٨٩)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، بإسناد صحيح.

الصحابةِ على أحدِهم فلم يردّ السلام، فذهبَ إلى أبي بكر فأخبره، فجاء ليُصلح، ولم يكُن ذلك غيبة. ولما بلغَ عمر أن أبا جندلٍ عاقرَ الخمرَ كتبَ إليه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر] فتاب، ولم يرَ عمرُ ممَّن أبلَغه غيبة.

الثالث: الاستفتاء، والأسلم التعريضُ وأن يقولَ ما قولُك في رجلٍ ظلمَه أبوه أو أخوه. قالت هند بنت عُتبة للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفِيني، أفآخذُ من غير علمِه؟ فقال: «**خُذِي ما يكفيكِ وولدَكِ بالمعروف**»[1].

الرابع: تحذيرُ المسلمِ مِن الشرِّ، إذا رأيتَ أنه يتردَّد إلى مبتدعٍ أو فاسقٍ وخِفتَ أن تتعدَّى إليه فلك أن تكشفَ له مهما كان الباعثُ الخوف عليه من سِرايةِ البدعةِ والفسق.

الخامس: أن يكون معروفًا بِلَقَبٍ كالأعرجِ والأعمش، نعم إن وجدَ معدِلًا وأمكنَه التعريفُ بعبارةٍ أخرى فهو أولى.

السادس: أن يكون مُجاهِرًا بالفسقِ يتظاهرُ به، قال عمر: ليس لفاجرٍ حُرمة. أرادَ به المجاهر.

كفارة الغيبة:

الواجب على المغتابِ أن يندمَ ويتأسَّفَ، ثم يستحلُّ المغتابَ وهو حزينٌ متأسِّفٌ، إذ المرائي قد يستَحِلُّ ليُظهرَ الورعَ وفي الباطنِ لا يكونُ نادمًا. قال مجاهد: كفارةُ أكلِكَ لحم أخيك أن تُثنيَ عليه وتدعو له بخير. وسُئل عطاءٌ عن

(١) رواه البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤).

التوبةِ من الغيبة قال: أن تمشيَ إلى صاحبِك فتقول: كذبتُ فيما قلتُ وظلمتُك وأسأتُ، فإن شئتَ أخذتَ بحقِّكَ وإن شئتَ عفَوت. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كانت عنده لأخيهِ مَظْلَمَةٌ في عِرضٍ أو مالٍ فليَستحلَّه وليَتحَلَّله مِن قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا دينارَ فيهِ ولا درهم**»[1]، فلا بد من الاستحلالِ إن قدَرَ عليه، وإن كان غائبًا أو ميتًا فليُكثِر له الاستغفارَ والدعاء، والتَّحليل تبرُّعٌ وهو فضلٌ مُستَحسَنٌ، فإن لم يَطِب قلبُه كان الاعتذارُ والتَّودُّد حسنةً يقابلُ سيئةَ الغيبة.

فإن قلتَ: ما معنى قولِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيعجِزُ أحدُكم أن يكونَ كأبي ضَمضَم؟ كان إذا خرجَ من بيتِه قال: اللّٰهُمَّ إني تصدَّقتُ بِعِرضِي على الناس**»[2]، فمعناه أني لا أطلبُ مظلمةً في القيامةِ منه ولا أخاصمُه.

قال الحسن: إذا جثَتِ الأممُ بين يديِ الله عز وجل نودُوا: لِيقُمْ مَن كانَ أجرُه على الله، فلا يقومُ إلا العافونَ عن الناس. قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وعن الحسنِ أن رجلًا قال له: إن فُلانًا قد اغتابَك فبعثَ إليه رُطبًا على طَبق وقال: بَلغَني أنك أهديتَ إليَّ مِن حسناتِك فأردتُ أن أكافئَك، فاعذُرني فإني لا أقدر أن أكافئَكَ على التمام.

❖ الآفة السادسة عشرة: النميمة:

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٣]، قال ابن المبارك: الزَّنيم ولدُ الزنى الذي لا يكتمُ الحديثَ، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة]، قيل

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٠٨٣)، والضياء (١٧٧٠) وقال: رجاله موثقون. والصحيح أنه مرسل.



الهُمزة: النمَّام. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يدخلُ الجنةَ نمَّام**»[1] وفي رواية «**قتَّات**»[2]. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا أخبرُكُم بِشِرارِكُم**» قالوا: بلى، قال: «**المشَّاؤونَ بالنميمة، المفسدون بين الأحبَّة، الباغون للبُرَآءِ العيبَ**»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من أشاعَ على مسلمٍ كلمةً ليَشينَه بها بغيرِ حقٍّ شانَهُ الله بها في النارِ يومَ القيامة**»[4] وفي روايةٍ «**أيُّما رجلٍ أشاعَ على رجلٍ كلمةً هو منها بريء ليَشينَه بها في الدنيا كان حقًّا على الله أن يذيبَه بها يومَ القيامةِ في النار**»[5].

حد النميمة:

يُطلَق في الأكثرِ على من ينمُّ قولَ الغيرِ إلى المقولِ فيه، وحدُّها: كشفُ ما يُكرهُ كشفُه سواءٌ كرِهه المنقولُ عنه أو المنقول إليه، أو ثالثٌ، سواء كان الكشفُ بالقولِ أو بالكتابةِ أو بالرمزِ أو بالإيماء، فحقيقةُ النميمة: إفشاءُ السرِّ وهَتكُ السترِ عما يُكرهُ كشفُه.

---

(١) رواه مسلم (١٠٥/١٦٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥/١٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩) قال الهيثمي (٩٣/٨): «فيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح». وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة (١١٩). وعبد بن حميد (١٥٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، والطبراني (١٦٧/٢٤، رقم ٤٢٣).

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٥٨) والطبراني في مكارم الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث»، وأخرجه الحاكم (٣٥٣/٤) وقال: صحيح الإسناد. وضعفه الذهبي، وقال المناوي في الفيض (٦٣/٦): «رواه عنه الحاكم وصححه وضعفه الذهبي بأن سنده مظلم، وبه يعرف ما في رمز المصنف [السيوطي] لحسنه».

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه ابن أبي الدنيا موقوفًا على أبي الدرداء، والطبراني بلفظ آخر مرفوعًا من حديثه».

وكلُّ من حُمِلت إليه النميمةُ وجبَت عليه ستةُ أمور:

الأول: ألَّا يُصدِّقَه لأن النمَّامَ فاسقٌ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن ينهاهُ عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أن يبغضَ فعلَه ذلك في الله تعالى.

الرابع: ألَّا يظنَّ بالغائبِ السوء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

الخامس: ألَّا يحملَه على التجسُّس.

السادس: ألَّا ترضَى لنفسِكَ ما نهيتَ النمَّام عنه، ولا تحكِيَ نميمَته فتقول: حكى لي كذا وكذا، فتكون نمَّامًا ومُغتَابًا.

عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل عليهِ رجلٌ فذكرَ له عن رجلٍ شيئًا فقال: إن شئتَ نظرنا في أمرِك فإن كنتُ كاذبًا فأنت مِن أهلِ هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنتَ صادقًا فأنت مِن أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾ [القلم]، وإن شئتَ عفَونا عنك، فقال: العفوَ يا أميرَ المؤمنين لا أعود إليهِ أبدًا.

وقال الحسن: من نَمَّ إليكَ نَمَّ عليك. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يدخلِ الجنةَ قاطع**» قيل: وما القاطع؟ قال: «**قاطعٌ بين الناس**»[1]، وهو النمام، وقيل: قاطع الرحم.

وعن علي رضي الله عنه أن رجلًا سعى إليهِ برجلٍ فقال: يا هذا نحن نسألُ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

عما قلتَ، فإن كنتَ صادقًا مَقَتناك، وإن كنتَ كاذبًا عاقبناك، وإن شئتَ أن أقيلَكَ أقَلناك، قال: أقِلني يا أميرَ المؤمنين. وقيل لمحمد بن كعبِ القُرظِي أيُّ خصالِ المؤمنِ أوضع له؟ قال: كثرةُ الكلام، وإفشاءُ السر، وقبولُ قولِ كلِّ أحد.

وشرُّ النمامِ عظيمٌ، قال حماد بن سَلمة: باع رجلٌ عبدًا وقال للمشتري: ما فيه عيبٌ إلا النميمة، قال: رضيتُ، فاشتراه، فمكثَ الغلامُ أيامًا ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدي لا يحبُّكِ وهو يريدُ أن يتسرَّى عليكِ، فَخُذِي الموسى واحلقِي مِن شعرِ قفاهُ عندَ نومِهِ شعراتٍ حتى أسحرَه عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتَكَ اتخذَت خليلًا وتريدُ أن تقتلَك، فَتناوَمْ لها حتى تَعرِفَ ذلك، فتناومَ لها فجاءت المرأةُ بالموسى فظنَّ أنها تريدُ قتلَه فقامَ فَقَتلَها، فجاءَ أهلُ المرأةِ فقَتلُوا الزوج، فوقعَ القتالُ بين القبيلتين.

❖ **الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين:**

يتردَّدُ بين المتعادِيَينِ ويكلِّم كلَّ واحدٍ بما يوافِقُه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان مِن نارٍ يومَ القيامة**»(١)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**تجدونَ مِن شرِّ عبادِ الله يومَ القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديثٍ وهؤلاء بحديث**»(٢).

وإذا دخلَ على مُتعاديَين وجامَلَ كلَّ واحدٍ وكان صادقًا لم يكن مُنافقًا ولا ذا لسانين، نعم، لو نقلَ كلامَ كلِّ واحدٍ إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرٌّ من النميمة، إذ يصيرُ نمَّامًا بنقلٍ مِن أحدِ الجانبَينِ فإذا نقلَ منهما فهو شرٌّ مِن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدبِ المفرد (١٣١٠)، وأبو داود بسندٍ حسَن (٤٨٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٢٨٢)، وابن أبي شيبة (٢٥٤٦٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦).

النمَّام، وإن لم ينقُل كلامًا ولكن حسَّنَ لكلٍّ واحدٍ ما هو عليه من مُعاداةِ صاحبِه فهو ذو لسانين، وكذا إذا وعدَ كلَّ واحدٍ بأن ينصرَه، وكذا إذا أثنى على واحدٍ في مُعاداتِه، وكذلك إذا أثنى على أحدِهما وإذا خرجَ من عنده يذمُّه، بل ينبغي أن يسكتَ أو يثنيَ على المحقِّ مِن المُتعادِيَينِ في غَيبَتِه وحضورِه وبين يدَي عدُوِّه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنّا ندخلُ على أُمرائنا فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيرَه، فقال: كنا نَعُدُّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ. وهذا نفاقٌ مهما كان مستغنيًا عن الدخول على الأمير، فأما إذا ابتلي به لضرورة وخاف إن لم يثنِ فهو معذور، فإنّ اتقاءَ الشرِّ جائز، قال ﷺ: «**إن شرَّ الناس الذي يُكرَم اتِّقاءَ شرِّه**»[1]. ولا يجوز الثناء لغير ضرورة، ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرضِ التقرير على كلام باطل، بل ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

❖ الآفة الثامنة عشرة: المدح:

أما الذمُّ فهو الغيبةُ والوَقيعة. والمدحُ يدخُله ستُّ آفات: أربعٌ في المادح:

الأولى: أنه قد يُفرِط فيكذب.

الثانية: قد يدخله الرياء، فإن لم يكُن معتقدًا لجميعِ ما يقول صار مُرائيًا مُنافقًا.

الثالثة: قد يقول ما لا يتحقَّقه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن كان أحدُكم لا بد مادحًا أخاه فليقُل: أحسِبُ فلانًا ولا أزكِّي على اللهِ أحدا، حسيبُه**

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) بلفظ: «مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ».



اللهُ إن كان يرى أنه كذلك»[١]، وهذا في المدح بالأوصافِ المطلقةِ كمُتَّقٍ ووَرِعٍ وزاهدٍ وخيِّر، فأمَّا رأيتُه يصلي بالليلِ ويتصدَّقُ ويحجُّ فهي مُستَيقَنة.

الرابعة: قد يُفرِّحُ الممدوحَ وهو ظالمٌ أو فاسق. قال الحسن: مَن دعا لظالمٍ بطولِ البقاءِ فقد أحبَّ أن يُعصَى اللهُ في أرضِه.

واثنتانِ في حقِّ الممدوح:

أحدهما: أنه يُحدِثُ فيه كِبرًا وإعجابًا وهما مُهلكان، قال الحسن: كان عمر رضي الله عنه جالسًا ومعه الدُّرةُ والناسُ حولَه إذ أقبلَ الجارُودُ بن المنذر، فقال رجل: هذا سيدُ ربيعة، فسمعها عمر ومن حولَه والجارود، فلما دنا منه خَفَقَهُ بالدِّرةِ قال: ما لي ولك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: أما سمعتَها؟ قال: فمَه؟ قال: خشيتُ أن يخالطَ قلبَك منها شيءٌ فأحببتُ أن أطَأطِئَ منك.

الثانية: إذا أُثنيَ عليه بالخيرِ فرحَ وفترَ ورضيَ عن نفسِه، قال مطرِّف: ما سمعتُ قط ثناءً ولا مِدحةً إلا تصاغَرَت إليَّ نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحدٌ يسمع ثناءً عليه أو مدحةً إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمنَ يُراجِع. قال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما ما ذكره زيادٌ فقلبُ العوام، وما ذكره مِطرِّف فقلبُ الخواص.

فإن سلمَ المدحُ مِن هذه الآفاتِ بحقِّ المادحِ والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوبًا إليه، ولذلك أثنى رسولُ الله على الصحابة، وقد قال عن صدقٍ وبصيرةٍ. وكانوا أجلَّ رُتبةً مِن أن يوَرِّثهم ذلك كِبرًا وعُجبًا وفُتورًا.

وعلى الممدوحِ أن يكونَ شديدَ الاحترازِ عن آفةِ الكِبرِ والعجبِ والفُتور، وإنما ينجو منه بأن يعرِفَ نفسَه ويتأمَّلَ خطرَ الخاتمةِ ودقائقَ الرياء وآفاتِ

(١) رواه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).

الأعمال. قال سفيان بن عُيَيْنَة: لا يضرُّ المدحُ مَن عرفَ نفسَه. وأُثنِيَ على رجلٍ من الصالحين فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفونَني وأنت تعرفني.

❖ الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ:

لا سيَما فيما يتعلقُ باللهِ وصفاتِه ويرتبطُ بأمورِ الدين، فمن قَصُرَ في علمٍ أو فصاحةٍ لم يخلُ عن الزلل. قال إبراهيم: إذا قال الرجلُ للرجلِ: يا حمار يا خنزير، قيل له يومَ القيامة: حمارًا رأيتَني خلقتَه؟ خِنزيرًا رأيتَني خلقته؟ وقال عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إن اللهَ تعالى ينهاكُم أن تحلفُوا بآبائِكم، مَن كان حالفًا فليَحلف باللهِ أو لِيَصمُت»** قال: فوَالله ما حلفتُ بها منذُ سمعتُها[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تسمُّوا العنبَ كرمًا، إنما الكرمُ الرجلُ المسلم»**[2]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يقولنَّ أحدُكم: عبدي ولا أمَتي، كلُّكم عبيدُ الله وكلُّ نسائكُم إماءُ الله، وليقُل: غلامِي وجاريتي وفتَايَ وفتاتي»**[3]، ولا يقول المملوكُ: ربي ولا ربَّتي وليقُل: سيدي وسيدتي، فكلُّكم عبيدُ الله والرب الله سبحانه وتعالى، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا تقولوا للمنافقِ: سيدَنا فإنه إن يكُ سيدَكم فقد أسخَطتُم ربَّكم»**[4].

❖ الآفة العشرون:

سؤالُ العوامِ عن صفاتِ الله وكلامِه، والحروف وأنها قديمةٌ أو محدَثة،

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٨).

(٤) أخرجه أبو داود بسندٍ صحيح (٤٩٧٧).



ومن حقِّهم الاشتغال بالعملِ بما في القرآن، إلا أنه ثقيلٌ والفضولُ خفيف، والعامي يفرحُ بالخَوضِ في العلم إذ الشيطانُ يُخيِّلُ إليه أنكَ مِن العلماءِ وأهلِ الفضل، حتى يتكلمَ في العلمِ بما هو كُفرٌ وهو لا يدري.

وإنما شأنُ العوام الاشتغالُ بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليمُ لما جاء به الرسلُ مِن غير بحث، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذَروني ما تَركتُكم، فإنما هلكَ مَن كان قبلَكم بِكَثرةِ سُؤالهم واختلافِهم على أنبيائهم، ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتُكم به فائْتُوا منه ما استطعتم**»[1]. وفي الحديث: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمَ عن القيلِ والقال، وإضاعةِ المال، وكثرةِ السؤال[2].

فسؤالُ العوام عن غوامضِ الدينِ من أعظمِ الآفاتِ المثيراتِ للفتَن. والله أعلم.

** ** **

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله يتَّكلُ على عفوِه ورحمتهِ الراجون، ويحذرُ سوءَ غضبِه وسَطوتهِ الخائفون، سلَّطَ على عباده الشهواتِ وأمرَهم بِتَركِ ما يشتهون، وابتلاهم بالغضبِ وكلَّفَهم كظمَ الغيظِ فيما يَغضبُون. والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ رسولِه الذي يسيرُ تحتَ لوائهِ النبيُّون، وعلى آله وأصحابه صلاةً يُوازِي عددُها عددَ ما كان مِن خلقِ اللهِ وما سيكون، ويحظى ببركتِها الأولون والآخِرون، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فإن الغضبَ شُعلةُ نارٍ مُستَكِنَّةٌ في طيِّ الفؤاد، يستخرجُها الكِبرُ الدفينُ كاستخراجِ الحجرِ النارَ مِن الحديد، فمنِ استفزَّتهُ نارُ الغضبِ قَويَت فيه قرابةُ الشيطان، ومِن نتائجِ الغضبِ الحقدُ والحسدُ، وبهما هلكَ مَن هَلكَ وفَسدَ مَن فَسد.

❖ بيان ذم الغضب:

قال الله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ذمَّ الكفارَ بما تظاهروا به مِن الحميّةِ الصادرةِ عن الغضبِ بالباطل، ومدحَ المؤمنينَ بما أنزلَ عليهم مِن السكينة، وعن أبي هريرة أن رجلًا قال: يا رسولَ الله مُرنِي بِعملٍ

وأقلِل قال: «**لا تَغضَب**» ثم أعادَ عليه فقال «**لا تغضب**»[(١)]. وعن ابن عمر قال: قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قل لي قولًا وأقلِلهُ لعلِّي أعقلُه، قال: «**لا تغضب**» فأعَدتُ عليه مرتين كل ذلك يُرجعُ إليَّ «**لا تغضب**»[(٢)]. وعن عبد الله بن عمرو أنه سأل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما ينقذُني مِن غضبِ الله؟ قال: «**لا تغضب**»[(٣)]. وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «**ما تعُدُّونَ الصُّرَعةَ فيكم؟**» قلنا: الذي لا تَصرعه الرجال، قال: «**ليس ذلك، لكنِ الذي يملكُ نفسَه عندَ الغضب**»[(٤)]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس الشديدُ بالصُّرَعَة، وإنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب**»[(٥)]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن كفَّ غضبَه سترَ اللهُ عورَته**»[(٦)]، وقال سليمان بن داود عليهما السلام: يا بُنيَّ إياك وكثرةَ الغضبِ فإنَّ كثرتَه تستخفُّ فؤادَ الرجلِ الحليم.

الآثار: قال الحسن: يا ابنَ آدم كلَّما غضبتَ وَثَبتَ ويوشك أن تثبَ وثبةً فتقع في النار. وعن ذي القرنين: لا تغضب فإن الشيطانَ أقدرُ ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فَرُدَّ الغضبَ بالكظم، وسَكِّنه بالتَّؤدة. وقال جعفر بن محمد: الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ. وقال بعض الأنصار: رأس الحُمق الحدَّة

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦).

(٢) رواه أحمد (١٥٩٦٤)، وابن حبان (٥٦٩٠)، وأبو يعلى بإسناد حسن (٥٦٨٥).

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه الطبراني وابن عبد البر بإسنادٍ حسن». وأحمد (٦٦٣٥)، البيهقي في الشعب (٨٢٨١).

(٤) رواه مسلم (٢٦٠٨).

(٥) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٣٦)، وقال الهيثمي (١٢١/٨): «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سُكين بن سراج وهو ضعيف».



وقائدُه الغضب، والسكوتُ عن جوابِ الأحمَقِ جوابه. وقيل لحكيم: ما أملَكَ فلانًا لنفسِه! قال: إذن لا تذلُّه الشهوةُ ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب. وقيل: إن الغضبَ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصبرُ العسل.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: انظروا إلى حِلمِ الرجل عند غضبِه، وأمانتِهِ عند طَمَعِه، وما علمُك بِحلمِه إذا لم يغضب؟ وما علمُك بأمانتِهِ إذا لم يطمع؟ قال علي بن زيد: أغلَظَ رجلٌ من قريشٍ لعُمرِ بن عبدِ العزيزِ القولَ فأطرقَ زمانًا طويلًا، ثم قال: أردتَ أن يستفزَّني الشيطانُ بعزِّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تنالُه مني غَدا؟ وكان عمر رضي الله عنه إذا خطبَ قال في خطبته: أفلحَ منكم من حُفظَ مِن الطمعِ والهوى والغضب. وقال وهبُ بن منبِّه: للكفرِ أربعةُ أركان: الغضب والشهوة والخرق والطمع.

❖ حقيقة الغضب:

لمَّا خلق الله الحيَوانَ معرَّضًا للفسادِ والموَتان بأسبابٍ في داخلِه احتاجَ إلى الغِذاء، فخلقه له وخلقَ فيه الشهوةَ تبعثهُ على تناولِه، وخارجةٍ عنه يتعرَّض لها كالسيفِ والسِّنانِ وسائر المهلكات، فخلق له طبيعةَ الغضب، فمهما صُدَّ عن غرضٍ اشتعلَت نارُ الغضب، فقوّةُ الغضبِ محلُّها القلب لغليانِ دمهِ بطلبِ الانتقام تتوجَّهُ إلى دفعِ المؤذياتِ قبل وقوعِها وإلى التشفِّي بعد وقوعها، ثم إن الناسَ في القوةِ على درجاتٍ ثلاثٍ من التفريطِ والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فبِفقدِ هذه القوةِ وذلك مذمومٌ ويُقال فيه: لا حميَّة له، قال الشافعي رحمه الله: مَنْ اسْتُغْضِبَ فلم يَغضَبْ فهو حمار. وقد وصفَ الله سبحانه أصحابَ النبي فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال لنبيّه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

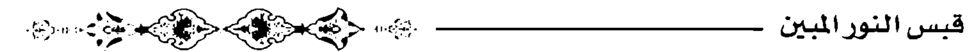
وأمّا الإفراط: فأن تغلبَ فتخرجَ عن سياسةِ العقلِ والدين ولا يبقى معها بصيرةٌ ونظر، وغلبتهُ بأمورٍ غريزية أو اعتيادية كأن يخالطَ قومًا يتبجَّحون بِتَشفِّي الغيظِ ويسمونه شجاعةً ورجولية، يقول أحدهم: أنا لا أصبر على المَكرِ ولا أحتملُ مِن أحدٍ أمرًا، ومعناه لا عقلَ فيَّ ولا حلم، ويذكره في معرضِ الفخرِ بجهلِه. فمَن سمعه رسخَ في نفسِه حُسنُ الغضبِ فيقوى غضبُه، وعند اشتداده يعمى صاحبُه ويُصَمّ عن كل موعظة وينطفئ نورُ العقل، وربما يتعدَّى إلى معادنِ الحسِّ فتُظلِم عينه وتسودُّ عليه الدنيا. فالسفينةُ في مُلتطمِ الأمواجِ عند اضطرابِ الرياحِ في لجَّةِ البحرِ أحسنُ حالًا وأرجى سلامةً مِن النفسِ المضطربةِ غيظًا.

ومن آثاره تغيُّر اللونِ وشدةُ الرِّعدةِ وخروجُ الأفعالِ عن الترتيبِ واضطرابِ الحركةِ والكلام وتحمُّر الأحداق، ولو رأى الغضبان قبحَ صُورته لسكنَ حياءً، وقُبحُ باطنهِ أعظم.

وأثره في اللسانِ بالشتمِ والفُحشِ مِن الكلام. وعلى الأعضاءِ بالضربِ والتهجُّمِ والتمزيقِ والقتلِ والجَرحِ عند التمكُّنِ مِن غيرِ مبالاة، فإن هرب من غضبَ عليه أو فاتَه رجعَ على نفسهِ فمزَّق ثوبَهُ ولطَم نفسَه وضرب بيده الأرض، وربما يضربُ الجماداتِ والحيوانات، وقد يكسرُ المائدةَ ويتعاطى أفعالَ المجانين فيشتم البهيمةَ والجماداتِ ويخاطبها حتى ربما رفسَته دابةٌ فيرفِسُها.

وأما أثره في القلب: فالحقد والحسد وإضمار السوءِ والشماتة بالمساءاتِ والحزنِ بالسرور والعزمِ على إفشاءِ السر وهَتكِ السترِ والاستهزاءِ وغير ذلك من القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط.

أما ثمرةُ الحميةِ الضعيفة فقِلَّةُ الأنفةِ مما يُؤنفُ منه من التعرضِ للحُرَمِ



والزوجةِ واحتمالِ الذلِّ من الأخسَّاءِ وصغَر النفس، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن سعدًا لغيورٌ وأنا أغيرُ مِن سعد، وإنَّ اللهَ أغيرُ مني»[1]. وقد قيل: كل أمَّةٍ وُضعتِ الغيرةُ في رجالِها وُضِعتِ الصيانةُ في نسائها.

ومِن ضَعفِ الغضبِ الخَور والسكوتُ عند مشاهدةِ المنكرات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ومَن فقدَ الغضبَ عجزَ عن رياضةِ نفسِه إذ لا تتمُّ إلا بتسليطِ الغضبِ على الشهوة، وإنما المحمودُ غضبٌ ينتظرُ إشارةَ العقلِ والدين، وحفظُه على حدِّ الاعتدالِ والاستقامة والوسط، وهو أرقُّ من الشعرةِ وأحدُّ مِن السيفِ، فإن عجزَ عنه فليَطلُبِ القربَ منه.

❖ هل يمكن إزالةُ أصلِ الغضبِ بالرياضةِ أم لا؟

ظن ظانُّون أنه يُتصوَّر محوُ الغضب بالكليَّة، وظن آخرون أنه لا يَقبلُ العلاجَ أصلًا، وكلاهما ضعيف. بل الحقُّ أنه ما بقيَ الإنسانُ يحبُّ شيئًا ويكره شيئًا ويوافقهُ شيء ويخالفهُ آخر فلا بدَّ أن يحبَّ ما يوافق ويكره ما يخالف، والغضبُ يتبعُ ذلك، إلا أنَّ ما يحبُّه الإنسانُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ضرورةٌ في حقِّ الكافَّةِ كالقوتِ والمسكنِ والملبسِ وصحةِ البدن، فهي ضروراتٌ لا يخلو الإنسانُ مِن كراهةِ زوالِها.

القسم الثاني: ما ليس ضروريًّا لأحدٍ كالجاهِ والمالِ الكثيرِ والدوابِّ فإنها صارت محبوبةً بالعادةِ والجهلِ بمقاصدِ الأمور، فهذا الجنسُ مما يُتصَوَّر أن ينفكَّ الإنسانُ عن أصلِ الغيظِ عليه، إذ يجوز أن يكونَ بصيرًا بأمرِ الدنيا فيزهد في الزيادةِ على الحاجة، وأكثرُ غضبِ الناس على ما هو غيرُ ضروري كالجاهِ

---

(١) رواه مسلم (١٤٩٨).

والصِّيتِ والتصدُّرِ في المجالسِ والمباهاةِ في العلم، فمَن غلبَ الحبُّ عليه فلا محالةَ يغضبُ إذا زاحمَه مُزاحمٌ على التصدرِ في المحافل، ومن لا يحبُّ ذلك فلا يبالي ولو جلسَ في صفِّ النِّعال فلا يغضبُ إذا جلسَ غيره فوقَه. وكلما كانت الإراداتُ والشهواتُ أكثر كان صاحبُها أحط رتبةً وأنقص، حتى ينتهيَ بعضُ الجهَّالِ إلى أن يغضبَ لو قيل له: إنك لا تحسنُ اللعبَ بالطيورِ أو بالشَّطرنج أو تناول الطعامِ الكثيرِ وما يجري مجراه من الرذائل.

القسم الثالث: ما يكون ضروريًّا في حق بعض الناس كالكتاب في حق العالم، وأدوات الصناعات في حقِّ المُكتسب، وهذا يختلفُ بالأشخاص، وإنما الضروري ما أشارَ إليه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «**مَن أصبحَ آمنًا في سِربِهِ معافًى في بدنه وله قوتُ يومِه فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرِها**»(١).

وغاية الرياضةِ في القسم الأولِ أن يقدرَ على ألَّا يطيعَ الغضب لا لينعدمَ غيظُ القلب، بل لا يستعمله في الظاهر إلا على حدٍّ يستحبُّه الشرع ويستحسنُه العقل، وذلك ممكنٌ بالمجاهدة والتكلُّف والاحتمال، وهذا حكم القسم الثالث أيضًا فالرياضة فيه تمنع العملَ بالغضبِ والغيظِ وتضعفُ هيجانَه حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

أما القسم الثاني فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه بإخراجِ حُبِّه من القلب بأن يعلمَ الإنسانُ أن وطنَه القبر، ومستقرَّه الآخرة، وأن الدنيا معبَرٌ يتزوَّدُ منها، وما وراءَ ذلك فَوَبالٌ عليه في مستقرِّه. فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمعِ الغضب وهو نادر جدًّا، وقد تنتهي إلى المنعِ من استعماله والعمل

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١). «سِرْبه»: أي نَفْسه، وَقِيلَ: قَومه.



بموجبه وهو أهون. قال علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يغضبُ للدنيا، فإذا أغضبَه الحقُّ لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبهِ شيءٌ حتى ينتصرَ له.

واشتغال القلبِ ببعضِ المهمات يمنعُ هيَجانَ الغضب، كما أن سلمان لما شُتم قال: إن خفَّت موازيني فأنا شرٌّ مما تقول، وإن ثقُلت موازيني لم يضرني ما تقول. فكان همُّه مصروفًا إلى الآخرة فلم يتأثر بالشتم. وكذلك شُتمَ الربيعُ بن خثيم فقال: يا هذا قد سمعَ الله كلامَك وإن دونَ الجنةِ عقبة إن قطعتُها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطَعها فأنا شرٌّ مما تقول. وسبَّ رجلٌ أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما سترهُ اللهُ عنك أكثر. فكان مشغولًا بالنظرِ في تقصيرِ نفسه لجلالةِ قدرِه. وقالت امرأةٌ لمالكِ بن دينار: يا مرائي، فقال: ما عَرفَني غيرك! وكان مشغولًا بأن ينفيَ عن نفسِه آفةَ الرياء. وسبَّ رجلٌ الشعبي فقال: إن كنتَ صادقًا فغفرَ اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفرَ الله لك.

فيُتصوَّر فَقدُ الغيظ باشتغالِ القلب بمهمٍّ، أو بغلبةِ نظرِ التوحيد، أو بسببٍ ثالثٍ وهو أن يعلمَ أن الله يحبُّ منه ألَّا يغتاظَ، فيطفئُ شدةُ حبهِ لله غيظَه.

ومَن أخرجَ حبَّ الدنيا عن القلبِ تخلَّصَ من أكثر أسباب الغضب، وما لا يمكنُ محوُه يمكن كسرُه وتضعيفه. نسأل اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير.

❖ الأسباب المهيِّجة للغضب:

علاجُ كلِّ علةٍ حَسمُ مادتها، قال يحيى لعيسى عليهما السلام: أيُّ شيءٍ أشد؟ قال: غضبُ الله، فقال: ما يقرِّب مِن غضبِ الله؟ قال: أن تغضب، قال: فما يُبدي الغضب ويُنبِتُه؟ قال: الكبر والتعزُّز والحمية.

فالأسباب المهيِّجةُ له هي: الزَّهو والعجُب والمزاح والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحِرص على فضولِ المال والجاه. فينبغي أن تُميتَ الزهوَ بالتواضع، والعُجبَ بمعرفتِك بنفسك.

والفخر والعجب والكبر أكبرُ الرذائل، وإنما الفخر بالفضائل. وأما المزاح فتزيلُه بالتشاغلِ بالمهمات الدينية. والهزل بالجدِّ في طلبِ الفضائلِ والأخلاقِ والعلومِ النافعة، والهزء بالتكرُّمِ عن إيذاءِ الناس وصيانةِ النفس. وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح، والصيانة عن مُرِّ الجواب، وشدة الحرص على مزايا العيشِ تُزالُ بالقناعةِ بالضرورةِ طلبًا لعزِّ الاستغناء.

ومن أشدِّ بواعثِ الغضبِ عند أكثرِ الجهّالِ تسميتُهم إياه شجاعةً ورجولةً وعزةَ نفسٍ وكِبرَ همة، وتلقيبُه بالألقابِ المحمودةِ غباوةً وجهلًا حتى تميلَ النفسُ إليه وتستحسنَه، وذاك مرضُ قلبٍ ونقصانُ عقل، وآية أنه لضعفِ النفسِ أن المريضَ أسرعُ غضبًا من الصحيح، والمرأة أسرعُ غضبًا من الرجل، والصبية أسرعُ غضبًا من الكبير، والشيخ الضعيف أسرعُ غضبًا من الكَهل، وذو الرذائلِ أسرعُ غضبًا من صاحبِ الفضائل.

❖ بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

ما ذكرناه هو حسمٌ لموادِ الغضب حتى لا يهيج، فإذا هاجَ فيجبُ التثبُّت، ويعالَجُ بمعجونِ العلمِ والعمَل.

أما العلم فستة أمور:

الأول: أن يتفكَّر في الأخبار الواردة في فضلِ كَظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فتمنعه شدةُ الحرص على ثوابِها عن التشفِّي والانتقام، قال ابن



أوس: غضبَ عمر على رجلٍ وأمرَ بضربِه، فقلت: يا أمير المؤمنين ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، فكان عمر يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يتأمل في الآية، وكان وقَّافًا عند كتاب الله، فتدبَّر وخلَّى الرجل. وأمر عمر بن عبد العزيز بضربِ رجلٍ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فقال لغلامه: خلِّ عنه.

الثاني: أن يخوِّف نفسَه بعقاب الله، ويقول: قدرة الله علَيَّ أعظمُ مِن قدرتي على هذا الإنسان. وفي بعض الكتب القديمة: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرْك حين أغضب، فلا أمحقُك فيمن أمحق.

الثالث: أن يُحذِّر نفسَه عاقبةَ العداوةِ والانتقام، وهو لا يخلو عن المصائب فيخوِّفُ نفسَه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف الآخرة، ولا ثواب عليه لأنه تردُّدٌ على حظوظه العاجلة.

الرابع: أن يتفكرَ في قُبحِ صورتِه عند الغضب بتذكُّرِ صورةِ غيرِه، ومشابهة الغضبان للكلبِ الضاري والسَّبُع العادي، ومشابهة الحليم الهادي للأنبياء والعلماء والحكماء.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام فيقول لنفسه: ما أعجبَكِ تأنفينَ من الاحتمال الآن ولا تأنفين مِن خزيٍ يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقَم منك؟!

السادس: أن يعلم أن غضبَه مِن تعجُّبه من جريانِ الشيء على وَفق مرادِ الله لا على مراده، فكيف يقول: مرادُه أولى مِن مراد الله؟

وأما العمل فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقد أمرَ ﷺ بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغَيظ. رواه البخاري ومسلم.

وكان رسولُ الله إذا غضبت عائشة قال: «يا عُوَيش قولي: اللَّهُمَّ ربَّ النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهِب غيظَ قلبي وأجِرني من مُضلات الفتن»[1]. واجلس إن كنتَ قائما واضطجع إن كنتَ جالسًا، وليتوضَّأ أو يغتسل ففي الحديث: «إذا غضب أحدُكم فليتوضّأ بالماء فإنما الغضب من النار»[2]، وفي رواية: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلقَ من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدُكم فليتوضأ»[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإذا غضبتَ فاسكت»[4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر: «إذا غضبتَ فإن كنتَ قائمًا فاقعد، وإن كنتَ قاعدًا فاتكِئْ، وإن كنتَ متكئًا فاضطجِع»[5].

❖ فضيلة كظم الغيظ:

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما جرع عبدٌ جرعةً أعظمَ أجرًا من جرعةِ غيظٍ كظَمها ابتغاءَ وجه الله تعالى»[6]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كظمَ غيظًا وهو يقدر على أن يُمضيَه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوسِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، وعبد بن حميد (١٥٣٤) من حديث أم سلمة.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٨٤).

(٣) رواه أحمد (١٧٩٨٥).

(٤) رواه أحمد (٢٥٥٦)، والبخاري (١٣٢٠)، والطبراني (١٠٩٥١)، والبيهقي في الشعب (٨٢٨٧).

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه ابن أبي الدنيا في «العفو وذم الغضب» بإسناد صحيح». وجاء في رواية أخرى بلفظ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلا فَلْيَضْطَجِعْ» أخرجه البخاري فى الأدب المفرد (١٢١٧)، وأحمد (٢١٣٤٨)، وابن حبان (٥٥٣٤).

(٦) رواه ابن ماجه (٤١٨٩).



الخلائق حتى يخيِّره في أيِّ الحور شاء»[1]. وقال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشفِ غيظَه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء.

وقال أيوب: حِلم ساعةٍ يدفع شرًّا كثيرًا. واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد، فأجمعوا على أن أفضلَ الأعمال: الحلم عند الغضب، والصبر عند الجزَع. وقال محمد بن كعب: ثلاثٌ من كن فيه استكمل الإيمانَ بالله: إذا رضي لم يُدخِله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرِجه غضبُه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

❖ الحلم:

اعلم أن الحلمَ أفضلُ من كَظمِ الغيظ، لأن كظمَ الغيظ تحلُّمٌ أي تكلُّف له، ويحتاج إليه من هاجَ غيظه، لكن إذا تعوَّد ذلك صار لا يهيج الغضب، وإن هاجَ فلا يكون في كظمِه تعب وهو الحلم، وهو دلالة كمال العقل وخضوع قوة الغضب. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ابتغوا الرفعةَ عند الله**» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**تصل من قطعك وتعطي من حرمَك وتحلم عمَّن جهل عليك**»[2]، وقيل في قوله: ﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، أي حُلماء علماء، وعن الحسن في قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]، قال: حلماء إن جُهل عليهم لم يجهلوا، وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي حُلماء، قال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل: ﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] الكهل: منتهى الحلم، وقال مجاهد:

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي وحسَّنه (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦). وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن عدي (٧/٩٤، ترجمة ٢٠١٧ وازع بن نافع)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٣). وقال السبكي ص (٣٩): «لم أجد صدر الحديث»، وأخرجه بنحوه أحمد (١٥٦١٨)، والطبراني (١٧/٢٦٩ رقم ٧٣٩)، والحاكم (٤/١٧٨). والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٥٩).

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان]، أي إذا أوذوا صفحوا، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن فيك يا أشَجُّ خصلتين يحبهما الله ورسوله**» قال: ما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**الحلم والأناة**»[1]، وزاد أبو داود[2] قال: خلَّتان تخلَّقتُهما أو خُلقان جُبِلتُ عليهما؟ قال: **بل خلُقان جبلكَ الله عليهما**، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خُلقين يحبهما الله ورسوله.

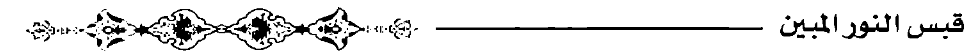
وقال سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه: ليس الخير أن يكثر مالُك وولدك، ولكن الخيرَ أن يكثر علمُك ويعظم حلمُك وألَّا تباهيَ الناسَ بعبادة الله، وإذا أحسنتَ حمدتَ الله تعالى، وإذا أسأت استغفرتَ الله تعالى. قال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر. وقال علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: إن أول ما عُوِّض الحليمُ من حلمه أن الناس كلَّهم أعوانه على الجاهل. وقال بعضهم: شتمتُ فلانًا من أهل البصرة فحلم عليَّ فاستعبدني بها زمانًا. وقيل لعرابة بن أوس: بمَ سُدتَ قومَك؟ قال: كنت أحلم عن جاهلِهم، وأعطي سائلَهم، وأسعى في حوائجِهم، فمن فعل فِعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خيرٌ منه.

وسبَّ رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما فلما فرغَ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيَها؟ فنكَّس الرجلُ رأسَه واستحيا. وسبَّ رجلٌ علي بن الحسين فرمى إليه بخميصةٍ كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جَمَع له خمسَ خصالٍ محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يُبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدحٍ بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير. وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه قد

---

(١) رواه مسلم (١٧).

(٢) (٥٢٢٥).



وقع بيني وبين قومٍ منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يُقال: إن تركَك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم. ومر المسيحُ عليه الصلاة والسلام بقومٍ من اليهود فقالوا له شرًّا فقال لهم خيرًا، فقيل له: إنهم يقولون شرًّا وأنتَ تقول خيرًا!؟ فقال: كلٌّ ينفق مما عنده. وضرب رجل قدمَ حكيم فأوجعَه فلم يغضب، فقيل له؟ فقال: أقمتُه مقامَ حَجرٍ تعثرت به فذبحت الغضب.

واعلم أنه لا يجوز مقابلةُ الغيبةِ بالغيبة، ولا التجسُّس بالتجسُّس، ولا السب بالسب، وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنِ امرؤٌ عيَّرك بما فيك فلا تعيِّره بما فيه**»[1].

❖ معنى الحقد ونتائجه:

إذا لزمَ كظمُ الغيظ لعجزٍ عن التشفِّي رجع إلى الباطن واحتقن، فصار حقدًا، وهو أن يُلزِم قلبَه استثقالَه والبغضةَ له والنِّفارَ عنه. والحقد يثمر ثمانيةَ أمور:

الحسد والشماتة والهَجر والإعراض استصغارًا، والتكلم بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره، والمحاكاة سخرية، والإيذاء بالضرب وما يؤلم، وأن تمنعه حقَّه من قضاء دين أو ردِّ مظلمة أو صلة رحم. وكل ذلك حرام.

وأقلُّ درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية ولا تخرج إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله ولا تنهى قلبَك عن بغضه فتمتنع من البشاشة والرفق والقيام بالحاجات والمعاونة على المنفعة وترك الدعاء والثناء، وهذا كله يُنقص

(١) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وأحمد (٢٠٦٣٢).

درجتَك في الدين، ويحُول بينك وبين فضلٍ عظيم وإن لم يعرِّضك لعقاب الله.

ولما حلف سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ألَّا يُنفق على مِسطَح لكونه تكلم في واقعة الإفك، نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فقال: نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه[١].

والأولى أن يبقى على حاله، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدةً للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وأعمال المقربين. فللحاقد ثلاثة أحوال:

أن يستوفيَ حقَّه بلا زيادةٍ أو نقص وهو العدل، أو أن يظلمه بما لا يستحقه وهو الجور، أو أن يحسنَ إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل واختيار الصديقين.

❖ فضيلة العفو والإحسان:

معنى العفو أن يستحقَّ حقًّا فيسقطَه، وهو غير الحِلم وكظمِ الغيظ. قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثلاثٌ والذي نفسي بيدهِ إن كنتُ حالفًا لحلفتُ عليهن: ما نقَص مالٌ من صدقة، ولا عفا رجلٌ عن مظلمةٍ يبتغي بها وجهَ الله إلا زاده اللهُ بها عزًّا يومَ**

(١) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٨٠).

القيامة، ولا فتح رجلٌ على نفسِه بابَ مسألةٍ إلا فتحَ اللهُ عليه بابَ فقر»[1]، وفي رواية: «والعفوُ لا يزيدُ العبدَ إلا عزًّا، فاعفُوا يعزُّكم الله»[2] وسُئل أبو الدرداء عن أعزِّ الناسِ قال: الذي يعفو إذا قدر فاعفوا يعزكم الله، وصحَّ في الحديث: ما انتصرَ رسولُ الله لنفسه قط، إنما كان يغضب لله ويرضى لرضاه[3]، وقال لمُشركِي مكةَ بعد الفتح: اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء، فخرجوا كأنما نُشِروا مِن القبور فدخلوا في الإسلام.

قال إبراهيم التيمي: إن الرجلَ ليظلمُني فأرحمَه. وهذا إحسانٌ وراءَ العفو. ووفدَ سوارُ بن عبدِ الله إلى أبي جعفر، فأُتيَ برجلٍ فأمرَ بقتِله، فقلت: يُقتلُ رجلٌ من المسلمين وأنا حاضر، فقلت: يا أميرَ المؤمنين ألا أحدِّثك حديثًا سمعتُه من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمعَ الله عز وجل الناسَ في صعيدٍ واحدٍ حيث يسمعُهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي: مَن له عند الله يدٌ فليقُم، فلا يقوم إلا مَن عفا، فقال: والله لقد سمعتَه من الحسن؟ فقلتُ والله لسمعتُه منه، فقال: خلَّينا عنه.

ورُوي أن سارقًا دخل خِباءَ عمارِ بن ياسر بصِفِّين، فقيل له: اقطَعه فإنه مِن أعدائنا، فقال: بل أستر عليهِ لعل اللهَ يسترُ عليَّ يوم القيامة. وجلس ابن مسعودٍ في السوق يبتاعُ طعامًا، فابتاعَ ثم طلبَ الدراهمَ وكانت في عمامتِه فوجدَها قد حُلَّت، فجعلوا يدعُون على مَن أخذَها، فقال عبد الله: اللهم إن كان حملَه على أخذِها حاجةٌ فبارِك له فيها، وإن كان حملتهُ جراءةٌ على الذنبِ فاجعله آخرَ ذنوبه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، ولمسلم (٢٥٨٨) نحوه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٢٢٧٠) والصغير (١٤٢)، وقال الهيثمي (٣/١٤١): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه زكريا بن دويد وهو ضعيف جدًا». والبزار (١٠٣٢).

(٣) أخرجه ابن سعد (١/٤٢٢)، والترمذي في الشمائل(٢٢٥)، والطبراني (٢٢/١٥٥).

وأُتيَ عبدُ الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاءِ بن حَيوة: ما ترى؟ قال: إن اللهَ تعالى قد أعطاك ما تحبُّ من الظفَر فأعطِ اللهَ ما يحبُّ من العفو، فعفا عنهم. ورُوِي أن زيادًا أخذ رجلًا مِن الخوارجِ فأفلتَ منه فأخذَ أخًا له، قال: إن جئتَ بأخيك وإلا ضربتُ عنقَك، قال: أرأيتَ إن جئتُك بكتابٍ مِن أميرِ المؤمنين تُخلِّي سبيلي؟ قال نعم، قال فأنا آتيكَ بكتابٍ من اللهِ العزيزِ الحكيم وأقيمُ عليه شاهدين إبراهيم وموسى، ثم تلا ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم]، فقال: خلُّوا سبيلَه، قد لُقِّن حجته.

والرفقُ محمودٌ ويضادُّه العنفُ والحدَّة. والرفقُ واللينُ نتيجةُ حسنِ الخلق. وقد يكون سببُ الحدة الغضب، وقد يكون سببُها شدةَ الحرص بحيث يُدهش عن التفكر ويمنَع من التثبت، فالرفقُ ثمرةٌ لا يُثمرها إلا حسنُ الخلق، ولا يَحسُن الخلق إلا بضبطِ قوة الغضب والشهوة وحفظِهما على حدِّ الاعتدال، ولأجلِ هذا أثنى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على الرفقِ وبالَغ فيه، وفي الصحيحين قال: «**يا عائشة إنَّ اللهَ يحب الرِّفقَ في الأمر كلِّه**»[(١)] وقال ﷺ: «**إذا أحبَّ الله أهلَ بيتٍ أدخلَ عليهم الرِّفق**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ رفيقٌ يحب الرفقَ**»[(٣)]. وقال ﷺ: «**مَن يُحرم الرفقَ يُحرم الخير كله**»[(٤)]، وقال: «**أيُّما والٍ وليَ فَلانَ ورفقَ رفقَ اللهُ به يومَ القيامة**»[(٥)]. وقال لعائشة:

(١) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه أحمد بسندٍ جيد (٢٤٤٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥٦٠)، قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «سنده ضعيف».

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢)، وأبو داود (٤٨٠٩).

(٥) رواه مسلم (١٨٢٨).



«**عليكِ بالرفقِ فإنه لا يدخلُ في شيء إلا زانَه، ولا يُنزَع من شيءٍ إلا شانَه**»[1].

والمحمود وسطٌ بين العُنفِ واللِّين، لكن لمَّا كانت الطباعُ إلى العنفِ والحدةِ أميَلَ كانت الحاجةُ إلى ترغيبِهم في جانبِ الرفقِ أكثر. قال الحسن: المؤمن وقَّافٌ متأنٍّ وليس كحاطبِ ليل. والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل مَن يميِّز مواقعَ العنف فيعطي كلَّ أمرٍ حقَّه، فإن كان قاصرَ البصيرةِ أو أشكلَ عليه حكمُ واقعةٍ فليكن ميلُه إلى الرفقِ فإن النجاحَ معه في الأكثر.

❖ الحسد ومعالجته:

هو من نتائجِ الحقد، والحقدُ من نتائج الغضب، وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يُحصى. ووردت في ذمِّه أخبارٌ كثيرة: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا**»[3]. وفي حديث ابن عمرو أنه تتبَّع الذي شهدَ له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة ثلاثةَ أيام، قال: فكدتُ أن أحتقرَ عملَه، ثم سأله فقال: لا أجد على أحدٍ من المسلمين في نفسي غشًّا ولا حسدًا على خيرٍ أعطاه الله إياه، قال عبد الله: فقلت له: هي التي بلغَت بك، وهي التي لا نُطيق[4]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة لا أقول حالقةَ الشعر ولكن حالقةَ الدين، والذي**

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، وابن ماجه (٤٢١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٤) رواه أحمد بإسنادٍ صحيح على شرط الشيخين (١٢٦٩٧).

نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أنبِّئكم بما يثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السلامَ بينكم»[١]. وقال ﷺ: «لا تُظهر الشماتةَ لأخيك، فيعافيَه الله ويبتليَك»[٢].

قال بكر بن عبد الله: كان رجلٌ يغشى ملكًا فيقوم بحذائه يقول: أحسِن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيءَ ستكفيكه إساءتُه، فحسده رجلٌ فسعى به إلى الملك وقال: زعم أنك أبخَر، قال: كيف يصح عندي ذلك؟ قال: تدعوه، فإذا دنا وضعَ يده على أنفه، قال: انصرِف حتى أنظر، فخرَج فدعا الرجلَ فأطعمَه طعامًا فيه ثوم، فخرج من عنده إلى الملك وقال قولتَه، قال: ادنُ مني، فوضعَ يده على فيه مخافةَ أن يشمَّ الملكُ رائحةَ الثوم، فقال في نفسه: ما أرى فلانًا إلا صدَق، وكان الملكُ لا يكتبُ بخطِّه إلا جائزةً أو صِلة، فكتب له كتابًا بخطِّه إلى عامل: إذا أتاكَ حاملُ كتابي فاذبَحه واسلَخه واحشُ جلدَه تِبنًا وابعث به إلَي، فأخذ الكتابَ وخرج فلقيَه الذي سعى به، قال: ما هذا؟ قال خطُّ الملكُ لي. قال: هبهُ لي، قال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العاملِ فأخبره بما فيه، قال: إن الكتابَ ليس لي فاللهَ اللهَ في أمري حتى تُراجعَ الملك، قال: ليس لكتابِ الملك مراجعة، ففعل ما أُمِرَ به، وعاد الرجل إلى الملكِ وقال مثلَ قوله، فعجبَ وقال: ما فعلَ الكتاب؟ فأخبره، قال: ذكر لي أنك تزعم أني أبخَر، قال: ما قلتُ ذلك، قال فلمَ وضعتَ يدكَ على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعامًا فيه ثومٌ فكرهتُ أن تشمَّه، قال: ارجع إلى مكانك فقد كفى المسيء إساءته.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٠٦) وقال حسن.



قال ابن سيرين: ما حسدتُ أحدًا على شيءٍ من أمرِ الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على الدنيا وهو يصير إلى النار؟

وإذا أنعمَ الله على أخيك بنعمةٍ فلك حالتان:

إحداهما: أن تكرهها وتحبَّ زوالَها وهو الحسد.

الثانية: ألَّا تحب زوالَها ولا تكره وجودَها ولكن تشتهي لنفسك مثلَها، وتُسمّى غبطة ومنافسة.

فأما الأول فحرام، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، قالت أم المؤمنين صفية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: جاء أبي وعمي من عندك يومًا، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول: إنه النبي الذي بشَّر به موسى، قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيامَ الحياة.

وأما المنافسة فليست بحرام، وهي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين]، وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وقد صرَّح رسول الله بذلك فقال: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلَكتهِ في الحق، ورجل آتاه الله تعالى علمًا فهو يعمل به ويعلِّمه الناس**»[1]. ثم فسَّر ذلك فقال: «**مثَلُ هذه الأُمةِ مثلُ أربعة: رجلٌ آتاه الله مالًا وعلمًا فهو يعملُ بعلمِه في مالِه، ورجلٌ آتاه الله علمًا ولم يؤتِه مالًا فيقول: ربِّ لو أنَّ لي مالًا مثل مالِ فلان لكنتُ أعملُ فيه بمثلِ عملِه، فهما في الأجرِ سواء، ورجلٌ آتاه الله مالًا ولم يؤتِه علمًا فهو ينفقهُ في معاصي الله، ورجلٌ لم يؤتهِ علمًا ولم يؤتهِ مالًا فيقول: لو أنَّ لي مثلَ مالِ فلان**

---

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (١٩٣٠).

لكنتُ أنفقُه في مثلِ ما أنفقَه فيه، فهما في الوِزرِ سواء»[1].

فإن كانت النعمةُ دينيةً واجبةً كالإيمانِ والصلاةِ فالمنافسةُ واجبة، وإن كانت من الفضائل فالمنافسةُ مندوبٌ إليها، وإن كانت من المباحاتِ فالمنافسة مباحة، وليست كراهةُ التخلفِ والنقصانِ في المباحات حرامٌ لكن يَنقصُ من الفضائل، ويناقضُ الزهدَ والتوكُّلَ والرضا. وهنا دقيقة وهو أنه عند يأسِهِ من أن ينالَ مثلَ تلك النعمة وهو يكره تخلُّفه ربما مالَت نفسُه إلى محبةِ زوالِ النعمة، فإن كان لو أُلقيَ الأمر إليه لسعى في إزالتِها فهو حسدٌ مذموم، وإن كان تردعُه التقوى فيُعفى عما يجدُه في طبعه، ولعلَّه المعني بقوله: ثلاث لا ينفكُّ المؤمن عنها: وإذا حسدتَ فلا تبغِ.

ومراتبُ الحسدِ أربع:

الأولى: أن يحب زوالَ النعمة وإن كانت لا تنتقل إليه، وهو غايةُ الخبث.

الثانية: أن يحب انتقالَ النعمة إليه.

الثالثة: ألَّا يشتهي عينَها لنفسِه بل مثلَها، فإن عجزَ أحبَّ أن تزولَ كيلا يظهر التفاوت.

الرابعة: أن يشتهيَ لنفسِه مثلَها فإن لم يحصل فلا يحبُّ زوالَها. وهذا هو المعفو عنه إن كان في الدنيا والمندوبُ إليه إن كان في الدين.

وأسباب الحسد يجمعها سبعةُ أبواب:

السبب الأول: العداوة والبغضاء، فإن عجز عن أن يتشفَّى أحبَّ أن يتشفَّى منه الزمان، وربما يُحيلُ ذلك على كرامةِ نفسهِ عند الله، ومهما أصابت عدوَّه نعمةٌ ساءه ذلك.

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨).



السبب الثاني: التعزُّز، وهو أن يثقلَ عليه أن يترفَّع عليه غيره.

السبب الثالث: الكبر، فإذا نالَ الآخرُ نعمةً خاف ألَّا يحتمِل تكبُّره، ومن التكبر والتعزز كان حسدُ أكثرِ الكفار لرسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزُخرُف]، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

السبب الرابع: التعجب قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون]، يتعجب أن يفوزَ برتبةِ الرسالةِ بشرٌ مثلُهم فحسدُوهم وقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

السبب الخامس: الخوف من فَوتِ المقاصد، وهو يختصُّ بمُتزاحمين على مقصود، ومن هذا الجنس تحاسدَت الضرَّاتُ وتحاسدَ الإخوةُ على نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوين، وتلامذةُ الأستاذ الواحد، ونُدَماء الملكِ وخواصُّه، وكذلك تحاسُدُ الواعظين.

السبب السادس: حبُّ الرئاسة، كالرجل يريدُ أن يكونَ عديمَ النظير في فنٍّ، فلو سمعَ بآخرَ يفوقُ في ذلك الفنِّ ساءه وأحبَّ زوالَ النعمةِ عنه لخوفِ فواتِ مقصودِ الرئاسة، وقد كان علماءُ اليهود ينكرونَ معرفةَ رسولِ الله ﷺ خيفةً من أن تبطلَ رئاستُهم.

السبب السابع: خبثُ النفسِ وشحُّها، فتجد مَن إذا وُصف له اضطرابُ أمورِ الناس وفواتُ مقاصدهم فرحَ، فهو يحب الإدبارَ لغيره ويبخل بنعمةِ الله على عباده، وليس له سببٌ إلا خبثُ النفس ورذالةُ الطبع، ومعالجته شديدة.

ويكثر الحسدُ بين قومٍ تكثرُ بينهم الأسباب، فإذا جمعت القومَ روابط يجتمعون فيها ويتواردون على الأغراض دبَّ الحسدُ بينهم، فلذا يكثرُ بين أهل الوصف الواحد. ومن اشتد حرصُه على الجاه يحسدُ كلَّ مَن هو في العالم وإن بعُد ممَّن يساهمُه في الخصلةِ التي يتفاخرُ بها، ومَنشأ ذلك حبُّ الدنيا وهي تضيقُ على المتزاحمين.

أما الآخرة فلا ضيق فيها، ومثال الآخرة نعمةُ العلم، فلا جرمَ مَن يحبُّ معرفةَ الله تعالى ومعرفةَ صفاتِه وملائكتِه وأنبيائه وملكوتِ سماواته وأرضِه لم يحسد غيرَه لأن المعرفةَ لا تضيقُ على العارفين ولا تَنقص لذةُ واحدٍ بسببِ غيرِه بل يحصل بكثرةِ العارفين زيادةُ الأنسِ وثمرةُ الاستفادة، لذلك لا يكون بين علماء الدين مُحاسدة لأن مقصدَهم معرفةُ الله وهو بحرٌ واسع، وغرضُهم المنزلةُ عند الله ولا ضيقَ فيما عند الله. نعم إذا قصد العلماءُ بالعلم المالَ والجاهَ تحاسدوا لأن المالَ أعيانٌ وأجسامٌ إذا وقعَت في يدِ واحد خلَت عنها يدُ الآخر، وإذا امتلأ قلبٌ بالفرحِ بمعرفةِ الله لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلبُ غيرِه بها.

فمن عوَّد نفسَه الفكرَ في جلالِ الله وعظمتِه وملكوتِ أرضِه وسمائه صار ذلك ألذَّ عنده مِن كلِّ نعيم، ولم يكن ممنوعًا ولا مُزاحَمًا فيه، فلا يكونُ في قلبِه حسدٌ لأحدٍ من الخلق، فإنَّ نعيمَ العارفِ وجنَّته معرفتهُ التي هي صفة ذاته، يأمن زوالَها ويجني أبدًا ثمارَها، فهو برُوحه وقلبه مُغتذٍ بفاكهةٍ غير مقطوعةٍ ولا ممنوعة بل قطوفها دانية، فإن فُرِضَ كثرةٌ في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كما قال رب العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحجر]، ولذةُ المعرفة يختصُّ بإدراكِها رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، ولا يشتاق إليها غيرُهم لأنَّ الشوقَ بعد الذوق،



ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتَق، ومن لم يشتَق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقيَ مع المحرومين ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف].

❖ الـدواء:

لا تُداوَى أمراضُ القلوبِ إلا بالعلمِ والعمل. والعلمُ النافع لمرضِ الحسدِ أن تعرف تحقيقًا أنه ضررٌ عليك في الدين والدنيا ولا ضررَ فيه على المحسود، أما كونه ضررًا في الدين فهو أنك به سخطتَ قضاءَ الله وكرهتَ نعمتَه وعدلَه واستنكرتَ ذلك، وهذه جنايةٌ على حدقَةِ التوحيدِ وقَذى في عينِ الإيمان، وانضاف إلى ذلك أنك غششتَ مؤمنًا وفارقتَ أولياءَ الله وأنبياءَه في حبِّ الخيرِ لعبادِ الله تعالى، وشاركتَ إبليسَ والكفارَ في محبتِهم البلايا للمؤمنين وزوالِ النعم.

وأما كونه ضررًا عليك في الدنيا فإنك تتألَّم وتتعذَّب ولا تزالُ في كمَد، ولا يُخلِي اللهُ أعداءَك عن نعمٍ يفيضُها وأنت تتعذَّب وتتألّم، نزل بك ما يشتهيه الأعداءُ لك فكنتَ تريد المحنةَ لعدوِّك، فتنجَّزتْ في الحال محنتُك وغمُّك نقدًا، ولا تزول النعمةُ عن المحسود، كيف وأنت عالمٌ بما في الحسدِ من العذابِ الشديدِ في الآخرة؟

فإن قلتَ: ليت النعمةَ تزولُ بالحسد، فغايةُ الجهل، فإنك لا تخلُو عن عدوٍّ يحسدك، فلو كانت النعمُ تزولُ بالحسد لم تبقَ عليك نعمةٌ ولا على أحدٍ من الخلق.

ومنفعةُ المحسودِ في الدينِ أنه مظلومٌ من جهتِك خصوصًا إذا أخرجكَ

الحسدُ إلى القول والفعل والقدح ، فهذه هدايا تُهديها إليه ، تهدي إليه حسناتِك حتى تلقى اللهَ مفلسًا.

ومنفعته في الدنيا أن قد فعلتَ بنفسكَ ما يريده عدوُّك ، فهو يشتهي أن تطولَ حياتك في عذابِ الحسد لتنظرَ إلى نعمةِ الله عليه فيتقطَّع قلبُك ، ولذلك قيل:

لا مـات أعـداؤك بـل خُـلِّدوا حـتى يـرَوا فيـكَ الذي يُكمـدُ

لا زلـتَ محـسودًا على نعمـةٍ فإنمـا الكامـلُ مـن يُحـسدُ

ثم لم تقتصر على تحصيلِ مرادِ عدوِّك حتى أدخلتَ أعظمَ سرورٍ على إبليسَ أعدَى أعدائك ، لمَّا رآك محرومًا مِن نعمِ العلمِ والورعِ والجاهِ والمال الذي اختُصَّ به عدوُّك خافَ أن تحبَّ ذلك فتشاركَه في الثوابِ بسببِ المحبة ، لأنَّ مَن أحبَّ الخيرَ للمسلمين كان شريكًا فيه ، ومَن فاتهُ اللَّحاقُ بالأكابرِ لم يَفُتهُ ثوابُ المحبةِ لهم ، فخاف إبليسُ أن تحبَّ ما أنعمَ الله به على عبدِه مِن صلاحِ دينه ودنياه فتفوزَ بثوابِ المحبة ، فبغَّضه إليك حتى لا تلحَقه.

وقد قال أعرابي لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله الرجلُ يحبُّ القومَ ولمَّا يلحق بهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المرءُ مع من أحب»[1]. فانظر كيف حسدَك إبليسُ فَفوَّتَ عليك ثوابَ المحبة ، ثم لم يقنع حتى بغَّض إليك أخاك وحملكَ على الكراهة ، فنفَذَ فيكَ حسدُه وما نفذَ حسدُك في عدوك ، بل لو كُوشفتَ بحالِك رأيتَ نفسَك في صورةِ من يرمي سهمًا إلى عدوِّه فلا يصيبه بل يرجع إلى حدَقتِه فيقلعُها ، فيزيدُ غضبُه فيعود ثانيةً فيرجع إلى عينِه الأخرى فيُعميها ، فيزدادُ غيظُه فيعودُ على رأسِ فيشجُّه وعدوُّه سالم.

(١) رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠).



والحسد يعود بالإثم وهو لا يفوت بالموت، بل يسوقُ إلى غضبِ الله والنار، فانظر كيف انتقمَ اللهُ من الحاسدِ فلم يُزِل النعمةَ عن المحسودِ ثم أزالَها عن الحاسد، زالت عنه السلامةُ من الإثمِ والسلامةُ من الغمِّ والحسدِ فَحُرِمَ النِّعمتَين ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٤].

فهذه الأدوية العلمية، وأما العمل النافع فكل ما يتقاضاه الحسدُ، فينبغي أن يكلِّف نفسَه نقيضَه، فيحمل نفسَه على مدحِ المحسود والثناءِ عليه والتواضع له والاعتذار إليه، ومهما فعلَ طابَ قلبُه؛ ولا يَصُدَّنّه الشيطان فيقول له: لو تواضعتَ وأثنيت حملَكَ على العجزِ أو النفاقِ أو الخوفِ أنَّ ذلك مذلّة، وذلك مِن خداعِ الشيطان ومكائده، بل المُجاملةُ تكلُّفًا تكسرُ سورةَ العداوةِ مِن الجانبين وتُقِلّ مَرغوبَها وتعود القلوبُ إلى التآلف، وتستريحُ بذلك مِن ألمِ الحسدِ وغَمِّ التباغض.

فهذه أدوية الحسد، وهي نافعةٌ جدًّا إلا أنها مُرَّةٌ على القلوب، ولكن النفعَ في الدواءِ المُرِّ. فمَن لم يصبِر على مرارةِ الدواء لم يَنَل حلاوةَ الشفاء.

والدواء المفصَّل تتبُّع أسباب الحسدِ واقتلاعُها من جذورِها، فإن لم تُقمع المادة لم يحصل إلا تسكينٌ وتطفئة، ولا يزال يعود ويطول الجهد في تسكينِه، فإنه ما دامَ مُحبًّا للجاهِ لا بدَّ وأن يحسدَ مَنِ استأثرَ بالجاهِ والمنزلة.

ولك في أعدائك ثلاثة أحوال:

الأول: أن تحبَّ مساءَتَهم بطبعِك، وتكرهَ حبَّك لذلك وميلَ قلبِك إليه بعقلِك، وتمقتَ نفسَك، وتود لو كانت لك حيلةٌ في إزالةِ ذلك المَيل، وهذا معفوٌّ عنه لأنه لا يدخل تحت الاختيار.

الثاني: أن تحبَّ ذلك وتُظهرَ الفرحَ بمَساءته إما بلسانِك أو بجوارحِك، فهذا هو الحسد المحظُور قطعًا.

الثالث وهو بين الطرفين: أن تحسدَ بالقلب من غير مقتٍ لنفسك على حسدك، ومن غير إنكارٍ منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحَك عن طاعةِ الحسد في مقتضاه، وهذا في محلِّ الخلافِ. والظاهر أنه لا يخلو عن إثمٍ بقَدرِ قوةِ ذلك الحبِّ وضَعفه.

والله تعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

** ** **

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي عرَّف أولياءه غوائلَ الدنيا وآفاتِها، تُمنِّي أصحابَها سرورًا وتَعِدُهم غرورًا. والصلاة والسلام على سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه وآله وأصحابه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الدنيا قطعت الطريقَ على عبادِ الله، وتزيَّنت لهم حتى تجرَّعوا مرارةَ الصبر في مقاطعتها، واستدرجَت أعداءَ الله بمكرِها وكيدِها، فوثِقوا بها وعوَّلوا عليها، فخذلَتهم أحوجَ ما كانوا إليها، فهم على فراقِها يتحسَّرون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة]، وإذا عظُمت غوائلُها وشرورُها فلا بد من معرفةِ حقيقتها والحكمةِ في خلقِها ومدخَلِ غرورها وسبب انصراف الخلقِ عن الله بسببِ التشاغلِ بفضولها.

❖ بيان ذمِّ الدنيا:

وأكثرُ القرآن مشتمِلٌ على ذمِّها وصرفِ الخلقِ إلى الآخرةِ والمصير. وقد مرَّ صلى الله عليه وآله وسلم على شاةٍ ميتة فقال: «**أترونَ هذه الشاةَ هيِّنةً على أهلها؟** قالوا: مِن هوانها ألقَوها. قال: **والذي نفسي بيده للدنيا أهونُ على الله من هذه الشاة على أهلِها، ولو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا**

منها شربةَ ماء»[١]. وقال ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر»[٢]. وقال ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ الله وما والاه وعالمٌ ومتعلم»[٣]. ورُويَ أن سليمانَ بن داود عليهما السلام مرَّ في موكبه والطيرُ تظلُّه والجن والإنس عن يمينه وشماله، فمرَّ بعابدٍ من بني إسرائيل فقال: والله يا ابنَ داود لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا، فرفع سليمان رأسَه وقال: لتسبيحةٌ في صحيفةِ مؤمنٍ خيرٌ مما أعطي ابنُ داود، فإن ما أُعطي ابن داود يذهب والتسبيحةُ تبقى. قال ﷺ: «ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك مِن مالك إلا ما أكلتَ فأفنَيت، أو لبستَ فأبلَيت، أو تصدقتَ فأبقيت؟»[٤].

ورُويَ أن جبريلَ عليه السلام قال لنوح: يا أطولَ الأنبياء عمرًا كيف وجدتَ الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان دخلتُ من أحدِهما وخرجتُ من الآخر. وبعثَ رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمالٍ من البحرين، فسَمعَتِ الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافَوا صلاةَ الفجر مع رسول الله، فلمّا صلى انصرف فتعرَّضوا له، فتبسَّم حين رآهم ثم قال: «أظنُّكم سمعتم أن أبا عبيدة قَدِم بشيء» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فواللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسَط عليكمُ الدنيا كما بُسِطَت على مَن كان قبلكم، فتنافَسوها كما تنافسوها، فتُهلكَكم كما أهلَكتهم»[٥]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثرَ ما أخاف عليكم

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسنٌ صحيح (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم (٣٤١/٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) رواه الترمذي وحسَّنه (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢).

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٥) رواه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).



ما يُخرج اللهُ لكم من بركات الأرض. قيل: ما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا»[1].

وقال أنس: كانت ناقةُ رسول الله ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي بناقةٍ له فسبَقَها، فشقَّ ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إنه حقٌّ على اللهِ ألّا يَرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعَه»[2]. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ارضَوْا بدنيء الدنيا مع سلامةِ الدين كما رضي أهلُ الدنيا بدنيء الدين مع سلامةِ الدنيا. وفي معناه قيل:

أرى رجالًا بأدنى الدينِ قد قنعوا	وما أراهم رضُوا في العيشِ بالدونِ
فاستغنِ بالدينِ عن دنيا الملوكِ كما استـ	ـغنى الملوك بدُنياهم عن الدينِ

وقال سيدنا علي رضي الله عنه: من جُمع فيه ستٌّ خصال لم يدَع للجنة مطلَبًا ولا عن النار مهرَبًا؛ أولها: من عرف اللهَ فأطاعه، وعرف الشيطانَ فعصاه، وعرف الحق فاتَّبعه، وعرف الباطل فاتَّقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرفَ الآخرةَ فطلبها. قال الحسن رحمه الله: رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة فأدَّوها إلى مَن ائتمنَهم، ثم راحوا خفافًا. وقال أيضًا: مَن نافسَك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقِها في نحره. وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف]، وقد قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرُّهُ	فسوف لعمري عن قليلٍ يلومُها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً	وإن أقبلت كانت كثيرًا همومُها

---

(١) رواه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠١).

قال أبو سليمان الداراني: من طلبَ الدنيا على المحبة لها لم يُعطَ منها شيئًا إلّا أراد أكثر، ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يُعط منها شيئًا إلا أراد أكثر. وليس لهذا غاية. وقال رجلٌ لأبي حازم: أشكو إليك حبَّ الدنيا وليست لي بدار، فقال: انظر ما آتاكه اللهُ عز وجل منها فلا تأخذه إلا مِن حلِّه ولا تضَعه إلا في حقِّه، ولا يضرك حبُّ الدنيا. وإنما قال هذا لأنه لو آخذَ نفسَه بذلك لأتعبه حتى يتبرَّم بالدنيا ويطلب الخروجَ منها. وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزفٍ يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفًا يبقى على ذهبٍ يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفًا يفنى على ذهبٍ يبقى!؟ وقال ابن مسعود: ما أصبحَ أحدٌ من الناس إلا وهو ضيف ومالُه عارية، فالضيف مرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قيل:

وما المالُ والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يومًا أن تُردَّ الودائعُ

وزار رابعةَ أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمِّها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقِعُها من قلوبكم ما أكثرتُم مِن ذكرِها. ألا من أحب شيئًا أكثر مِن ذكرِه. وقيل:

أرى طالبَ الدنيا وإن طالَ عمرُه ... ونال من الدنيا سرورًا وأنعُما

كبانٍ بنى بنيانَه فأقامه ... فلما استوى ما قد بناه تهدَّما

وقيل أيضًا:

هبِ الدنيا تُساق إليك عفوًا ... أليس مصير ذاك إلى انتقالِ

وما دنياك إلا مثل فيءٍ ... أظلَّك ثم آذن بالزوال

قال لقمان لابنه: يا بني بِع دنياك بآخرتك تربحْهما جميعًا، ولا تَبع آخرتَك بدنياك تخسرهما جميعًا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله



تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزوَّد، والمنافق يتزيَّن، والكافر يتمتَّع. وقيل:

يـا خاطـبَ الدنيـا إلى نفـسِها ... تـنحَّ عـن خِطبتهـا تَـسلَمِ

إن الـتي تخطـب غـدَّارةٌ ... قريبـةُ العُـرس مـن المـأتمِ

قال أبو الدرداء: مِن هوانِ الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركِها. وقال الحسن بعد أن تلا قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]: مَن قال ذا؟ قاله من خلَقها ومَن هو أعلم بها، إياكم وما شغلَ من الدنيا فإنها كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغلٍ إلا أوشكَ ذلك الباب أن يفتحَ عليه عشرةَ أبواب.

وخطب عليٌ كرم الله وجهه فقال: اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيُّون بها، فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دُوَلٌ وسِجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نُزَّالها، بينا أهلُها منها في رخاء وسرور، إذا هم منها في بلاء وغرور. أحوال مختلفة، وتارات منصرفة. العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلُها فيها أغراض مستهدَفة، ترميهم بسهامها، وتُقصيهم بحِمامها.

وقال كرم الله وجهه: أوصيكم بتقوى الله وتركِ الدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركَها، المبلِية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدَها، فإنما مَثلُكم ومثلُها كمثل قومٍ في سفر سلكوا طريقًا وكأنهم قطعوه، وأفضوا إلى عَلَم فكأنهم بلَغوه، وكم عسى أن يجريَ المجرى حتى ينتهي إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى مَن له يومٌ في الدنيا وطالبٌ حثيثٌ يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسِها وضرَّائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال.



ولما ذُكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد:

أحــــلامُ نــــومٍ أو كظـــلٍّ زائـــل إن اللبيـــبَ بمثلهـــا لا يُخــــدعِ

وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول:

يــا أهــلَ لذاتِ دنيــا لا بقــاءَ لهــا إنَّ اغــترارًا بظــلٍّ زائــل حمــقُ

وقد رُويَ أن عيسى عليه السلام كُوشفَ بالدنيا فرآها في صورةِ عجوزٍ هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجتِ؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلُّهم ماتَ عنك أم كلهم طلَّقك؟ قالت: بل كلُّهم قتلتُ، فقال عيسى: بؤسًا لأزواجِك الباقين كيف لا يعتبرونَ بأزواجكِ الماضين! كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر!؟

واعلم أن الدنيا مُزيَّنةُ الظواهر، قبيحةُ السرائر، وهي شبه عجوزٍ مُتزينةٍ تخدعُ بظاهرِها، فإذا وقفوا على باطنِها تمثَّلَ لهم قبائحُها فندموا على اتِّباعها. قال أبو بكر بن عياش: رأيتُ الدنيا في النوم عجوزًا مشوَّهةً شمطاءَ تصفِّقُ بيدَيها وخلفَها خلقٌ يتبعُونها ويُصفِّقون ويرقصون، فلما حاذَتني أقبلَت فقالت: لو ظفرتُ بكَ لصنعتُ بكَ مثلَ ما صنعتُ بهؤلاء، ثم بكى وقال: رأيت هذا قبلَ أن أقدَمَ إلى بغداد.

واعلم أنَّ لك ثلاثةَ أحوال:

حالة لم تكُن فيها شيئًا، وحالة لا تكون فيها مشاهدًا للدنيا، وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل، وهي أيامُ حياتك الدنيا، فهي أقلُّ مِن منزلٍ قصيرٍ في سفرٍ بعيد، قال صلى الله عليه وآله سلم: «**ما لي وللدنيا! وإنما مَثلي ومثلُ الدنيا كمثلِ راكبٍ سار في يوم صائفٍ فرُفعَت شجرة**



فقالَ تحت ظلِّها ساعةً ثم راحَ وتركها»[1]. ورأى ﷺ بعضَ الصحابة يبني بيتًا من جِص فقال: «**أرى الأمرَ أعجلَ مِن هذا**»[2].

وكتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي فقال: مثلُ الدنيا مثلُ الحيةِ، ليِّنٌ مسُّها ويقتلُ سمُّها، فأعرِض عما يعجبك منها لقلَّةِ ما يصحبُك منها، وضَع عنك همومَها بما أيقنتَ مِن فراقِها، وكن أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكونُ لها، فإنَّ صاحبَها كلما اطمأنَّ منها إلى سرورٍ أشخصَه عنه مكروه والسلام.

وعلاقتُها مع القلبِ تمنعُ حلاوةَ العبادة. قال عيسى عليه السلام: بحقٍّ أقولُ لكم، كما ينظر المريضُ إلى الطعامِ فلا يلتذُّ به مِن شدةِ الوجع كذلك صاحبُ الدنيا لا يلتذُّ بالعبادةِ ولا يجدُ حلاوتَها مع ما يجدُ مِن حبِّ الدنيا. وفي الحديثِ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنما بقيَ من الدنيا بلاءٌ وفتنة، وإنما مَثلُ عملِ أحدِكم كمَثلِ الوعاء إذا طابَ أعلاه طابَ أسفلُه وإذا خَبثَ أعلاه خَبُثَ أسفلُه**»[3].

وقال عيسى عليه السلام: مَثَلُ طالبِ الدنيا مثلُ شاربِ ماءِ البحر كلما ازدادَ شُربًا ازدادَ عطشًا. وقال رسولُ الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثلِ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه في اليَم، فلينظُر أحدُكم بمَ يرجعُ إليه**»[4].

❖ ما هي الدنيا المذمومة؟

دنياكَ وآخرتُك عبارة عن حالتينِ لقلبِك: فالقريبُ الداني دنيا وهو ما قبل

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والحاكم (٤/٣٤٤)، وأحمد (٢٧٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٥٢٣٦)، والترمذي (٢٣٣٥) وقال حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٣) رواه ابن ماجه في موضعَين ورجاله ثقات (٤٠٣٥).

(٤) رواه مسلم (٢٨٥٨).

الموت، والمتراخي المتأخر آخرة وهو ما بعده، وكل ما يصحبُك في الآخرةِ وتبقى لك إليه ميلٌ وفيه حظٌّ ثلاثةُ أقسام:

القسم الأول: ما معكَ ثمرتُه بعد الموت، وهو شيئان: العلم والعمل، أعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوتِ أرضه وسمائه وشريعةِ نبيه. وأعني بالعمل: العبادةَ الخالصةَ لوجهه تعالى، وقد يأنسُ العالم بالعلم حتى يصيرَ ألذَّ الأشياءِ عنده، فيهجر له النومَ والمطعم ولا يُعدُّ هذا من الدنيا، وكذلك العابدُ يأنسُ بعبادته بحيث لو مُنع عنها لكان أعظمَ العقوباتِ عليه، حتى قال بعضُهم: ما أخاف من الموتِ إلا من حيثُ يحُولُ بيني وبين قيامِ الليل. وآخر يقول: اللهم ارزقني قوةَ الصلاةِ والركوع والسجود في القبر. واسم الدنيا ينطلقُ عليه ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة مثلَ ذلك.

القسم الثاني: ما لا ثمرةَ له في الآخرةِ أصلًا كالمعاصي والمباحاتِ الزائدة على الحاجات، فحظُّ العبدِ من هذا هي الدنيا المذمومة، وفيما يُعدُّ فضولًا أو في محلِّ الحاجةِ نظرٌ طويل.

القسم الثالث: كلُّ حظٍّ في العاجل مُعينٌ على أعمالِ الآخرة، وما لا بدَّ منه ليَتأتَّى البقاء والصحةُ التي بها يُتوصَّل إلى العلمِ والعمل. فمهما تناولَه على قصدِ الاستعانةِ لم يكُن به مُتناولًا للدنيا، وإن كان باعثُه الحظ العاجل دونَ الاستعانةِ على التقوى التحقَ بالقسمِ الثاني.

ولا يبقى مع العبدِ عند الموت إلا ثلاثُ صفات: صفاء القلب، وأنسُه بذكر الله، وحبُّه لله عز وجل. وصفاءُ القلبِ وطهارتُه يحصلان بالكفِّ عن شهواتِ الدنيا، والأنسُ يحصلُ بكثرةِ ذكرِ الله والمواظبةِ عليه، والحبُّ لا



يحصلُ إلا بالمعرفة، وهي لا تحصلُ إلا بدوامِ الفكر؛ وهذه الثلاثُ هي المنجياتُ المُسعدات بعد الموت.

فطهارةُ القلب من المنجيات، والأنسُ والحبُّ مِن المسعداتِ يوصلان العبدَ إلى لذةِ اللقاءِ والمشاهدة، وهي تتعجَّل عقيبَ الموت إلى أن يدخلَ أوانُ الرؤيةِ في الجنة، فيصيرُ القبرُ روضةً مِن رياضِ الجنة، وكيف لا ولم يكن له إلا محبوبٌ واحد؟ وكانت العوائقُ تعوقُه عن دوامِ الأنس بدوامِ ذكرِه ومُطالعةِ جمالِه، فارتفعَت وأفلتَ من السجن وخُلِّيَ بينه وبين محبوبه، فَقدِم عليه مسرورًا سليمًا من الموانع، وكيف لا يكونُ محبُّ الدنيا عند الموتِ مُعذَّبًا ولم يكُن له محبوبٌ إلا الدنيا وقد غُصب منه وحِيل بينه وبينه، ولذلك قيل:

ما حالُ من كان له واحدٌ غُيِّب عنه ذلك الواحدُ

وليس الموت عدمًا إنما هو فراقٌ لمحابِّ الدنيا وقدومٌ على الله تعالى. فإذًا سالكُ طريقِ الآخرة هو المواظبُ على أسبابِ هذه الصفاتِ الثلاث، وهي الذكر والفكر والعمل، ولا يمكنُ ذلك إلا بصحةِ البدن، ولا تُنال إلا بقوتٍ وملبسٍ ومَسكن. فالقدرُ من هذه الثلاثةِ وأسبابِها إذا أُخذَ للآخرةِ كانت الدنيا مزرعةً للآخرة، وإن أُخِذَ لحظِّ النفسِ وقصدِ التنعُّم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظِها، إلا أن الرغبةَ في حظوظِها تنقسمُ إلى ما يُعرِّضُ صاحبَه لعذابِ الآخرةِ ويسمى حرامًا، وإلى ما يحولُ بينه وبين الدرجات العُلا ويعرِّضُه لطولِ الحساب ويسمى حلالًا. والبصيرُ يعلم أن طولَ الموقفِ في عرصاتِ القيامةِ عذابٌ لقولِ رسول الله ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذِّب**»[1].

وكل من كانت معرفتهُ أقوى وأتقَن كان حذَرُه أشَدَّ، حتى إن سليمانَ

(١) رواه البخاري (١٠٣)، مسلم (٢٨٧٦).

عليه السلام في مُلكِه كان يُطعمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ وهو يأكلُ خبزَ الشعير، فجعل المُلكَ على نفسِه امتحانًا وشِدّة، فإن الصبرَ عن لذائذِ الأطعمةِ مع القدرةِ عليها ووجودِها أشدّ، ولهذا جاء أن اللهَ زوى الدنيا عن نبيِّنا فكان يطوي أيامًا، وكان يشدُّ الحجرَ على بطنِه من الجوع، وسلَّطَ اللهُ البلاءَ على الأنبياءِ والأولياءِ ثم الأمثل فالأمثل نظرًا لهم وامتنانًا عليهم ليتوفَّرَ من الآخرةِ حظُّهم.

وكلُّ ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فليس منها. فإن قلتَ: فما الذي هو لله؟ فأقول: الأشياء ثلاثةُ أقسام:

منها ما لا يُتصوَّر أن يكون لله، وهو الذي يعبَّر عنه بالمعاصي.

ومنها ما صورتُه لله ويُمكن أن يُجعلَ لغيرِ الله، وهو الفكرُ والذكرُ والكفُّ عن الشهوات، فإن جرَت سرًّا ولم يكن عليها باعث سوى أمرِ الله فهي لله، وإن كان الغرضُ من الفكرِ طلبُ العلم للتشرُّفِ به وطلبِ القبولِ بين الخلقِ أو كان الغرضُ من تركِ الشهوةِ حفظَ المالِ أو مجردَ الحِميَةِ أو الاشتهارَ بالزهد فقد صار من الدنيا بالمعنى، ومنها ما صورتُه لحظِّ النفسِ ويمكنُ أن يكونَ معناه لله كالأكلِ والنكاح وكلِّ ما يرتبط به بقاؤه، فإن كان القصدُ لحظِّ النفسِ فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانةَ على التقوى فهو لله، قال ﷺ: **«من طلبَ الدنيا حلالًا مكاثرًا مفاخرًا لقيَ اللهَ وهو عليه غضبان، ومَن طلبَها استعفافًا عن المسألة وصيانةً لنفسِه جاء يومَ القيامةِ ووجهُه كالقمرِ ليلةَ البدر»**[1].

فالدنيا حظُّ نفسِك العاجلِ الذي لا حاجة إليه لأمرِ الآخرة ويُعبَّر عنه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١١٠) وإسحاق بن راهويه (٣٥٢)، وعبد بن حميد (١٤٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٧٤).



بالهوى، وإليه الإشارةُ بقول الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات]، ومجامعُ الهوى خمسةٌ مذكورةٌ في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والأعيانُ التي تحصلُ منها هذه سبعةٌ يجمعُها قولُه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمرا: ١٤]، فقد عرفتَ أن كلَّ ما هو لله فليس مِن الدنيا. وبين الاستكثار والضرورة درجةٌ يُعبَّر عنها بالحاجةِ ولها طرفان وواسطة: طرفٌ يقربُ من حدِّ الضرورة، وطرفٌ يُزاحمُ جانبَ التنعُّم، وبينهما وسائط متشابهة «**ومن حامَ حول الحمى يوشكُ أن يقعَ فيه**»(١).

وكان أويس القرني رحمه الله يخرجُ أولَ الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاءِ الآخرة، وطعامه أن يلتقطَ النوى وكلما أصابَ حشفةً خبَّأها لإفطارِه، وإن لم يُصِب ما يقوتُه باع النوى واشترى بثمنه قوتًا، ويلتقطُ قطعَ الأكسيةِ فيغسلُها في الفراتِ ويُلفِّق بعضَها إلى بعضٍ ثم يلبسُها، وربما مرَّ الصبيانُ فيرمونه ويظنُّون أنه مجنون فيقول: يا إخوتاه إن كنتم ولا بدَّ أن ترموني فارموني بأحجارٍ صغار، فإني أخاف أن تُدمُوا عقبِي فيحضر وقتُ الصلاة ولا أصيبُ الماء، فهكذا كانت سيرتُه.

ولقد عظَّمَ رسولُ الله ﷺ أمرَه، قال هرِمُ بن حيّان: لم يكن لي همٌّ إلا أن أطلب أويسًا وأسألَ عنه، حتى سقطتُ عليه جالسًا على شاطئ الفرات نصفَ النهار يتوضّأ، فعرفتهُ بالنَّعت، فسلَّمت عليه فردَّ ونظر إلي، قلت:

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

رحمكَ الله يا أويس وغفرَ لك، كيف أنت؟ ثم خَنقَتني العبرة مِن حُبِّي إياه ورِقَّتي عليه حتى بكيتُ وبكى، فقال: وأنت فحيَّاك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخي ومَن دلَّك علَي؟ قلت: الله، قال: لا إله إلا الله، سبحان الله إن كان وعدُ ربِّنا لمفعولًا! فعجبتُ حين عَرفَني وما رأيتُه قبلَ ذلك، فقلت: مِن أين عرفتَ اسمي واسمَ أبي وما رأيتك قبلَ اليوم!؟ قال نبَّأني العليم الخبير، وعرفَت روحي روحَك حين كلَّمَت نفسي نفسَك، وإن المؤمنين ليعرفُ بعضُهم بعضًا، يتحابُّون برَوحِ الله وإن لم يلتقوا، يتعارفونَ ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرَّقت بهم المنازل، قلتُ: حدِّثني رحمكَ الله عن رسولِ الله ﷺ بحديثٍ أسمعه منك، قال إني لم أُدرك رسولَ الله ﷺ ولم تكُن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله، ولكن رأيت رجالًا قد صحبوه وبلَغني من حديثه كما بلغَك، ولستُ أحبُّ أن أفتحَ على نفسي هذا الباب أن أكونَ محدِّثًا أو مُفتيًا أو قاضيًا، في نفسي شغلٌ عن الناس، قلت: اقرأ علي آيةً من القرآنِ أسمعُها منك وادعُ لي بدعواتٍ وأوصِني، فإني أحبُّك في الله حبًّا شديدًا، فقامَ وأخذَ بيدِي على شاطئ الفراتِ ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكى، ثم قال: قال ربي والحقُّ قولُ ربي وأصدقُ الحديثِ حديثُه وأصدقُ الكلام كلامه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان]، حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان]، فشهقَ شهقةً ظننتُ أنه قد غُشيَ عليه، ثم قال: يا بن حيان ماتَ أبوك وتوشكُ أن تموت، فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم وأمُّك حواء ونوحٌ وإبراهيم خليلُ الرحمن وموسى نجيُّ الرحمن وداود خليفةُ الرحمن ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو



رسولُ ربِّ العالمين، ومات أبو بكر خليفةُ المسلمين، ومات عمرُ بن الخطاب أخي وصفيِّي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، فقلت: رحمك الله إن عمرَ لم يمُت، قال: فقد نعاهُ إليَّ ربي ونعى إليَّ نفسي، ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان، ثم صلى على النبي ﷺ ثم دعا بدعواتٍ خفيَّات، ثم قال: هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان، كتابَ الله ونهجَ الصالحين، عليك بذكرِ الموت لا يفارقْ قلبَك طرفةَ عين، وأنذر قومَك إذا رجعتَ إليهم، وانصح للأمةِ جميعًا، وإيّاكَ أن تفارقَ الجماعةَ قِيدَ شبرٍ فتفارقَ دينَك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة، وَادعُ لي ولنفسك، ثم قال: اللهم إن هذا يزعمُ أنه يحبني فيك وزارني مِن أجلك، فَعرِّفني وجهَه في الجنة وأدخِله عليَّ في داركَ دار السلام، واحفظه ما دام في الدنيا حيثما كان، وضُمَّ عليه ضيعتَه، وأرضِهِ من الدنيا باليسير، وما أعطيتَه من الدنيا فيسِّره له تيسيرًا، واجعله لما أعطيتَه مِن نعمائك من الشاكرين، واجزِه عني خيرَ الجزاء، ثم قال: أستودعكَ الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا أراكَ بعدَ اليومِ رحمكَ اللهُ تطلبُني فإني أكرهُ الشهرة، والوحدةُ أحبُّ إلي، إني كثيرُ الهمِّ شديدُ الغمِّ مع هؤلاء الناس ما دمتُ حيًّا، فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرَك ولم ترَني، فاذكرني وادعُ لي فإني سأذكرُك وأدعو لك إن شاء الله، انطلق أنت هاهنا حتى أنطلق أنا هاهنا، فحرصتُ أن أمشيَ معه ساعةً فأبى علَيَّ، وفارقتُه فبكى وأبكاني وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعضَ السِّكك، ثم سألتُ عنه بعد ذلك فما وجدت أحدًا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له.

ويتبيَّن ما ذكرنا بمثالِ أن الحاجَّ إذا حلفَ أنه في طريقِ الحج لا يشتغل

بغير الحج بل يتجرد له، ثم اشتغلَ بحفظِ الزاد وعلفِ الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بدَّ للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولًا بغير الحج، فكذلك البدن مَركَبُ النفس تُقطع به مسافةُ العمر، فتعهُّدُ البدن بما تبقَى به قوَّتُه على سلوكِ الطريقِ بالعلمِ والعملِ من الآخرة لا من الدنيا، نعم إذا قصدَ تلذُّذَ البدن وتنعُّمَه بشيء من تلك الأسباب كان منحرفًا عن الآخرة ويُخشى على قلبه القسوة. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك تَرْشُدْ إن شاء الله تعالى.

❖ بيان حقيقة الدنيا في نفسها:

هي عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظٌّ وله في إصلاحِها شغل، أما الأعيانُ الموجودة فهي الأرض وما عليها، ولها مع العبد علاقتان: علاقةٌ مع القلب وهو حبُّه لها وحظُّه منها، ويدخل في هذه صفاتُ القلب المعلَّقة بالدنيا كالكبر والغلِّ والحسد والرياء والسُّمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطنة. وأما الظاهرة فهي الأعيان.

العلاقة الثانية مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان، والخلقُ إنما نَسُوا أنفسَهم ومآبَهم لهاتينِ العلاقتين.

ومثالُ العبدِ في الدنيا مثالُ الحاجِّ الذي يقفُ في منازلِ الطريق ولا يزال يعلفُ الناقةَ ويتعهَّدها وينظِّفها ويكسوها ألوانَ الثياب، ويحملُ إليها أنواعَ الحشيش ويبرِّد لها الماء بالثلج حتى تفوتَهُ القافلة وهو غافلٌ عن الحجِّ ومرورِ القافلة وعن بقائه فريسةً للسباعِ في البادية هو وناقتُه. والحاجُّ البصير لا يهمُّهُ من أمرِ الجمل إلا القَدر الذي يَقوَى به على المشي، فيتعهَّده وقلبُه إلى الكعبةِ



والحج. فكذلك البصيرُ في السفر إلى الآخرة. وأكثرُ ما شغلَ عن الله تعالى هو البطن، ولو عرفوا سببَ الحاجة واقتصروا عليه لم تستغرقهُم أشغالُ الدنيا.

وسبب كثرةِ الأشغال هو أن الإنسانَ مضطرٌّ إلى ثلاث: القوت والمسكن والملبس. فحدثت الحاجةُ إلى خمسِ صناعات: الفلاحةُ والرعايةُ والاقتناص والحياكة والبناء. فالبناء للمسكن، والحياكة وما يكتَنِفها مِن غَزلٍ وخياطةٍ فللملبس، والفلاحةُ للمَطعم، والرعاية للمواشي والخيل للمطعم والمركب، والاقتناص ونعني به تحصيل ما خلقَه الله مِن صيدٍ أو معدنٍ أو حشيشٍ أو حطب، فالمقتنص يُحصِّل ما نبتَ ونتجَ بنفسه مِن غير صُنعِ آدمي، فيأخذه مِن معادنِ الأرض. وتفتقر هذه الصناعات إلى أدواتٍ وآلات، فحدثت الحاجةُ إلى النجارة والحدادة والخَرز.

وخُلقَ الإنسانُ بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماعِ مع غيره لسببين: حاجته إلى النسل. والتعاون على تهيئةِ أسبابِ المطعم والملبسِ وتربية الولد.

ثم مهما اجتمع الناسُ في المنازل والبلاد وتعاملوا تولَّدت بينهم خصومات، فمهما حصلت الولايةُ على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلافِ الولايةِ على البهائم، ولو تُرِكُوا لتقاتلوا ولهلَكوا، فحدث صناعة المِساحة والجُندية والحُكم والفقه وهو معرفةُ القانون الذي ينبغي أن يُضبَط به الخلق.

ثم احتاجوا إلى مَلكٍ يُدبِّرهم وأميرٍ يعيِّن لكلِّ عملٍ شخصًا ويختار لكلِّ واحدٍ ما يليقُ به، فحدثت الحاجةُ إلى الكُتَّاب والخُزَّان والحُسَّاب والجُباة والعمال. ولا تتمُّ هذه الحِرَفُ والصناعاتُ إلا بالأموالِ والآلاتِ والأمكنة.

أما الأموال التي تُنقل ولا يقدر الإنسان على حَملِها فتحتاجُ إلى ما يحملُها

بما يُملَك أو يُستأجر، وشيءٌ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوعٍ تَعلُّمٍ وتعبٍ في الابتداء. وفي الناس مَن يغفلُ عن ذلك في الصبا فلا يشتغلُ به أو يمنعُه مانعٌ فيبقى عاجزًا عن الاكتساب، فيحتاجُ إلى أن يأكلَ مما يسعى فيه غيرُه، فتحدث اللصوصية والكداية في التحيُّل لأخذِ ما يسعى فيه الغير. ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدِّين ويحفظون عنهم أموالَهم فافتقروا إلى صرفِ عقولِهم في استنباط الحيَل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم مَن يطلب أعوانًا ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق. وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز الفرصة، وإلى غير ذلك من أنواع التلصُّص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار وتستنبطه لهم.

وأما المَكدي: فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له: اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة؟ فلا يُعطى شيئًا، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعةٍ يُعمون أولادَهم وأنفسهم بالحيلة ليُعذَروا بالعمى فيُعطَوْن، وإما بالتَّعامي والتفالُج والتَّجانُن والتمارض، وإظهار ذلك بأنواعٍ من الحيَل مع بيان أن تلك محنةٌ أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة. وجماعة يلتمسون أقوالًا وأفعالًا يتعجَّب الناس منها حتى تنبسط قلوبُهم عند مشاهدتها، فيسخوا برفعِ اليد عن قليلٍ من المال في حال التعجب، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم. وذلك قد يكون بالتَّمسخُر والمحاكاة والشَّعبذة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجَّع مع حسن الصوت. والشعر الموزون أشدُّ تأثيرًا في النفس لا سيما إذا كان فيه تعصُّب يتعلق بالمذاهب أو يحرك داعيةَ العشق من أهل المجانَة، وصنعة



ما يشبه العِوض وليس بعوض كبيعِ التعويذات والحشيش الذي يخيِّل بائعه أنها أدوية فيخدع الصبيان والجهال، وكأصحاب القرعة والفال من المنجِّمين.

ويدخل في هذا الجنس الوُعّاظ والمكدُّون على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائلٌ علمي، وكان غرضُهم استمالةَ قلوبِ العوام وأخذَ أموالِهم بأنواع الكدية، وأنواعُها تزيد على ألف نوع وألفين. وكل ذلك استُنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة. فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبُّوا عليها، وجرَّهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسَهم ومقصودَهم ومُنقلَبَهم ومآبَهم فتاهوا وضلُّوا، وسبَقَ إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدَّرتها زحمةُ الاشتغالات بالدنيا خيالاتٌ فاسدةٌ، فانقسمت مذاهبُهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه:

فطائفة غلَبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينُهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فقالوا: المقصود أن نعيش أيامًا في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهبُ جماعةٍ من أهل الاحتراف ومن ليس له تنعُّمٌ في الدنيا ولا قدمٌ في الدين؛ فإنه يتعب نهارًا ليأكل ليلًا، ويأكل ليلًا ليتعب نهارًا، فهو في سفر لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطَّنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعَّم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضيَ وطَره من شهوة الدنيا، فهؤلاء نَسُوا أنفسَهم وصرفوا هِمَمَهم إلى اتباع لذائذ الأطعمة وشهوات الدنيا بأنواعها، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غايةَ السعادة، فشغلَهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناءِ بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلَهم وأتعبوا نهارَهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويتردَّدون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شُحًّا وبُخلًا عليها أن تنقص، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبُهم وحركتُهم إلى أن يدركَهم الموت؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تعبُه ووبالُه وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادةَ في حسن الاسم وانطلاق الألسنةِ بالثناء والمدح بالتجمُّل والمروءة؛ فهؤلاء يتعبون في كسبِ المعاش، ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميعَ مالهم إلى الملابس الحسنة والدوابِّ النفيسة، ويزخرفون أبوابَ الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يُقال: إنه غني وذو ثروة، ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهِمَّتُهم في نهارهم وليلهم في تعهُّد موقعِ نظرِ الناس.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادةَ في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا همَمَهم إلى استجرارِ الناس إلى الطاعة بطلب الولايات وتقلُّدِ الأعمال السلطانية لينفذ أمرُهم بها على طائفةٍ من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتُهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادةً عظيمة، وذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوبِ الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلَهم حبُّ تواضعِ الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكُّر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائفُ يطول حصرُها تزيد على نيفٍ وسبعين فرقة، كلهم



قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وجرَّهم إلى جميع ذلك حاجةُ المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تُرادُ له هذه الأمور، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها، فمن عرف وجهَ الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غايةَ المقصود منها فلا يخوض في شغلٍ وحرفةٍ وعملٍ إلا وهو عالم بمقصوده، وأن غاية مقصوده تعهُّد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيلَ التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكرُ الآخرة وانصرفت الهمةُ إلى الاستعداد للقاءِ الله، وإن تعدى به قدرَ الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتتشعَّب به الهموم، ومن تشعَّبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي وادٍ أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا.

وتنبّهَ لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدَهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلَّهم في الإعراض أيضًا حتى انقسموا إلى طوائف:

فظَنَّت طائفة أن الدنيا دارُ بلاءٍ ومحنة، والآخرة دار سعادةٍ لكل مَن وصل إليها سواء تعبَّد في الدنيا أو لم يتعبَّد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسَهم للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العبَّاد من أهل الهند فهم يتهجَّمون على النار ويقتلون أنفسَهم بالإحراق. ويظنون أن ذلك خلاص لهم من مِحَن الدنيا.

وظنت طائفةٌ أخرى أن القتل لا يُخلِّص، بل لا بد أوَّلًا من إماتةِ الصفات البشرية وقطعِها عن النفس بالكلية، وأن السعادة في قطعِ الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضُهم بشدة الرياضة، وبعضهم فسدَ عقلُه وجُنَّ. وبعضُهم مرض وانسدَّ عليه الطريق في العبادة.

وبعضهم عجز عن قمعِ الصفات بالكلية فظن أن ما كلَّفه الشرع مُحال وأن الشرع تلبيسٌ لا أصلَ له، فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كلَّه لله، وأن الله تعالى مستغنٍ عن عبادة العباد لا ينقصه عصيانُ عاصٍ ولا تزيده عبادةُ متعبِّد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلكَ الإباحة وطووا بساطَ الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك مِن صفاء توحيدِهم حيث اعتقدوا أن الله مُستغنٍ عن عبادة العباد.

وظن طائفةٌ أن المقصود من العبادات المجاهدةُ حتى يصل العبدُ بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفةُ فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعيَ والعبادةَ وزعموا أنه ارتفع محلُّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يُمتَهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوامِّ الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفًا وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقةٌ واحدة؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو ألَّا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدرَ الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. ولا يتبع كلَّ شهوة ولا يترك كلَّ شهوة، بل يتبع العدلَ ولا يترك كلَّ شيء من الدنيا، ولا يطلب كلَّ شيء من الدنيا بل يعلم مقصودَ كل ما خُلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوَى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحَرِّ والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغَ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكُنهِ همَّته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها حتى لا يجاوز حدودَ الورع والتقوى.

ولا يُعلَمُ تفصيلُ ذلك إلا بالاقتداءِ بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه الصلاة والسلام لمّا قال: «**الناجي منها واحدة**» قالوا: يا رسول الله ومن هم؟ قال: «**أهل السنة والجماعة**» فقيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**» وقد كانوا على النهج القصد والسبيل الواضح، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريطٌ ولا إفراط، بل كان أمرُهم بين ذلك قَوامًا، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وصحبه وسلم.

كتاب

ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله مستوجبِ الحمد برزقهِ المبسوط، وكاشفِ الضر بعد القنوط، خلق الخلق، ووسَّع الرزق. والصلاة والسلام على سيدِنا محمد الذي نسخَ بملَّتهِ مِلَلًا، وطوى بشريعتهِ أديانًا ونِحَلًا، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيلَ ربِّهم ذُلُلًا، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فإن فتنَ الدنيا كثيرةُ الشُّعَب، والأموال أعظمُ فتنِها، لا غنى لأحدٍ عنها، وإذا وُجدت لا سلامةَ منها، إن فُقِد المال حصل منه فقرٌ يكاد أن يكون كفرًا، وإن وُجدَ حصل منه طغيانٌ تكون عاقبةُ أمرِه خُسرًا، فهي لا تخلو من الفوائد والآفات؛ وتمييز خيرِها عن شرِّها لا يقوَى عليه إلا ذوو البصائر من العلماء الراسخين دون المترسِّمين المغترِّين، وشَرحُ ذلك مُهمٌّ. وللإنسان من فقدهِ صفةُ الفقر، ومِن وجوده وصفُ الغنى. فهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ثم للفاقد حالتان: القناعة والحرص.

وللحريص حالتان: طمعٌ فيما في أيدي الناس، وتشمُّرٌ للحِرف والصناعات مع اليأس عن الخلق.

وللواجد حالتان: إمساك بحُكم البخل والشح، وإنفاق.

وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد.

وهذه أمور متشابهة فكشفُ الغطاء عن الغموض فيها مُهمّ.

❖ كراهة حب المال:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [التغابن].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان ضاريان - وفي رواية: جائعان - أُرسِلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ إفسادًا فيها من حبِّ الشرف والمال في دين الرجل المسلم**»[(١)].

وقال ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدَّقْتَ فأمضيت**»[(٢)].

ووضع عليٌّ كرّم الله وجهه درهمًا على كفِّه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني. وروي أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليكِ عمر، قالت: غفر الله له، ثم سلَّت سِترًا كان لها فقطعته وجعلته صررًا وقسمته في أهل بيتها ورحمِها، ثم رفعت يديها وقالت: اللهم لا يدركني عطاءُ عمر بعد عامي هذا. فكانت أولَ نساءِ رسولِ الله ﷺ لُحوقًا به.

وقال الحسن: والله ما أعزَّ الدرهمُ أحدًا إلا أذلَّه الله. وقال سميط بن عجلان: إن الدراهم والدنانير أَزِمَّة المنافقين يُقادون بها إلى النار. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تُحسن رقيتَه فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلَك سمُّه، قيل: وما رُقيتُه؟ قال: أخذه مِن حلِّه ووضعهُ في حقِّه.

وفي ذلك قيل شعرًا:

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (٢٣٧٦)، والنسائي في الكبرى (١١١٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨، ٢٩٥٩).

إني وجـدتُ فـلا تظنـوا غـيره ... أن التـورّعَ عنـد هـذا الدرهـمِ
فـإذا قـدرتَ عليـه ثـم تركتَـه ... فاعلم بأن تُقـاك تقـوى المسلمِ

وقيل أيضًا:

لا يغرنَّك من المـرءِ قمـيصٌ رقَّعـهْ
أو إزارٌ فوق عظمِ الساق منه رفعهْ
أو جبين لاح فيـه أثـر قـد خلَعـهْ
أرِه الدرهـم تعـرف غيَّـه أو ورعَـهْ

وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالًا كثيرًا فقيل له: لو ادَّخرته لولدك؟ قال: لا ولكني أدَّخِره لنفسي عند ربي، وأدَّخر ربي لولدي.

وقال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٠]، أي مالًا، وقال رسول الله ﷺ: «نعم المالُ الصالح للرجل الصالح»[١] والطبراني في الكبير بسند صحيح بلفظ[٢]: «نعمَّا المال الصالح للمرء الصالح».

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، ولا تَقِف على وجهِ الجمعِ بين الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمةَ المال ومقصودَه وآفاتِه؛ فينكشف لك أنه خيرٌ مِن وجهٍ وشرٌّ من آخر. فمقصد الكرام والأكياس النعيم الدائم والملك المقيم، قيل لرسول الله ﷺ: مَن أكرمُ الناس وأكيسُهم؟ فقال:

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، والحاكم (٢/٣).

(٢) الطبراني في الأوسط (٩٠١٢)، وقال الهيثمي (٩/٣٥٣): «رواه أحمد وقال: كذا في النسخة «نَعِمّا» بنصب النون وكسر العين، وقال أبو عبيدة بكسر النون والعين، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وقال فيه: ولكن أسلمت رغبة في الاسلام وأكون مع رسول الله ﷺ فقال: «**نعم ونعما بالمال الصالح للمرء الصالح**»، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح».

«أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم له استعدادًا»[1]. وتلك سعادة الآخرة تُنال بثلاثِ وسائل: الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق، والبدنية كالصحة والسلامة، والخارجة عن البدن كالمال وسائر الأسباب.

والمقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها، فالمال آلةٌ ووسيلةٌ إلى مقصودٍ صحيحٍ، ويصلح أن يُتَّخذَ وسيلةً إلى مقاصدَ فاسدةٍ وهي الصادَّة عن سعادة الآخرة وسبيل العلم والعمل. والطباعُ مائلةٌ إلى اتباع الشهوات القاطعة عن سبيل الله، والمال مُسهِّل لها فعظُم الخطرُ فيه، وفي الحديث «اللَّهُمَّ اجعل قوتَ آلِ محمَّدٍ كَفافًا»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أحيِني مسكينًا، وأمِتني مسكينًا، واحشُرني في زمرة المساكين»[3]، وقال ﷺ: «تعسَ عبدُ الدينار، وتعسَ عبدُ الدرهم، تعس وانتكس»[4]، وفي رواية ابن ماجه والحاكم[5]: «وإذا شِيكَ فلا انْتقش».

❖ آفات المال وفوائده:

هو كحيَّة فيها سمٌّ وترياق. فمن عرف غوائلَه وفوائدَه أمكنَه الاحترازُ من شرِّه واستدرارُ خيرِه. فالفوائد دنيوية وأخرى دينية تنحصر في ثلاثة أنواع:

الأول: أن ينفقه على نفسه في عبادةٍ أو استعانةٍ عليها، يستعينُ به على

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩)، قال البوصيري (٤/٢٤٩): هذا إسناد ضعيف. والحاكم (٤/٥٨٣) وقال: صحيح الإسناد، وأبو نعيم فى الحلية (١/٣١٣). وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٦٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٥٠)، وابن أبي الدنيا في «الموت» وإسناده جيد.

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢)، وابن ماجه (٤١٢٦). قال البوصيري (٤/٢١٨): هذا إسناد ضعيف. والحاكم وصحح إسناده (٤/٣٥٨).

(٤) رواه البخاري (٦٤٣٥).

(٥) رواه البخاري (٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٦).



حجٍّ وجهادٍ، وأخذِ الكفايةِ من الدنيا للاستعانةِ على الدين مِن الفوائد الدينية.

الثاني: ما يصرفهُ إلى الناس، وهو أربعة: صدقة ومروءة ووقايةُ عِرضٍ وأجرة استخدام. فالصدقة تُطفئ غضبَ الربّ، ولا يخفى ثوابُها. والمروءة الصرف إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة، وبه يكتسب العبدُ الإخوانَ والأصدقاءَ وصفةَ السخاء وهو مما يعظمُ فيه الثواب. ووقاية العرض: الدفع لهَجو شُعراء، وثَلبِ سفهاء وقطعِ ألسنتِهم، قال رسول الله ﷺ: **«ما وقى به المرءُ عرضَه كُتبَ له به صدقة»**[1].

وأما الاستخدام لتهيئة الأسباب التي لو تولّاها ضاعت أوقاتُه وتعذَّر عليه الفكرُ والذكرُ الذي هو أعلى مقاماتِ السالكين، ومن لا مال له يفتقر إلى تولِّيها بنفسه.

والثالث: ما لا يصرفه إلى معينٍ ويحصل به خيرٌ عام كبناء مساجد وقناطر ورباطات ودور مرضى، وغير ذلك من الخيرات الدارَّة بعد الموت المستجلبة بركةَ أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية. فهذه جملة فوائد المال في الدين.

وأما الآفات فدينية ودنيوية، والدينية ثلاث:

الأولى: أن تجرَّ إلى المعاصي.

الثانية: أنه يجرُّ إلى الاتساع في المباحات ويصير مألوفًا لا يصبر عنه، فربما لا يقدر عليه بالحلال فيقتحم الشبهاتِ ويخوضُ في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة، فمن كثر مالُه كثرت حاجتُه إلى الناس، ومن احتاج نافقَ وعصى في طلب رضا الخلق. ومن الحاجة إلى الخلق

---

(١) رواه أبو يعلى (٢٠٤٠)، وعبد بن حميد (١٠٨٣)، والحاكم (٥٧/٢)، وقال: صحيح. والبيهقي (٢٤٢/١٠)، وفي شعب الإيمان (١٠٧١٢)، والدارقطني (٢٨/٣).

تثورُ العداوة والصداقة، وينشأ الحسدُ والحقدُ والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وغير ذلك من معاصي القلب واللسان.

الثالثة: أنه يُلهي عن ذكر الله، وهو أصل العبادات ومخُّها ويستدعي قلبًا فيه فراغ، وصاحب التفكر في خصومةِ الشركاء والمنازعة وما إلى ذلك لا يتفرغ للذكر والفكر المحمود.

❖ ذم الحرص ومدح القناعة:

قال رسول الله ﷺ **«لو كان لابنِ آدم واديان من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب»**(١). وعن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُوحيَ إليه أتيناه يعلّمنا مما أوحيَ إليه، فجئته ذات يوم فقال: **«إن الله عز وجل يقول: إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له الثاني لأحبَّ أن يكون لهما ثالث، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على مَن تاب»**(٢)، وقال ﷺ: **«يهرم ابنُ آدم ويشِبُّ معه اثنتان: الأمل وحب المال»**(٣).

وقال ﷺ: **«طوبى لمَن هُديَ للإسلام وكان عيشهُ كفافًا وقنعَ به»**(٤)، ولمسلم **«قد أفلحَ مَن أسلمَ ورُزِقَ كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه»**(٥)، وقال ﷺ **«ليس الغنى عن كثرةِ العرض، إنما الغنى غنى النفس»**(٦)، وقال ﷺ ناهيًا عن

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).
(٢) رواه أحمد (٢١٩٠٦)، والبيهقي في الشعب بسند صحيح (١٠٢٨١).
(٣) رواه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧).
(٤) أخرجه الترمذي وصححه (٢٣٤٩).
(٥) رواه مسلم (١٠٤٥).
(٦) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

الحرص والمبالغة في الطلب: «أيُّها الناس أجمِلوا في الطلب فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتبَ له، ولن يذهب عبدٌ من الدنيا حتى يأتيَه ما كُتب له من الدنيا وهي راغمة»[1].

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تُبايعون رسولَ الله»؟ قلنا: أوَليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «ألا تبايعون رسولَ الله»؟ فبَسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئًا، وتُصلّوا الخمس، وأن تسمعوا وتطيعوا - وأسرَّ كلمةً خفية - ولا تسألوا الناسَ شيئًا» قال: فلقد كان بعضُ أولئك النفر يسقط سَوطُه فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه[2].

وقال عمر رضي الله عنه: إن الطمعَ فقرٌ، وإن اليأس غنى، وإنه مَن ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلةُ تمنِّيك ورضاك بما يكفيك. وقيل:

العيش ساعات تمر ... وخطوب أيامٍ تكر
اقنع بعيشك ترضهُ ... واترك هواك تعيش حر
فلُربَّ حتفٍ ساقَهُ ... ذهبٌ وياقوتٌ ودُر

وقال سميط بن عجلان: إنما بطنُك يا ابن آدم شِبرٌ في شبر فلِم يُدخلك النار؟ وكتب بعضُ بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفعَ إليه حوائجَه، فكتب إليه: قد رفعتُ حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسكَ عني قنعت. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسرُّ للعاقل وأيما شيءٍ أعونُ على دفعِ الحزن؟ فقال: أسرُّها إليه ما قدَّمَ مِن صالحِ العمل، وأعونُها له

(١) أخرجه الحاكم وصحَّح إسناده (٢/٥).
(٢) رواه مسلم (١٠٤٣)، وأبو داود (١٦٤٢)، وابن ماجه (٢٨٦٧).

على دفعِ الحزنِ الرضا بمحتومِ القضاء. وقيل:

أرفِه ببالِ فتًى أمسى على ثقةٍ ... أن الذي قسَّمَ الأرزاقَ يرزقُهُ

فالعرضُ منه مصونٌ لا يدنِّسهُ ... والوجهُ منه جديدٌ ليس يُخلقهُ

إن القناعةَ مَن يحلِل بساحتِها ... لم يلقَ في دهرِهِ شيئًا يُؤَرِّقُهُ

وقيل:

أراك يزيدك الإثراءُ حرصًا ... على الدنيا كأنك لا تموتُ

فهل لك غايةٌ إن صرت يومًا ... إليها قلتَ حسبي قد رضيتُ

وقال بعض الحكماء: من عجيبِ أمرِ الإنسان أنه لو نودي بدوامِ البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرصِ على الجمعِ أكثر مما قد استعمله مع قصرِ مدةِ التمتُّع وتوقُّع الزوال.

❖ علاج الحرص والطمع:

دواؤُه مركَّب مِن الصبر والعلم والعمل، ومجموعُ ذلك خمسة:

الأول: وهو العمل: الاقتصادُ في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عزَّ القناعة يرد نفسَه إلى ما لا بد منه، فمَن قنع بثوبٍ خشنٍ وأي طعام مع التقليل من الإدام، ووطَّن نفسَه عليه أمكنهُ الإجمالَ في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصلُ في القناعة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمر كله**»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما عال مَن اقتصد ـ أو قال: مُقتصد ـ**»[2].

(١) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥). وقد تقدم.

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٦٩)، والطبراني في الكبير (١٠١١٨)، وفي الأوسط (٥٠٩٤). قال الهيثمي (٢٥٢/١٠): «في أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف».

وروي أن رجلًا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبًّا من الأرض وهو يقول: إنَّ من فقهِك رفقَك في معيشتك. وقال النبي ﷺ: «**الاقتصاد وحُسنُ السَّمتِ والتُّؤَدةُ جزءٌ مِن أربعةٍ وعشرين جزءًا من النبوة**»(١).

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديدَ الاضطراب لأجل المستقبل، ويُعينُهُ قِصرُ الأملِ والتحققِ بأن الرزقَ الذي قُدِّر فلا بد أن يأتيَه. قال عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، والشيطانُ يَعِدهُ الفقرَ ويأمره بالفحشاء، ويقول: إن لم تحرص على الجَمعِ والادِّخار ربما تمرض وربما تعجز فتحتاجُ إلى الذلِّ في السؤال، ولا يزال يُتعبهُ في الطلب خوفًا من الفقر، ويضحك عليه لاحتماله التعب نقدًا مع الغفلة عن الله لتوهُّمِ تعبٍ في ثاني الحال. وقيل:

ومن ينفق الساعات في جمع مالهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فعل: الفقرُ

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما: «**لا تيأسا مِن الرزق ما تهزهزت رؤوسُكما، فإنَّ الإنسانَ تلِده أمه أحمر ليس عليه قشرٌ، ثم يرزقه الله تعالى**»(٢).

وقال النبي ﷺ لابن مسعود: «**لا تُكثِر همَّك ما قُدِّر يكُن، وما تُرزَق يأتك**»(٣). وقال ﷺ: «**ألا أيها الناس أجمِلوا في الطلب فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتب له، ولن يذهب عبدٌ من الدنيا حتى يأتيَه ما كُتب له من الدنيا**

---

(١) رواه الترمذي وحسَّنه (٢٠١٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٦٥).

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته، ورواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب» من رواية مالك بن عمرو المغافري مرسلًا». والبيهقي في شعب الإيمان (١١٨٨).

وهي راغمة»[1]. ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاقِ العباد، وأن ذلك يحصل مع الإجمال في الطلب، بل يعلم أن رزقَ اللهِ للعبد مِن حيث لا يحتسب أكثر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدتُ الدنيا شيئين: شيئًا منهما هو لي فلَن أُعجلَه قبل وقته ولو طلبتُه بقوةِ السماواتِ والأرض، وشيئًا منهما هو لغيري فلذلك لم أنَله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أفني عمري؟ فهذا دواء مِن جهة المعرفة لا بدَّ منه لدفعِ تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعلم ما في القناعةِ من عزٍّ وما في الحرصِ والطمعِ من الذل، وليس في القناعة إلا ألمُ الصبر عن الشهوات والفضول. ولا يطلع عليه إلا الله وفيه ثوابُ الآخرة، وألمُ الطمعِ يضافُ إليه نظرُ الناس وفيه الوبال، ثم يفوتهُ عزُّ النفس على متابعةِ الحق، فمَن كثُرَ طمعُه كثُرت حاجتُه إلى الناس فلا يمكنه دعوتُهم إلى الحق ويلزمهُ المداهنة، وذلك يُهلك دينَه، ومن لا يؤثر عزَّ النفس على شهوة البطن فهو ركيكُ العقل ناقص الإيمان، قال ﷺ: «**عزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس**»[2]. وقيل: استغنِ عمَّن شئت تكُن نظيرَه، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تكن أسيرَه، وأحسِن إلى مَن شئت تكن أميرَه.

الرابع: أن يُكثر تأمُّلَه في تنعُّمِ اليهود والنصارى وأراذلِ الناس والحمقى ومَن لا دين لهم وعقل. ثم ينظرَ إلى أحوالِ الأنبياء والأولياء وسَمتِ الخلفاء

---

(١) أخرجه الحاكم وصحَّح إسناده (٢/٥). وقد تقدم.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨)، والحاكم (٤/٣٦٠)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٥٣) وأبو الشيخ، والبيهقي في الشعب (٣٢٤٨).



الراشدين والصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالَهم، ويخيِّر عقلَه بين أن يكون على مشابهةِ أراذل الناس أو على الاقتداء بمَن هم أعزُّ أصنافِ الخلقِ عند الله.

الخامس: أن يفهمَ ما في جمعِ المال مِن الخطرِ وخوفِ السرقةِ والنَّهب والضياع، وما في خلُوِّ اليدِ من الأمنِ والفراغ. ويتم ذلك بأن ينظرَ إلى مَن دونه في الدنيا، فإن الشيطانَ يصرفُ نظرَه إلى مَن فوقه ويقول: فلان أعلمُ منك فلِم تضيِّق على نفسك؟ والناس مشغولون بالتنعُّم فلمَ تتميَّز عنهم؟ قال أبو ذر: أوصاني خليلي صلواتُ الله وسلامه عليه أن أنظرَ إلى مَن هو دوني لا إلى مَن هو فوقي[١]. وقال ﷺ «**إذا نظر أحدُكم إلى مَن فضَّلَه اللهُ عليه في المال والخَلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممَّن فُضِّلَ عليه**»[٢].

❖ فضيلة السخاء:

هو مِن أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو مِن أصولِ النجاة، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله: «**أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: الصبر والسماحة وحسنُ الخلق**»[٣]. وقال ﷺ: «**إن اللهَ جوادٌ يحب الجود ويحب معاليَ الأخلاق، ويكره سفسافَها**»[٤]. وقال أنس: إن رسولَ الله ﷺ لم يُسأل على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، وأتاه رجلٌ فسألهُ فأمر له بشاءٍ كثير بين جبلين مِن شاءِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤١٥)، وابن حبان (٤٤٩)، والطبراني في الأوسط (٧٧٣٩)، والبيهقي (٩١/١٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(٣) رواه البيهقي في الشعب وإسناده صحيح (٩٧٠٩)، وأحمد (١٩٤٣٥).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٥٩٢٨). قال الهيثمي (١٨٨/٨): رجاله ثقات، والبيهقي بإسنادٍ صحيح في الشعب (٨٠١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٩/٥).

الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلِموا، فإن محمدًا يعطي عطاءَ مَن لا يخاف الفاقة[1]. وقال ﷺ: «طعامُ الجواد دواءٌ، وطعامُ البخيلِ داء»[2]. وقال ﷺ: «إن السخيَّ قريبٌ مِن الله، قريبٌ من الناسِ، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار؛ وإنَّ البخيلَ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة، قريبٌ من النار؛ وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله مِن عالمٍ بخيل» رواه الترمذي[3] والدارقطني[4] وزاد «وأدوأ الداء البخل».

وقال علي كرم الله وجهه ورضي عنه: إذا أقبلَت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى، وأنشد:

لا تبخلنَّ بدنيا وهي مقبلةٌ ... فليس يُنقصُها التبذيرُ والسرفُ
وإن تولَّت فأحرى أن تجودَ بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خَلَفُ

ورفع رجلٌ إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعةً فقال: حاجتُك مقضيّة، فقيل له: يا ابنَ رسولِ الله لو نظرتَ في رقعتِه ثم رددتَ الجوابَ على قدرِ ذلك؟ فقال: يسألني اللهُ عز وجل عن ذلِّ مقامهِ بين يديَّ حتى أقرأ رقعتَه. وقال ابن السماك: عجبت لمَن يشتري المماليكَ بماله ولا يشتري الأحرارَ بمعروفِه. وسئل بعضُ الأعراب: مَن سيِّدُكم؟ فقال: من احتمل شتمَنا وأعطى سائلَنا وأغضى عن جاهلنا. ورأى الأحنفُ بن قيس رجلًا في يده درهم فقال:

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه ابن عدي والدارقطني وأبو علي الصَّدفي ورجاله ثقات، قال ابن القطان ومنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه»، وقال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٧٥/٨): «قال السخاوي: قال شيخنا: هو حديث منكر. وقال الذهبي: كذب، وقال ابن عدي: إنه باطل عن مالك فيه مجاهيل وضعفاء ولا يثبت».

(٣) (١٩٦١).

(٤) في العلل (٢١٨/٨، رقم ١٥٣٠).



لمَن هذا الدرهم؟ فقال: لي، فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرجَ مِن يدك. وفي معناه قيل:

أنـــت للمـــال إذا أمـــسكتَه ... فـــإذا أنفقتَـــه فالمـــالُ لـــك

وورثَ أُبَيّ خمسين ألف درهم فبعث بها صررًا إلى إخوانه، وقال: قد كنت أسأل اللهَ تعالى لإخواني الجنة في صلاتي أفأبخلُ عليهم بالمال؟

❖ حكايات الأسخياء:

عن أم درة ـ وكانت تخدُمُ عائشةَ رضي الله عنها ـ قالت: إن معاويةَ بعث إليها بثمانين ومئة ألف درهم، فدعت بطبقٍ فجعلَت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: هلم فُطوري، فجاءتها بخبزٍ وزيت، وقالت: ما استطعتِ أن تشتري لنا بدرهمٍ لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكَّرتيني لفعلت.

وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضارَّ عبيدَ الله بن عباس فأتى وجوهَ قريش فقال: يقول لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملؤُوا الدار، فأُخبِرَ الخبر، فأمر بشراء فاكهة، وأمر قومًا فطبخوا وخبزوا، وقُدِّمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا من الفاكهة حتى وضعت الموائد، فقال لوكلائه: أوَموجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا: نعم، قال: فليتغدَّ عندنا هؤلاء في كل يوم.

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجةً فقال: حقُّ سؤالك يَعظُم لديّ، ومعرفتي بما يجب لك تَكبُر عليّ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثيرُ في ذات الله قليل، فإن قبلتَ الميسور ورفعت مؤنةَ الاحتمال لما أتكلَّفه من واجبِ حقك فعلت؟ فقال: يا ابن رسول الله أقبلُ وأشكر العطية وأعذر على المنع، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى

استقصاها، فقال: هات الفضل من الثلاثمئة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفًا، فقال: فما فعلتَ بالخمسمئة دينار؟ قال هي عندي، قال: أحضِرها، فأحضرَها، فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال: هات مَن يحملها لك، فأتاه بحمَّالين فدفع إليه الحسن رداءه لكراءِ الحمَّالين، فقال مواليه: والله ما عندنا درهم، قال أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قرَّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا: لنا جارٌ صوَّامٌ قوَّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثلَه، وقد زوَّج ابنتَه وهو فقيرٌ وليس عنده ما يجهِّزها به، فقام فأخذ بأيديهم وأدخلها دارَه وفتح صندوقًا فأخرج منه ستَّ بُدَر فقال: احملوا، فحملوا، فقال: ما أنصفناه، أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا نكن أعوانَه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنًا عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياءَ الله تعالى، ففعل وفعلوا.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حُجَّاجًا، ففاتَهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا وليس لها إلا شُويهة، فقالت: احلبوها، ففعلوا، ثم قالوا: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدُكم حتى أهيِّئ لكم ما تأكلون، فقام أحدهم وذبحَها، وهيَّأت لهم طعامًا، فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفرٌ من قريش، فإذا رجعنا سالمين فألِمِّي بنا فإنا صانعون بكِ خيرًا، وأقبل زوجُها فأخبرته، فغضب وقال: ويلك تذبحين شاتي لقومٍ لا تعرفينهم ثم تقولين: نفرٌ من قريش!؟

قال: ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، وجعلا ينقلان



البعَر إليها ويبيعانه ويتعيَّشان بثمنه، فمرت العجوز ببعض السِّكك فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرفَها، فبعث غلامَه فدعا بها، وقال: أتعرفيني؟ قالت: لا، قال أنا ضيفك يوم كذا، فقالت: أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمرَ فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين، فقال الحسين: بكم وصلكِ أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر الحسين بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر فقال لها: بكم وصلكِ الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها بألفي شاة وألفي دينار، وقال: لو بدأتِ بي لأتعبتُهما، فرجعت إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة دارَه بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاءَ أهلِ خالد، فقال: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام ائتهم فأعلِمهم أن المال والدار لهم جميعًا.

بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمئة دينار، فبلغ ذلك الليثَ بن سعد فأنفذ إليه ألفَ دينار، فغضب هارون وقال: أعطيتُه خمسمئة وتعطيه ألفًا وأنت من رعيَّتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لي من غلَّتي كل يوم ألف دينار، فاستحيَيت أن أعطيَ مثلَه أقلَّ من دخلِ يوم. وحُكي أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخلَه كل يوم ألفُ دينار.

وسألت امرأة الليثَ بن سعد رحمة الله عليه شيئًا من عسل، فأمر لها بزق، فقيل له: إنها كانت تقنع بدون هذا، فقال: إنها سألت على قدرِ حاجتِها ونحن نعطيها على قدرِ النعمة علينا. وكان الليث لا يتكلم كل يوم حتى يتصدَّق على ثلاثمئة وستين مسكينًا.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودُها بالغداة والعشي، ويسألني هل استوفَت علَفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنَها؟ فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللِّبِد الذي أجلس عليه، حتى وصل إليَّ في علةِ الشاة أكثر من ثلاثمئة دينار من برِّه، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

ومرض قيسُ بن سعدِ بن عبادة فاستبطأ إخوانَه، فقيل: إنهم يستحيُون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، فانكسرت درجتُه بالعشي لكثرةِ مَن زاره وعادَه.

وعن أبي إسحاق قال: صليت العصر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريمًا، فوُضِع بين يديَّ حلة ونعلان، فقلت: لست من أهل هذا المسجد، قالوا: إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكلِّ مَن صلى في المسجد بحلَّة ونعلين.

وروي أن الشافعي مَرِض مَرَضَ موته بمصر قال: مُروا فلانًا يغسلني، فلما توفي حضر وقال: ائتوني بتذكرته، فإذا فيها على الشافعي سبعون ألف درهم، فكتَبها على نفسه وقضاها عنه، وقال: هذا غسلي إياه. قال أبو سعيد الواعظ: لمَّا قدمتُ مصرَ طلبت منزلَ ذلك الرجل، فرأيت جماعةً من أحفاده فيهم سيما الخير وآثار الفضل، فقلت: بلغَ أثرُه إليهم مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وعن الربيع قال: أخذ رجلٌ بركابِ الشافعي فقال: أعطِه أربعةَ دنانير واعتذر إليه عني. وقال الربيع: سمعتُ الحميدي يقول: قدمَ الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار، فضرب خباءَه خارجَ مكة، ثم أقبل على



كلِّ مَن دخل عليه يقبض له قبضةً ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء. وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروجَ إلى مكة ومعه مال، وكان قلَّما يمسك شيئًا من سماحته، فقلت: ينبغي أن تشتريَ بهذا المال ضيعةً تكون لك ولولدك، فخرج ثم قدم، فسألته فقال: ما وجدتُ بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريَها لمعرفتي بأصلِها وقد وُقفَ أكثرها، ولكني بنيتُ بمنًى مضربًا يكون لأصحابنا إذا حجُّوا أن ينزلوا فيه. وأنشد الشافعي رحمه الله يقول:

أرى نفسي تتوقُ إلى أمورٍ   يقصُر دونَ مبلَغهِنَّ مالي
فنفسي لا تطاوعُني ببخلٍ   ومالي لا يبلِّغني فعالي

ودخل عبَّادٌ المهلَّبي على المأمون فوصلَه بمئة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها، فلما عاد إليه عاتبهُ في ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، منعُ الموجود سوءُ ظنٍّ بالمعبود، فوصلهُ بمئة ألف أخرى.

وكان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد فقال طلحة: قد تهيَّأَ مالُك فاقبضه، قال: هو لك يا أبا محمد معونةً لك على مروءتك. وقالت سُعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت منه ثقَلًا، فقلت له: مالك؟ فقال: اجتمع عندي مالٌ وقد غمَّني، قلت: وما يغمُّك ادعُ قومَك، قال: يا غلام عليَّ بقومي، فقسَمه فيهم، فسألتُ الخادم كم كان؟ قال: أربعمئة ألف.

وقيل: بكى عليٌّ كرم الله وجهه يومًا فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتِني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون اللهُ قد أهانني.

وأتى رجلٌ صديقًا له فدقَّ عليه الباب، قال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ



أربعمئة درهم دين، فوزنَ أربعمئة درهم وعاد يبكي، قالت امرأته: لِم أعطيته إذ شق عليك؟ قال: إنما أبكي لأني لم أتفقَّد حالَه حتى احتاج إلى مُفاتَحتي.

فرحمَ الله مَن هذه صفاتُهم وغفر لهم أجمعين.

❖ **ذم البخل:**

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اتقوا الشحَّ فإن الشحَّ أهلكَ مَن كان قبلَكم، حملَهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمَهم**»(١) وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنةَ بخيلٌ ولا خِبٌّ ولا خائن ولا سيِّئُ الملَكة**»(٢) وفي رواية: «**ولا منّان**»(٣)، وقال ﷺ: «**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخُلُق**»(٤)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجُبْن**»(٥)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**شرُّ ما في الرجل شحٌّ هالع وجبنٌ خالع**»(٦)، وقال جبير بن مطعم: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مُقفِلةٌ مِن خيبر إذ علِقت برسولِ الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرة فخُطفَت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي**

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٣).

(٣) رواه الترمذي وحسنه (١٩٦٣)، وابن ماجه (٣٦٩١).

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٢).

(٥) رواه البخاري (٦٣٦٥).

(٦) رواه أبو داود بسند جيد (٢٥١١).

فوَالذي نفسي بيده لو كان لي عددُ هذه العِضاه نَعَمًا لقسمتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذابًا ولا جبانًا»[١]، وقال عمر رضي الله عنه: قَسَم رسول الله ﷺ قَسمًا فقلت: غيرُ هؤلاء كان أحقَّ به منهم، فقال: «إنهم يخيِّروني بين أن يسألوني بالفُحش أو يبخِّلوني، ولست بباخل»[٢]، وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمنَ بعير فأعطاهما دينارين، فخرجا مِن عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفًا وشكرًا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا، فقال ﷺ: «لكن فلان أعطيتُه ما بين عشرة إلى مئة ولم يقل ذلك، إنَّ أحدَكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبِّطها وهي نار» فقال عمر: فلِمَ تُعطِهم ما هو نار!؟ فقال: «يأبون إلا أن يسألوني ويأبى اللهُ لي البخل»[٣].

❖ **الآثـار:**

قال محمد بن المنكدر: كان يُقال: إذا أراد الله بقومٍ شرًّا أمَّر عليهم شرارَهم، وجعل أرزاقَهم بأيدي بُخلائهم. وقال علي كرم الله وجهه ورضي عنه في خطبته: إنه سيأتي على الناس زمانٌ عَضوضٌ يعضُّ الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال عبد الله بن عمرو: الشحُّ أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشحُّ على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده. وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ [يس: ٨]،

(١) رواه البخاري (٢٨٢١).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (٣٤١٤)، وأبو يعلى (١٣٢٧)، والحاكم (١/١٠٩)، قال: صحيح على شرط الشيخين. وأحمد (١١١٢٣)، قال الهيثمي (٣/٩٤): «رجاله رجال الصحيح». والبزار (٢٢٤).

قال: البخل، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى. وقال كعب: ما من صباحٍ إلا وقد وكِّل به ملَكان يناديان: اللهم عجِّل لمُمسكٍ تلفًا، وعجِّل لمُنفقٍ خلَفًا.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أعدِّل بخيلًا لأن البخلَ يحمله على الاستقصاء، فيأخذَ فوق حقه خيفةً مِن أن يُغبن، فمَن كان هكذا لا يكون مأمونَ الأمانة. وقال علي كرم الله وجهه ورضي عنه: والله ما استقصى كريم قطُّ حقَّه، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ وقال بِشرٌ: النظر إلى البخيل يقسِّي القلب، ولقاء البُخلاء كربٌ على قلوبِ المؤمنين.

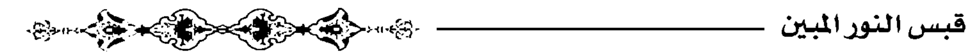
❖ حكايات البخلاء:

قيل: كان بالبصرة مُوسِرٌ بخيل، فدعاه بعضُ جيرانه وقدَّم إليه طباهجةَ بيضٍ فأكثرَ وجعل يشرب فانتفخَ بطنُه ونزلَ به الكرب، فجعل يتلوَّى، فوَصفَ حالَه للطبيب، فقال: لا بأس عليك، تقيَّأ ما أكلت، فقال: هاه أتقيأ طباهجةَ بيض!؟ الموت ولا ذلك.

وقيل: أقبلَ أعرابي يطلب رجلًا، وبين يديه تينٌ، فغطى التينَ بكسائه، فجلس الأعرابي فقال له الرجل: هل تحسنُ من القرآن شيئًا؟ قال: نعم فقرأ **والزيتون وطور سينين** فقال: وأين التين؟ قال: هو تحت كسائك.

ودعا بعضُهم أخًا له ولم يُطعمه، فحبسَه إلى العصر حتى اشتدَّ جوعُه، فأخذَ صاحبُ البيت العُود وقال له: أيَّ صوتٍ تشتهي أن أُسمعَك؟ قال: صوتُ المِقلَى.

وخرج رجلٌ يريدُ الخليفة المهدي فقالت له امرأة: ما لي عليك إن



رجعتَ بالجائزة؟ فقال: إن أُعطيتُ مئة ألف أعطيتُك درهمًا، فأُعطي ستين ألفًا فأعطاها أربعةَ دوانق. واشترى رجل لحمًا بدرهم فدعاه صديقٌ له فردَّ اللحمَ إلى القصاب بنقصانِ دانق، وقال: أكره الإسراف.

وكان للأعمش جارٌ لا يزال يَعرض عليه المنزل ويقول: لو دخلتَ فأكلتَ كسرةً وملحًا، فيأبى، فعرضَ عليه ذات يومٍ فوافقَ جوعَه فقال: سِر بنا فدخل منزلَه فقرَّب كسرةً وملحًا، فجاء سائل فقال له: بورك فيك، فأعاد عليه المسألة، فقال له: بورك فيك، فلمّا سأل الثالثة قال له: اذهب والله وإلا خرجتُ إليك بالعصا، فناداه الأعمش وقال: اذهب فلا والله ما رأيت أحدًا أصدق مواعيد منه، هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فما زادني عليهما.

❖ الإيثار وفضله:

كلٌّ من السخاء والبخل درجات، فأرفعُ درجةِ السخاء الإيثار، وهو أن يجودَ مع الحاجة. وقد ينتهي البخل إلى أن يبخلَ على نفسه مع الحاجة. فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاقَ عطايا الله يضعُها حيث شاء.

وقال ﷺ: «**أيُّما امرئ اشتهى شهوةً فردَّ شهوتَه وآثرَ على نفسه غُفر له**»(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبعَ آلُ محمدٍ منذُ قدم المدينة ثلاثةَ ليال تباعًا حتى قُبض(٢). ونزلَ برسول الله ﷺ ضيفٌ فلم يجد عند أهله شيئًا، فدخل رجلٌ من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام

---

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء (٢/٧٦، ترجمة ٦٢٤)، وابن عدي (٥/١٢٣، ترجمة ١٢٨٩) كلاهما في ترجمة عمرو بن خالد، قال ابن عدي: «عامة ما يرويه موضوعات». والحديث أورده ابن طاهر المقدسي في تذكرة الموضوعات (٣٤٩). ورواه أبو الشيخ بسند ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

وأمر امرأتَه بإطفاء السراج، وجعل يمدُّ يدَه إلى الطعام كأنه يأكل، ولا يأكل حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «**لقد عجبَ الله من صنيعِكم الليلةَ إلى ضيفكم**» ونزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][1]. فالإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ.

وخرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعةٍ له فنزل على نخيلِ قومٍ وفيه غلامٌ يعمل، أُتِيَ بقوته، فدخل الحائطَ كلبٌ فرمى إليه الغلام بقرص فأكلَه، ثم رمى إليه الثاني والثالث، وعبد الله ينظر، فقال: كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلِم آثرتَ به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافةٍ بعيدة جائعًا، فكرهتُ أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانعٌ اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله: أُلامُ على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى مني، فاشترى الحائطَ والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهبَه إياه.

وقال عمر رضي الله عنه: أُهدي إلى رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي كان أحوجَ مني إليه، فبعث به إليه، فلم يزل واحدٌ يبعثُ به إلى آخر حتى تداولَه سبعةُ أبياتٍ ورجع إلى الأول.

وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمعَ عنده نيِّفٌ وثلاثون نفسًا في قريةٍ بقربِ الرَّي ولهم أرغفة معدودة لا تُشبعُ جميعَهم، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رُفِع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئًا إيثارًا لصاحبه على نفسه.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٩٧)، ومسلم (٢٠٥٤).



وجاء سائلٌ شعبةَ وليس عنده شيء، فنزع خشبةً من سقفِ بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه.

وقال حذيفة العدوي: انطلقتُ يوم اليرموك أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ومعي شيءٌ من ماء وأنا أقول: إن كان به رمقٌ سقيتُه ومسحتُ به وجهَه، فإذا أنا به فقلتُ: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه... فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئتُه فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه... فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعتُ إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.. رحمةُ الله عليهم أجمعين.

وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحدٌ من الدنيا كما دخلها إلا بِشر بن الحارث، فإنه أتاه رجلٌ في مرضِهِ فشكا إليه الحاجة فنزعَ قميصَه وأعطاه إياه، واستعار ثوبًا فمات فيه.

وقال بعضهم: كنا جماعةً خرجنا من طرسوس، فتبعَنا كلبٌ، فبلَغنا ظاهر الباب فإذا بدابة ميتة، فصعِدنا إلى موضع عال وقعدنا. فلما نظر الكلبُ إليها رجع إلى البلد، ثم عاد ومعه مقدار عشرين كلبًا وقعد ناحيةً ووقعت الكلابُ في الميتة وهو ينظر، حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب، فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها ثم انصرف.

❖ حد السخاء والبخل:

خُلِق المالُ لحكمةٍ ومقصود، ويمكن إمساكُه عن الصرف إلى ما خُلق للصرف إليه، ويمكن بذلُه بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن

التصرف فيه بالعدل، وهو أن يُحفظَ حيث يجب الحفظ، ويُبذل حيث يجب البذل، فالإمساك حيث يجب البذل بخلٌ، والبذل حيث يجب الإمساكُ تبذير. وبينهما وسطٌ وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يُؤمرْ رسول الله إلا بالسخاء، فقيل له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالجود وسطٌ بين الإسراف والإقتار، ولا يكفي أن يفعلَ ذلك بجوارحهِ ما لم يكن قلبُه طيِّبًا به غيرَ منازعٍ فيه. فإن بذلَ ونفسُه تنازعهُ فهو مُتَسخٍّ وليس بسَخيٍّ.

والذي يجب بذلُه قسمان: واجبٌ بالشرع، وواجبٌ بالمروءة. فإن منع واحدًا منهما فهو بخيل، ومانعُ واجبِ الشرعِ أبخل.

وواجب المروءة تركُ المضايقة والاستقصاء في المحقّرات. فالبخيل هو الذي يمنعُ حيث ينبغي ألَّا يمنع بحكم الشرع أو المروءة، فمن أدَّى واجبَ الشرع والمروءة تبرَّأ من البخل، ولا يتَّصف بصفةِ الجود والسخاء ما لم يبذل زيادةً على ذلك.

فاصطناعُ المعروف وراء ما توجبه المروءة هو الجود، بشرط أن يكون عن طيبِ نفسٍ ولا يكون عن طمعٍ أو رجاء خدمةٍ أو مكافأةٍ أو شكرٍ أو ثناء، فإن مَن طمعَ في الشكر والثناء فهو بيَّاع لا جواد، والجود بذل الشيء مِن غير عوَض. وهذا لا يُتصوَّر على الحقيقة إلا من الله تعالى، أما الآدمي فاسمُ الجود عليه مَجاز إذا لا يَبذل إلا لغرض، لكن إن لم يكن غرضُه إلا الثوابَ وتطهيرَ النفس فيُسمَّى جَوادًا. وسألَت بعض المتعبِّدات: ما السخاءُ في الدين؟ قالوا: أن نعبدَ اللهَ سبحانه سخيَّةً بها أنفسُنا غير مُكرَهة، قالت: وتريدون على ذلك



أجرًا؟ قالوا: نعم، قالت: ولِم؟ قالوا: لأن اللهَ وعدَنا بالحسنة عشَرةَ أمثالِها، قالت: فإذا أُعطيتم واحدةً وأخذتم عشَرة فبأي شيء تسخَّيتم!؟ قالوا: فما السخاءُ عندك؟ قالت: أن تعبدوا الله متنعِّمين متلذِّذين بطاعته لا تريدون على ذلك أجرًا حتى يكون مولاكم يفعلُ بكم ما يشاء.

وقالت بعض المتعبِّدات: أتحسَبون أن السخاءَ في الدراهم والدنانير فقط؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المُهَج. وقال المحاسَبي: السخاء في الدين أن تسخوَ بنفسك تُتلفُها لله عز وجل، ويسخوَ قلبُك ببذلِ مُهجتِك وإهراقِ دمِك لله تعالى بسماحةٍ من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثوابًا عاجلًا ولا آجلًا، وإن كنت غير مُستغنٍ عن الثواب ولكن يغلبُ على ظنِّك حُسنُ كمالِ السخاءِ بتركِ الاختيارِ على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تُحسنُ أن تختارَ لنفسك.

❖ بيان علاج البخل:

سببه حبُّ المال، ولحبِّ المال سببان:

أحدهما: حبُّ الشهوات المتوصَّل إليها بحب المال مع طولِ الأمل، فإن قصُر أملُه ربما لم يبخل، لكن مَن كان له أولادٌ فقد يقيمُهم مقامَ طول الأمل، فإذا انضاف إلى ذلك خوفُ الفقر وقلةُ الثقة بمجيء الرزق قويَ البخل.

السبب الثاني: محبةُ عينِ المال: فمِنَ الناس مَن معه ما يكفيه وزائدٌ ولا تسمح نفسُه بإخراجِ الزكاة ولا بمداواةِ نفسه عند المرض، عاشقًا للدنانير يكنزُها وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ولا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدَّق، وهذا مرضٌ للقلب عظيمٌ عسير العلاج لاسيما في الكِبَر،

فالدنانير رسولٌ يبلِّغ إلى الحاجات، وهذا نسي الحاجات، فصار الذهب محبوبًا في نفسه، وهذا غاية الضلال. وإنما علاج كلِّ علة بمضادَّة سببها، فتُعالِج حبَّ الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالجُ طولَ الأمل بكثرة ذكرِ الموت والنظرِ في موتِ الأقران وطول تعبِهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالِج التفاتَ القلب إلى الولد بأنَّ خالقَه خلقَ معه رزقَه، وكم مِن ولدٍ ولم يرث من أبيه مالًا وحالهُ أحسنُ ممَّن ورِث، وأن ولدَه إن كان تقيًّا صالحًا فالله كافيه، وإن كان فاسقًا يستعين بمالِه على المعصية وترجع مظلمتُه إليه، ويعالج قلبَه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء.

ومن الأدوية النافعة التأملُ في أحوال البخلاء ونَفرة الطبعِ عنهم واستقباحهم، والبخيل يستقبح البخلَ من غيره، ويستثقل البخيلَ من أصحابه، فيعلم أنه مُستثَقلٌ مستَقذر مثل سائر البخلاء. ويتفكَّر في مقاصدِ المال ولماذا خُلق، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذلَ خيرٌ له في الدنيا والآخرة هاجت رغبتُه في البذل، وتزول صفةُ البخل بالبذل تكلُّفًا.

ومن لطائفِ الحِيَل أن يخدع نفسَه بحُسن الاسم والاشتهار فيبذل على الرياء، فإذا سمحت نفسُه بالبذل وأزال خَبثَ البخل ينعطف على خبث الرياء ويُزيله بعلاجه، كما يُسلَّى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لينفكَّ عن الثدي ثم يُنقَل إلى غيره، وهذا في حقٍّ من كان البخلُ أغلبَ عليه من حبِّ الجاه والرياء، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل، فإن مرضَ البخل أغلظُ على قلبه، يُقال: إن الميت تستحيل أجزاؤه دودًا ويأكل بعض الديدان البعض، حتى ترجع إلى اثنتين تتقاتلان فتقتل إحداهما الأخرى ثم تبقى جائعة إلى أن تموت، فكذلك الصفات الخبيثة يمكن تسليط بعضِها على بعض ويجعل الأضعفَ قوتًا للأقوى إلى ألَّا يبقى إلا

واحدة، تقع العناية بمحوها وإذابتها، ومنعُ القوت عن الصفات ألَّا يعملَ بمقتضاها، فإذا خولفت خمَدت الصفات وماتت.

وكان من عادة بعض الشيوخ في معالجة علَّة البخل أن يمنع المريدين من الاختصاصِ بزواياهم، وإذا توهَّم في مريدٍ فرحَه بزاويته نقله إلى غيرِها، ونقلَ زاويةَ غيره إليه، وإذا رآه يلتفت إلى ثوبٍ جديد يلبسه أو سجادة يأمره بتسليمها إلى غيره. فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا، فمن لم يسلُكْ هذا السبيل أنِس بالدنيا وأحبَّها.

حُمل إلى بعض الملوك قَدَحٌ من فيروزج مرصَّع بالجواهر لم يُرَ له نظير، ففرح الملك فرحًا شديدًا، فقال لحكيمٍ عنده: كيف ترى هذا؟ قال: مصيبةً أو فقرًا، قال: كيف؟ قال: إن كُسر كان مصيبة لا جبرَ لها، وإن سُرق صرت فقيرًا إليه، وقد كنتَ قبل أن يُحمل إليك في أمنٍ منهما، ثم اتفق يومًا أن كُسر أو سُرق وعظُمت مصيبة الملك، فقال: صدق الحكيم، ليته لم يُحمل إلينا!

ومن عرف آفةَ المال لم يأنس به، ولم يأخذ إلا بقدر حاجته.

❖ الوظائف التي على العبد في ماله:

هو خيرٌ من وجهٍ، وشرٌّ من آخر، كحيةٍ يستخرج الراقي منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمُّها، ولا يخلو أحدٌ عن سم المال إلا بالمحافظةِ على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصودَه ولماذا خُلق، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعيَ جهةَ دخلِه فيجتنبَ الحرامَ والجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة والسؤال الذي فيه الذلة وهَتك المروءة.

الثالثة: في المقدار فلا يستكثر ولا يستقل، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة.

الرابعة: أن يراعيَ جهةَ المخرَج ويقتصدَ غير مبذِّر ولا مقتِّر.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ليستعين على العبادة، ويترك زهدًا فيه واستحقارًا له. قال علي رضي الله عنه: لو أن رجلًا أخذ جميعَ ما في الأرض وأراد به وجهَ الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجهَ الله تعالى فليس بزاهد.

وأبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة، وهما مُعينان عليها، فإذا كان ذلك قصدَك صار ذلك عبادةً في حقك. وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية، فكلٌّ مما يُحتاج إليه في الدين، وما فضَل يقصد به أن ينتفع به عبدٌ لله ولا يمنعه عند الحاجة، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حيةِ المال جوهرَها وترياقَها واتقى سمَّها، ولا يتأتَّى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمُه وعظُم علمُه.

قال الحارث المحاسبي عليه رحمة الله: وبعدُ فإن أخيارَ الصحابة كانوا للمسكنة مُحبِّين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله في أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضراء صابرين، وفي السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعن حبِّ العلو والتكاثر وَرِعين. بلَغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل صعاليكُ المهاجرين قبل أغنيائهم الجنةَ بخمسمئة عام**»[1]، وللنسائي: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام**»[2]، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون**

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٤٨).



الأغنياءَ إلى الجنة بأربعين خريفًا»[1].

وعن مَعْقِل بن يسار قال: وضَّأت النبيَّ ﷺ ذات يوم فقال: هل لك في فاطمة تعودها؟ فقلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقفتُ بباب منزلها، فقرع الباب وقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقالت: أدخل يا رسول الله، قال: أنا ومن معي؟ قالت: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما عليَّ إلا عباءة، فقال: اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريتُه، فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءةً كانت عليه خلِقة، فقال: شُدِّي بها على رأسك، ثم أذنَت له فدخل، فقال: السلام عليك يا بنتاه، كيف أصبحت؟ قالت: أصبحت وجِعةً وزادني على ما بي أني لستُ أقدر على طعامٍ آكله، فقد أجهدني الجوع، فبكى رسول الله، وقال: لا تجزعي يا بنتاه، فوَالله ما ذقتُ طعامًا منذ ثلاثة، وإني لأَكرَم على الله منك، ولو سألتُ ربي لأطعمني، ولكني آثرتُ الآخرةَ على الدنيا، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة، فقالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران؟ فقال: آسية سيدة نساء عالمِها، ومريم سيدة نساء عالمِها، وخديجة سيدة نساء عالمِها، وأنت سيدةُ نساء عالمِك، إنكنَّ في بيوتٍ من قصب لا أذى فيها ولا صخب، ثم قال لها: «اقنعي بابن عمك، أما ترضين أن زوَّجتك أقدمَ أمتي سِلمًا، وأكثرهم عِلمًا، وأعظمَهم حِلمًا»[2]. وبالله التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٧٩).

(٢) رواه أحمد (٢٠٣٠٧)، وقال الهيثمي (١٤٥٩٥): «رواه أحمد والطبراني وفيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله ثقات» وقال العراقي في تخريج الإحياء: «والطبراني وإسناده صحيح».

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المطَّلعِ على سرائرِ القلوب، المتجاوزِ عن كبائرِ الذنوب، العالِم بما تُجنُّه الضمائرُ من خفايا الغيوب، لا يَقبل من الأعمال إلا ما خلصَ عن شوائبِ الرياءِ والشرك، وصفا فهو أغنى الأغنياءِ عن الشرك. والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله وأصحابه المبرَّئين من الخيانةِ والإفك، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوفَ ما أخافُ على أمتي الرياء والشهوة الخفية**»[1]، والرياء من الشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيبِ النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء[2]. ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرةُ العلماء، وهو من أواخرِ غوائل النفس وبواطن مكايدِها.

ويُبتلى به العلماء والعُبَّاد إذ قهروا أنفسَهم وفطمُوها عن الشهوات، وصانُوها عن الشبهاتِ، فعجزت عن الطمع في المعاصي الظاهرة، فطلبت الاستراحةَ إلى التظاهر بالخير، فوجدت مَخلَصًا من مشقَّة المجاهدة إلى لذَّة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، والحاكم (٣٦٦/٤) وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: «فيه عبد الواحد بن زيد متروك». بلفظ: «الشرك» بدل الرياء وفسَّراه به. وأحمد (١٧١٢٠)، والطبراني (٧١٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٨/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠).

(٢) قال الزبيدي في الإتحاف (٢٣١/٨): «وقد ورد هكذا في الشرك الخفي، وفي حديث ابن عباس: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب الذر على الصفا» رواه أبو نعيم في الحلية» (١١٤/٣).

القبول عند الخلق، فلم تقنع باطِّلاعِ الخالق، وفرحت بحَمدِ الناس، فاستحقرتِ النفسُ تركَ المعاصي والهفوات، واستلانَت خشونةَ المواظبةِ على العبادات، لإدراكها في الباطن لذةَ اللذات وشهوة الشهوات، ويرى أنه مُخلصٌ وقد أبطنت النفسُ هذه الشهوة تَزيُّنًا وتصنُّعًا وفرحًا بالمنزلةِ عند الناس، فوجب شرحُ القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطُرق معالجته والحذر منه.

❖ بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

هو مذموم، والمحمود الخمول إلا من شهَرهُ الله تعالى لنشرِ دينه مِن غير طلبِ الشهرةِ منه، قال سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه: تبذَّل ولا تَشتهِر، ولا ترفع شخصَك لتُذكر، وتعلَّم واكتُم واصمت تسلَم تَسرُّ الأبرارَ وتغيظُ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدقَ اللهَ مَن أحبَّ الشهرة. وقال أيوب السَّختِياني: والله ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرَّه ألَّا يُشعَر بمكانه. وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أُبَيِّ بن كعب نمشي خلفَه إذ رآه عمر فعَلاه بالدُّرّة، فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذِلةٌ للتابع وفتنةٌ للمتبوع.

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يومًا مِن منزلِه فاتَّبعَه ناسٌ، فالتفَت إليهم فقال: علاَم تتَّبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أُغلق عليه بابي ما اتَّبعني منكم رجلان. وقال الحسن: إن خَفقَ النِّعال حولَ الرجال قلَّما تَثبتُ عليه قلوبُ الحمقى. وخرج أيوب في سفرٍ فشيَّعه ناسٌ كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن اللهَ يعلم مِن قلبي أني لهذا كارهٌ لخشيتُ المَقتَ مِن الله عز وجل. وقال معمر: عاتبتُ أيوبَ على طول قميصِه، فقال: إن الشهرةَ فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره. وقال بشر: ما أعرف رجلًا أحبَّ أن يُعرفَ إلا ذهبَ

دينُه وافتُضِح، وقال أيضًا: لا يجد حلاوةَ الآخرة رجلٌ يحب أن يعرفَه الناس، رحمةُ الله عليه وعليهم أجمعين.

❖ فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه»[1]، ورواه الحاكم بلفظ «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين تَنبُو عنه أعينُ الناس لو أقسم على الله لأبرّه»[2]، وقال ﷺ: «ألا أدلُّكم على أهل الجنة؟ كل ضعيفٍ مُستَضعَفٍ لو أقسم على الله لأبرّه، وأهلُ النار كل متكبِّر مستكبر جوَّاظ»[3]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ مِن أُمّتي مَن لو أتى أحدَكم يسألُه دينارًا لم يعطِهِ إياه، ولو سأله درهمًا لم يعطه إياه، ولو سأله فلسًا لم يعطه إياه، ولو سأل اللهَ الجنةَ لأعطاه إياها»[4]. ورُوي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبرِ رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن اليسيرَ من الرياء شرك، وإن اللهَ يحب الأتقياءَ الأخفياءَ الذين إن غابوا لم يُفتَقدوا، وإن حضروا لم يُعرفوا، قلوبُهم مصابيحُ الهدى ينجون من كل غبراءَ مظلمة»[5].

وقال محمد بن سويد: قحطَ أهلُ المدينة وكان بها صالحٌ لا يُؤبهُ له، ملازمٌ مسجدَ النبي ﷺ، فبينما هم في دعائهم جاءهم رجلٌ عليه طِمران،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٦٤/٤) وقال: صحيح الإسناد. وأبو نعيم في الحلية (٧/١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح (٧٥٤٨).

(٥) رواه الطبراني (٣٦/٢٠، رقم ٥٣)، والحاكم (٣٠٣/٣)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥/١).

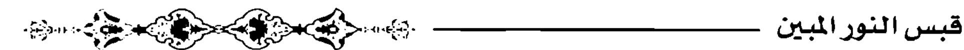
فصلى ركعتين وأوجزَ، ثم بسط يديه فقال: يا رب أقسمتُ عليك إلا أمطَرت علينا الساعة، فلم يرُدَّ يديه حتى تغشَّت السماء بالغمام، وأُمطروا حتى صاحَ أهلُ المدينة مخافةَ الغرق، فقال: يا رب إن كنتَ تعلم أنهم قد اكتفَوْا فارفع عنهم، وسكن، وتبع الرجل حتى عرفَ منزلَه ثم بكَّر عليه فخرج إليه فقال: أتيتُك في حاجة أن تخصَّني بدعوة، قال: سبحان الله أنت أنت وتسألُني أن أخصَّك بدعوة!؟ ثم قال: ما الذي بلَّغك ما رأيت؟ قال: أطعتُ اللهَ فيما أمرني ونهاني، فسألت اللهَ فأعطاني.

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك مِن أرفعِ خلقِك، واجعلني عند نفسي مِن أوضع خلقِك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرَّت عيني يومًا في الدنيا قطُّ إلا مرة، بتُّ في بعض المساجد وكان بي البطنُ، فجرَّني المؤذنُ برجلي حتى أخرجني من المسجد.

فإن قلتَ: فأي شهرةٍ تزيد على شهرةِ الأنبياء والخلفاءِ الراشدين وأئمةِ العلماء! فاعلم أن المذموم طلبُ الشهرة، فأما وجودُها من جهة الله سبحانه مِن غير تكلُّفٍ مِن العبد فليس بمذموم. نعم فيه فتنةٌ على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعةٌ مِن الغرقى فالأولى ألَّا يعرفهُ أحدٌ منهم فيتعلَّقون به فيهلِك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفَه الغرقى ليتعلَّقوا به فينجيَهم ويثاب.

❖ ذم الجاه:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، جمعَ بين إرادة الفساد والعلوّ، وبيَّن أن الآخرةَ



للخالي عنهما، وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود]، وهذا متناولٌ لحبِّ الجاه فإنه أعظمُ لذَّات الحياة الدنيا وأكثرها زينة.

❖ الجاه وحقيقته:

الجاه والمال رُكنا الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان، ومعنى الجاه ملك القلوب، ليتوصّل بكلٍّ إلى الأغراض والمقاصد، فيُكتسب المال بأنواع الحِرف والصناعات وتُكتسَب القلوب بأنواعٍ من المعاملات، وكل من اعتقد القلب فيه وصفًا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخَّر له بحسب قوة الاعتقاد.

فمعنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، فبقدر ما يعتقدون مِن كماله تذعن قلوبُهم، وبقدر الإذعان تكون قدرتُه، وبقدرها يكون فرحهُ وحبهُ للجاه. وله ثمرات كالمدح والخدمة والإيثار والتوقير والتقديم.

ولا يخلو عن حب الجاه قلبٌ إلا بشديد المجاهدة. والدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما لكنهما وسيلة إلى المحابِّ، وكذلك الجاه يفيد التوصلَ إلى الأغراض، ويُرجَّح على المال لأن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه. وأن المال معرَّضٌ للبلوى والتلف، وخزائنُ القلوب محفوظةٌ بأنفسها، والجاه في أمنٍ من الغصب والسرقة. ولأنه ملكٌ ينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعبٍ ومقاساة.

فلا ينبغي للإنسان أن يحب من المال والجاه إلا ما يتوصَّل به إلى جلبِ الحاجة ودفع المضار، وفي الطباع أمرٌ عجيب وهو حبُّ جمعِ الأموال

وكَنز الكنوز، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، وكذلك محبة اتساع الجاه إلى أقاصي البلاد مع اليأس من وصوله إليها وذلك لسببين:

الأول: دفعُ ألمِ الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، فالإنسان وإن كان مكفيًّا في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال ربما يتلف فيحتاج إلى غيره فيهيج الخوف من قلبه، فهو أبدًا يقدِّر طولَ الحياة، ويقدِّر هجوم الحاجات، وإمكان تطرُّق الآفات إلى ماله، وهذا خوفٌ لا يوقف له على مقدار، قال رسول الله ﷺ: «**منهومان لا يشبعان: منهوم العلم ومنهوم المال**»[1]، وتطَّرد هذه العلة في حب الجاه فإنه يقدر سببًا يزعجه عن الوطن أو يزعج بعيدين إلى وطنه، فلم يكن احتياجه إليهم مستحيلًا.

والسبب الثاني: وهو الأقوى، لأن الروحَ أمرٌ رباني، ومعناه من أسرار علوم المكاشفة لا رخصةَ في إظهاره، ولكنك تعلم أن للقلب ميلًا إلى صفات بهيمية كالأكل، وسَبُعية كالقتل والضرب، وشيطانية كالمكر والخديعة، وإلى صفات الربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء. فصار الكمال من صفات الإلَهية، فصار محبوبًا للإنسان، والكمال المنفرد بالوجود هو الله، فإن ما سواه أثرٌ من آثار قدرته. وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانًا في الشمس بل من كمالها، وإنما نقصانها بوجود أخرى تساويها، فكذلك ما في العالم يرجعُ إلى إشراق أنوار القدرة ويكون تابعًا.

وكل إنسان بطبعهِ محبٌّ أن يكون هو المنفردَ بالكمال، ولذا قال بعض مشائخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرَّح به فرعون من

---

(١) رواه الطبراني (١٠٣٨٨) و(١١٠٩٥)، والدارمي (٣٣٤)، والبزار (زوائده ١٦٣) قال الهيثمي (١٣٥/١): «فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف»، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٠٢٧٩)، وابن أبي شيبة (٢٦٦٤٣)، والحاكم (٩٢/١)، ابن عدي (٢٩٥/٦، ترجمة ١٧٨٤).



قول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، ولكنه ليس يجد له مجالًا. ولكن لمَّا عجزت النفسُ عن دَرْك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فصار الاستيلاءُ محبوبًا بالطبع، فأحبَّ الإنسان أن يكون له استيلاء على الأشياء الموجودة معه، مما يقبل التغيير بقدرته كالأرض وأجزائها وما عليها، ومنها قلوب الناس، وما لا يقدر على التأثير فيه أحبَّ العلمَ به والاطلاعَ عليه كالسماوات والملائكة والأفلاك والبحار والجبال. وأما ما يقدر عليها فإنه يحب أن يستوليَ بالقدرة على التصرف فيها كالدراهم والدنانير، ونفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفسُ ما على وجه الأرض، وإنما تتسخَّر بالمحبة وتحب باعتقاد الكمال.

فإذن مطلوب القلوب الكمال. والكمال بالعلم والقدرة، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فهذا السبب في كون العلم والمال والجاه محبوبًا، وهو وراء كونه محبوبًا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات. وفي حبِّ كمالِ العلمِ والقدرةِ أغاليط لا بد من بيانها.

فالكمال حقيقي وآخر وهمي لا حقيقةَ له، ويلتبس الحقيقي بالوهمي، فكمال العلم لله، فإنه محيطٌ بجميع المعلومات، وكونُ المعلوم مكشوفًا به كشفًا تامًّا، ومن حيث إنه لا يتغير ولا يزول. والعبد كلما كانت علومُه أكثر كان أقربَ إلى الله، ومهما كان علمُه أوضحَ وأيقنَ وأصدقَ كان أقربَ إلى الله، ومهما كان بمعلوماتٍ لا تقبل التغيير كان أقرب، والمتغيراتُ كالعلمِ بكون زيدٍ في الدار، ويمكن أن يخرج فيبقى اعتقاد كونه في الدار جهلًا، ويلتحق به جميع متغيرات العالَم.

والثاني: معلومات أزلية بجواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالةِ

المستحيلات، وكل هذه داخلة في معرفة الله وما يجب له وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله وبصفاته وأفعاله وحِكمته في ملكوت السماوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرُب من يتَّصف به مِن الله، ويبقى كمالًا بعد الموت، ويكون نورًا للعارفين بعد الموت ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، فتكون المعرفةُ رأس مالٍ يوصل إلى كشفِ ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراجٌ يجوز أن يصير سببًا لزيادة النور بسراجٍ آخر يقتبس منه، فيكمل النور على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمعَ له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله لم يكن له مطمعٌ في هذا النور، فيبقى ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، بل ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإذًا لا سعادة إلا بمعرفة الله، وأما ما عدا ذلك فمنها ما لا فائدة له أصلًا، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، فتفيدُ استعدادَ النفس للتزكية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وإنما الكمال بمعرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات، إذ الموجودات من أفعاله، فمَن عرفَها من حيث هي فعلُ الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة فهي تكملة معرفة الله.

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد، وإنما القدرة الحقيقية لله،



وما يحدث عقيب إرادة العبد وحركته فبإحداث الله، وإنما كمالُه من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال، وهي وسيلة له إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي، فإنَّ هذه القوة آلةٌ للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه البتَّة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ومن ظن ذلك كمالًا فقد جهل، فالخلق أكثرُهم هالكون في غمرةِ هذا الجهل، إذ يظنون أن القدرة على الأجساد وأعيان الأموال وتعظيم القلوب كمالٌ، فأحبوه وطلبوه وشُغِلوا به وتهالكوا عليه ونسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القربَ من الله تعالى وهو العلم والحرية.

أما العلم: فما ذكرنا من معرفة الله.

وأما الحرية: فالخلاص مِن أسرِ الشهوات وغموم الدنيا. ودفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله استحالة التغيُّر، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعدَ كان إلى الله أقرب.

فإذن الكمالات ثلاثة: العلم والحرية وعدم التغيُّر بالشهوات، والمعرفة والحرية لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالًا. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبُّوا انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو لا يسلم ولا بقاءَ له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم وهو أبَدي، فاشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة، فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات، وكل ما تذرُوه رياحُ الموت فهو زهرةُ الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات



الصالحات. فقد عرفت أن كمال القدرة بالمال، والجاه ظنيٌّ لا أصلَ له.

ومن ينفقِ الساعاتِ في جمعِ مـاله مخافةَ فقـرٍ فـالذي فعـل: الفقـرُ

إلا قدْرَ البُلغة منهما إلى الكمال الحقيقي، اللهم اجعلنا ممن وفَّقتَه للخير وهديته بلطفك.

❖ بيان ما يُحمد من حب الجاه وما يذم:

عرفتَ أن معناه ملك القلوب، فهو كحكم ملك الأموال، عَرَضٌ ينقطع بالموت، يمكن أن يُتزَوَّد منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مالٍ لضرورة المطعَم والمشرب والملبس، فلا بدَّ من أدنى جاهٍ لضرورة المعيشة مع الخلق، ولا يخلو عن الحاجة إلى رفيقٍ يُعين وأستاذٍ يرشد وسلطان يحرس، فحبُّه لأن يكون له في قلب رفيقه محلٌّ يحسن به المرافقة، وفي قلب أستاذه محلٌّ يحسن به إرشاده والعناية به، ومحلٌّ في قلب سلطانه يحثُّه على دفع الشر عنه ليس بمذموم، يُنزَّل منزلة أن يحب الإنسان أن يكون له في داره بيتُ ماءٍ لقضاء حاجته، ويودُّ أن لو استغنى عن الحاجة فيستغني عن بيت الماء، فهذا ليس محبًّا لبيت الماء. فالجاه والمال حبُّهما لأعيانهما فيما يجاوز الضرورة مذمومٌ ولا يوصف صاحبُه بالفسق ما لم يحمله حبُّهما على مباشرة معصية، والتوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جنايةٌ على الدين، وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء.

وفي طلب المنزلة في قلب الأستاذ والخادم والرفيق والسلطان ثلاثة أوجه: مباحان ومحظور.

أما المحظور: فطلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة هو منفكٌّ عنها، فيُظهر أنه عالم أو وَرِعٌ وهو ليس كذلك، فهذا حرام.



أما المباحان: فطلب المنزلة بصفةٍ فيه، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف].

وطلب إخفاء عيبٍ من عيوبه ومعصيةٍ من معاصيه، لأن السَّتر على القبائح جائز، ولا يجوز هتكُه.

ومن المحظورات تحسين الصلاة بين يدي من يطلب المنزلةَ عنده، فطلب الجاه بهذا الطريق حرام، يجري مُجرَى اكتساب المال الحرام.

❖ السبب في حب المدح وبغض الذم:

لحب المدح أربعة أسباب:

الأول: شعور النفس بالكمال، إن الوصف إمّا أن يكون جليًّا أو مشكوكًا فيه واللذة به أكثر، فإن الإنسان ربما شكَّ في كمال علمه ووَرعه واشتاق إلى زوال هذا الشك، فتعظمُ اللذة إذا صدرَ الثناء من بصيرٍ بهذه الصفات، كفرحِ التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء، فإن صدر ممن يجازف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يُبغض الذم لأنه يُشعِره بنقصان نفسه، ويَعظُم إذا صدر من بصيرٍ موثوق به.

السبب الثاني: أن المدح يدلُّ أن قلبَ المادح مملوكٌ للممدوح، فتعظمُ اللذةُ إن صدر ممن تتَّسع قدرتُه، فإن كان ممَّن لا يُؤبَه له ضعُفت، وبهذه العلة يَكرهُ الذم ويَتألّم به.

السبب الثالث: أن المدح سببٌ لاصطياد قلب من يسمع المادح في ثناءٍ يقع على الملأ، وكلما كثُر الجمع كان ألذَّ، والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أنه يدل على حشمة الممدوح، فهي لذيذة لما فيها من القدرة والقهر.

فهذه الأسباب قد تجتمع في مدحِ مادحٍ فيعظم بها الالتذاذ. فأما العلة الأولى وهي استشعار الكمال فتندفع إذا علم أنه غير صادق، كما إذا مُدح أنه سخيٌّ أو عالم أو متورِّع وهو يعلم من نفسه ضدَّ ذلك، فتزول لذة استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على القلب وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت الثانية وهو استيلاؤه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة، فإن كان بطريق اللعب بطلت اللذات.

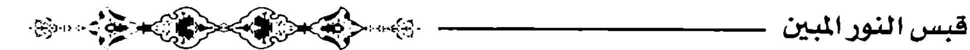
وذكرنا ذلك ليُعرف طريق العلاج لحبِّ الجاه وحبِّ المحمدة وخوف المذمة، والله الموفق بكرمه ولطفه، وصلى الله على كل عبد مصطفى.

❖ علاج حب الجاه:

مَن غلبَ على قلبهِ حبُّه صار مقصورَ الهمِّ على مراعاةِ الخلق، مشغوفًا بالتودُّد إليهم والمُراءاة لأجلهم، مُلتفتًا إلى ما يعظِّم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، يجرُّ إلى التساهل في العبادات واقتحام المحظورات، ولذا شُبِّه حبُّ الشرف والمال بذئبين ضارِيَيْن، وهو يُنبت النفاقَ كما يُنبت الماء البقل، إذ النفاق مخالفة الظاهر للباطن، ومن طلب المنزلةَ اضطر إلى النفاق وإلى التظاهر بخصالٍ هو خالٍ عنها.

فحب الجاه من المهلكات يجب إزالتُه وعلاجُه؛ وهو مُركَّبٌ من علم وعمل.

فأما العلم: فأن يعلم السببَ الذي لأجله أحبَّ الجاه، وهو القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بيَّنا أنه إن صفا فآخره الموت، بل لو سجد له كلُّ مَن على بسيط الأرض فإلى خمسين سنةٍ لا يبقى الساجد ولا



المسجود له، ويكون حاله كمن مات قبله، فلا ينبغي أن يُترَك به الدينُ الذي هو الحياة الأبدية.

ومن فهم الكمال الحقيقي والوهمي صغُر الجاه في عينه، فيصغر في عينِ مَن ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: (أما بعد: فكأنك بآخرِ مَن كُتب عليه الموتُ قد مات) مدَّ نظره نحو المستقبل وقدَّره كائنًا. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: (فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزَل) فالتفاتهم إلى العاقبة، فاستحقروا الجاه والمال.

وأبصار أكثر الخلق ضعيفة لا يمتدُّ نورُها إلى العواقب، مقصورةٌ على العاجلة، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة]، فينبغي أن يعالج قلبَه بالعلمِ بالآفاتِ العاجلة، بأن يتفكّر في الأخطار المُستهدَف لها أرباب الجاه في الدنيا مِن حسدٍ وقصدٍ للإيذاء وخوف على الدوام، والقلوب أشدُّ تغيُّرًا من القِدر في غليانها، والاشتغال بمراعاة القلوب ودفع كيد الحسَّادِ غمومٌ عاجلة ومكدِّرة للذَّة الجاه.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه بمباشرة أفعالٍ يسقط بها مِن أعين الخلق، وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول، وهذا مذهب المُلامتيَّة، وهو غير جائز إذا كانت الصورةُ لمحرم وهو يُقتدى به، والذي لا يُقتدى به لا يجوز له أن يُقدِم على محظور، بل أن يفعل من المباحات ما يُسقط قدرَه؛ كما رُوِي أن بعض الملوك قصد بعض الزُّهّاد، فلمَّا علم بقُربه منه استدعى طعامًا وبقلًا

وأخذ يأكل بشرَه ويعظِّم اللقمة، فلما نظر إليه سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفكَ عني.

وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال والهجرة إلى موضع الخمول، فإن المعتزِل في بلدٍ هو به مشهورٌ لا يخلو عن حبِّ المنزلة التي ترسخ في القلوب بسبب عزلته، وهو مغرورٌ سكنت نفسُه لِظفَرها بمقصودها، ولو ذموه ونسبوه إلى غير لائق به جزعت نفسه وتألَّمت، وتوصَّل إلى الاعتذار ربما بكذبٍ وتلبيسٍ. ومَن قطع الطمعَ عن الناس لم يبالِ بالمنزلةِ في قلوبهم، فمَن قنع استغنى، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس. فليستعِن بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول وينظر في أحوال السلف ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

❖ علاج حب المدح وكراهية الذم:

أكثر الناس هلكوا بخوفِ مذمةِ الناس وحبِّ مدحِهم، فصارت حركاتُهم موقوفةً على ما يوافق رضا الناس رجاءَ المدح وخوف الذم، فيجب معالجتُه، وطريقه ملاحظةُ الأسباب لحبِّ المدح وكراهة الذم.

فالأول: استشعار الكمال بقول المادح، فتُراجع عقلَك، فإن كنتَ مُتَّصفًا بالصفةِ التي مدحك، فهي إما تستحق المدحَ كالعلم والورع، وإما لا تستحقه كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية، فإن كانت من الأعراض فالفرح بها كالفرحِ بنباتِ الأرض الذي يصير على القرب هشيمًا تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل.

أشدُّ الغمِ عندي في سرورٍ ... تيقَّن عنه صاحبُه انتقالا

وإن كانت مما يستحق الفرح فينبغي ألَّا يفرح لأن الخاتمةَ غير معلومة،



ففي الخوف مِن سوئها شغلٌ عن الفرح، ثم إن كنتَ تفرح بها على رجاءِ حسن الخاتمة فليكن فرحُك بفضلِ الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدحِ المادح، والمدح لا يزيدك فضلًا، وإن كانت الصفةُ أنت خالٍ عنها ففرحك غاية الجنون، ومثالك كمَن يهزأ به إنسان ويقول: ما أكثرَ العطر الذي في أحشائه! وما أطيبَ الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجتَه! وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه، ثم يفرح! فكذلك إذا أثنَوْا عليك بالصلاحِ والورع ففرحتَ، والله مُطَّلعٌ على خبائثِ باطنِك وغوائلِ سريرتِك وأقذارِ صفاتِك. فالمادحُ إن صدقَ فليكُن فرحُك بصفتك التي هي مِن فضلِ الله، وإن كذب فينبغي أن يغمَّك ذلك.

والسبب الثاني: دلالةُ المدح على تسخيرِ قلبِ المادح، وكونه سببًا لتسخيرِ قلبٍ آخر، فعلاجُه ما سبقَ في علاجِ حبِّ الجاه والمنزلةِ في القلوب، بقطعِ الطمعِ عن الناس وطلبِ المنزلة عند الله، وأن تعلم أن طلبَك المنزلة في قلوبِ الناس وفرحك به يُسقطُ منزلَتَك عند الله.

والسبب الثالث: الحشمةُ التي اضطرت المادحَ إلى المدح، فهو يرجع إلى قدرةٍ عارضةٍ لا ثباتَ لها ولا تستحق الفرح، وآفةُ المدحِ على الممدوح عظيمة؛ قال بعض السلف: مَن فرحَ بمدحٍ فقد مكَّن الشيطانَ مِن أن يدخلَ في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك نِعم الرجلُ أنت، فكان أحبَّ إليك مِن أن يُقالَ لك: بئسَ الرجل أنت، فأنت واللهِ بئس الرجل. حتى إن بعضَ الخلفاء الراشدين سأل رجلًا عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خيرٌ مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمُرك بأن تزكِّيَني.

وإنما كرِهوا المدح خيفةَ أن يفرحوا بمدحِ الخلق وهم ممقوتونَ عند الله، لأن الممدوحَ هو المقرَّبُ عند الله، والمذمومَ بالحقيقة هو المُبعَد مِن الله

المُلقَى في النارِ مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله مِن أهل النار فما أعظمَ جهلَه إذا فرحَ بمدحِ غيره، وإن كانَ مِن أهلِ الجنةِ فلا ينبغي أن يفرحَ إلا بفضلِ الله تعالى وثنائه عليه، ومهما علم أن الأرزاقَ والآجالَ بيدِ الله قلَّ التفاتُه إلى مدحِ الخلق وذمِّهم وسقطَ مِن قلبه حبُّ المدح واشتغلَ بما يُهمُّه مِن أمرِ دينه، والله الموفق للصواب برحمته.

❖ علاج كراهة الذم:

القولُ الوجيز فيه أن مَن ذمَّك لا يخلو مِن ثلاثة أحوال:

إما أن يكون قد صدق وقصدَ به النُّصحَ والشفقة. وإما أن يكونَ صادقًا ولكن قصدَه الإيذاء والتعنُّت. وإما أن يكون كاذبًا.

فإن كان صادقًا وقصدُه النصحُ فلا ينبغي أن تذمَّه وتغضبَ عليه وتحقدَ بسببه، بل ينبغي أن تتقلَّد منَّته، فإن من أهدى إليك عيوبَك فقد أرشدَك إلى المَهلك حتى تتَّقيَه، فاغتمامُك غايةُ الجهل. وإن كان قصدُه التعنُّت فأنت قد انتفعتَ بقوله إذ أرشدكَ إلى عيبِك إن كنتَ جاهلا به وذكَّركَ عيبك إن كنتَ غافلًا عنه، أو قبَّحه لينبعثَ حرصُك على إزالتِه. وكلُّ ذلك أسبابُ سعادتِك، فاشتغل بطلبِ السعادة، فمهما قصدتَ الدخولَ على مَلكٍ وثوبُك مُلوَّثٌ وأنت لا تدري، ولو دخلت كذلك خفتَ أن يَحُزَّ رقبتَك لتلويثِك مجلسَه، فقال قائل: أيها الملوثُ طهِّر نفسَك، فينبغي أن تفرحَ به، لأن تنبيهَك غنيمة، وجميعُ مساوئِ الأخلاق مهلكةٌ في الآخرة، والإنسان يعرفُها مِن قولِ أعدائه، فينبغي أن يغتنمَه.

وقصدهُ التعنُّتَ جنايةٌ على دينِ نفسِه، فلِم تغضبُ بقولٍ انتفعتَ به أنت وتضرَّر هو به؟



الحالة الثالثة: أن يفتريَ عليك بما أنت بريءٌ منه عند الله، فينبغي ألَّا تكره ذلك ولا تشتغل بذمِّه، بل تتفكر في ثلاثةِ أمور:

أحدها: أنك لا تخلو عن أمثاله، وما ستره الله من عيوبِك أكثر، فاشكرِ الله إذ لم يُطلِعه ودفعَه عنك بذكرِ ما أنت بريءٌ عنه.

والثاني: أن ذلك كفاراتٌ لبقية مساوئك، فكأنه رماكَ بما أنت بريءٌ منه وطهَّرك مِن ذنوبٍ أنت ملوَّثٌ بها، ومَن اغتابَك فقد أهدى إليك حسناتِه، ومَن مدحَك فقد قطعَ ظهرك. فما بالك تفرح بقطعِ الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرِّبُك وأنت تزعمُ أنك تحبُّ القربَ من الله!؟

والثالث: أن المسكينَ قد جنى على دينه وأهلكَ نفسَه، فلا ينبغي أن تغضبَ عليه، فتُشمتَ به الشيطان، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه وتُب عليه، كما قال ﷺ: «**اللّٰهُمَّ اغفر لقومي، اللّٰهُمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1] لما أن كسروا ثنيَّته وشجُّوا وجهَه وقتلوا عمَّه حمزة يوم أُحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمَن شجَّ رأسَه بالمغفرة، فقيل له، فقال: علمتُ أني مأجور بسببه، فلا أرضى أن يكون معاقبًا بسببي. ويهوِّن عليك كراهةَ المذمةِ قطعُ الطمع، ومَن كانت همتُه إلى تحصيلِ المنزلة مصروفةً فلا ينبغي أن يطمعَ وهو يحبُّ المالَ والجاهَ والمدحَ ويبغضَ الذمَّ في سلامةِ دينِه، فإن ذلك بعيدٌ جدًّا.

❖ اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

هي بالإضافة إلى الذامِّ والمادح أربعة:

الحالة الأولى: أن يفرحَ بالمدح ويشكر المادحَ ويغضب من الذم ويحقدَ

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

على الذام، وهذا حال أكثر الخلق، وهو غايةُ درجات المعصية في هذا الباب.

الثانية: أن يمتعضَ في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانَه وجوارحَه، ويفرحُ باطنُه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهرَه عن إظهار السرور، وهذا نقصانٌ إلا أنه إضافةً إلى ما قبله كمالٌ.

الثالثة: أول درجات الكمال أن يستويَ عنده ذامُّه ومادحُه، وهذا يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورًا. وعلاماته: ألَّا يجد استثقالًا للذامِّ عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وألَّا يجدَ زيادةَ هزَّةٍ ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذامّ، وألَّا يكون انقطاعُ الذامِّ عن مجلسه أهونَ عليه من انقطاع المادح، وألَّا يكون موتُ المادح المُطرِي له أشدَّ نكايةً في قلبه من موت الذامِّ، وألَّا يكون غمُّهُ بمصيبةِ المادح أكثرَ مما يكون بمصيبة الذامِّ، وألَّا تكون زَلّةُ المادح أخفَّ على قلبه وفي عينه من زلَّة الذامِّ.

وما أبعدَ ذلك وما أشدَّه على القلوب! وأكثرُ العباد فرحُهم بالمدح مُستبطَنٌ في قلوبهم وهم لا يشعرون، وربما حسَّن الشيطانُ ميلَ قلبه إلى المادح ويقول له: الذامُّ قد عصى اللهَ بمَذمَّتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، وإنما استثقالُك للذامِّ من الدين. وهنا محض التلبيس، ولو تفكَّر علمَ أن في الناس مَن ارتكب كبائرَ المعاصي أكثرَ من الذامِّ، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، فإذًا العابد المغرور لنفسِه يغضب ولهواه يمتعض، والشيطان يخيِّل إليه أنه من الدين، ومَن لم يطَّلع على مكايدِ الشيطان وآفات النفوس فأكثرُ عباداته تعبٌ ضائع.

الرابعة: وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدحَ ويمقت المادح، لأنه



فتنةٌ عليه قاصمةٌ للظهر، ويحبَّ الذامَّ لأنه مُهدٍ إليه عيبَه ومرشدٌ له إلى مُهمِّه ومُهدٍ إليه حسناتِه.

وغايةُ أمثالِنا الطمع في الحالة الثانية، وهي أن يضمر الفرحَ والكراهةَ على الذامِّ والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، ثم إن طالبْنا أنفسَنا بالعلامة فإنها لا تفي بها لأنها لابد وأن تتسارعَ إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، وتتثاقلَ على إكرام الذامّ والثناء عليه وقضاء حوائجه، ومَن قدرَ على التسويةِ بين المادح والذامّ في ظاهر الفعل فهو جديرٌ بأن يُتَّخذَ قدوةً في هذا الزمان إن وُجد، فإنه الكبريت الأحمر.

وكل واحدةٍ من هذه الرتب فيها درجات: أما الدرجات في المدح فمِنَ الناسِ مَن يتمنى المدحةَ والثناءَ وانتشارَ الصِّيت، فيتوصَّل إليه بكل ما يمكن حتى يرائيَ بالعبادات، ولا يبالي بمقارفةِ المحظورات لاستمالةِ قلوب الناس، وهذا من الهالكين.

ومنهم مَن يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهو على شفا جُرُفٍ هارٍ.

ومنهم مَن لا يريد المِدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مُدح سبقَ السرور إلى قلبه، فإذا لم يقابلْه بالمجاهدة فهو قريبٌ مِن أن يَستجرَّه فرطُ السرور إلى الرتبة التي قبلها، وإن جاهد فتارة تكون اليد له وتارة عليه.

ومنهم من إذا سمع المدح لم يُسَرَّ به ولم يُؤثِّر فيه، وهذا على خير.

ومنهم مَن يكره المدح إذا سمعه لكن لا يغضب على المادح، وأقصى درجاتِه أن يكره ويغضب وهو صادقٌ، لا أن يُظهر الغضب وقلبُه محبٌّ له فإن

ذلك عين النفاق؛ وكذلك بالضدِّ مِن هذا تتفاوت الأحوالُ في حقِّ الذامِّ، وأوَّلُ درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون إلا مِمَّن في قلبهِ حنقٌ على نفسه لتمرُّدها وتلبيساتها فيبغضها بغضَ العدو، فالإنسانُ يفرح ممَّن يذمُّ عدوَّه، وهذا عدوٌّ نفسِه فيفرح إذا سمع ذمَّها ويشكر الذام ويعتقد فطنتَه لمَّا وقفَ على عيوبها. ولو جاهد المريد طولَ عمره في أن يستويَ عنده ذامُّه ومادحُه لكان له شغلٌ شاغل.

** ** **

طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء



بسم الله الرحمن الرحيم

❖ ذم الرياء:

هو حرامٌ، والمرائي عند الله ممقوت، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر]، قال مجاهد: هم أهل الرياء، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان]، فمدحَ المخلصين بنفيِ إرادةِ سوى وجهِ الله، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن راءى راءى اللهُ به، ومَن سمَّع سمَّع اللهُ به»[(١)]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العبادَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»؟[(٢)] وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: مَن عمل لي عملًا

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، والبيهقي في الشعب (٦٨٣١)، ورجاله ثقات، والطبراني (٤٣٠١)،

أشركَ فيه غيري فهو له كلُّه وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[1]. وعدَّ صلى الله عليه وآله وسلم في السبعة الذين يظلهم الله في عرشه: رجلًا تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله[2].

وقال شداد بن أوس: رأيت النبيَّ ﷺ يبكي، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**إني تخوَّفتُ على أمتي الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنمًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا، ولكنهم يراؤون بأعمالهم**»[3]. وقال ﷺ: «**إن المرائيَ يُنادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر يا غادر يا مرائي، ضلَّ عملك وحبط أجرُك، اذهب فخذ أجرَك ممن كنتَ تعمل له**» أخرجه ابن أبي الدنيا وزاد: **يا كافر يا خاسر**. وإسناده ضعيف[4].

ورأى عمر رضي الله عنه رجلًا يطأطئ رقبتَه فقال: يا صاحبَ الرقبةِ ارفع رقبتَك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلي رجلًا في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال علي كرم الله وجهه: للمرائي علامات: يكسل إذا كان وحده،

وقال الهيثمي (١٠/٢٢٢): «رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة».

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه مالك واللفظ له». ومسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢) بسند صحيح، وأحمد (٩٦١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، والحاكم (٤/٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: «فيه عبد الواحد بن زيد متروك». وأحمد (١٧١٢٠)، والطبراني (٧١٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠). وقد تقدم.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد «يا كافر يا خاسر» ولم يقل «يا مرائي» وإسناده ضعيف». وقال الزبيدي في الإتحاف (٨/٢٦٤): «هو في الحديث الطويل الذي تقدم ذكر أوله. أورده أبو الليث السمرقندي بإسناده إلى جبلة اليحصبي قال: كنا في غزاة مع عبد الملك بن مروان فصحبنا رجل ... الحديث»



وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه، وينقص إذا ذُمّ. وضرب عمر رجلًا بالدِّرّة ثم قال: اقتص مني، قال: لا بل أدعها لله ولك، فقال: ما صنعتَ شيئًا، إما أن تدعها لي فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده، فقال: ودَعتها لله وحده، فقال: فنعم إذًا.

وقال الحسن: لقد صحبتُ أقوامًا إن كان أحدهم لتعرضُ له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابَه، وما يمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة. قال الفضيل بن عياض: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون. وقال قتادة: إذا راءى العبدُ يقول الله: انظروا إلى عبدي يستهزئ بي. وقال مالك بن دينار: القرَّاء ثلاثة: قرَّاء الرحمن وقرَّاء الدنيا وقرَّاء الملوك، وإن محمد بن واسع مِن قرَّاء الرحمن. وقال الفضيل: مَن أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إلَي. قال إبراهيم بن أدهم: ما صدقَ اللهَ مَن أراد أن يشتهر.

❖ **حقيقة الرياء:**

مشتقٌّ مِن الرؤية، وأصلُه طلبُ المنزلة في قلوبِ الناس بإيرائهم خصالَ الخير، إلا أن الجاه والمنزلة تُطلب بأعمالٍ سوى العبادات وبالعبادات، واسم الرياء مخصوصٌ بالعبادة، فحدُّه إرادةُ العباد بطاعة الله، فالمرائي: العابد، والمُراءَى: الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمُراءَى به: الخصال التي قَصد المرائي إظهارَها. وهو كثير تجمعه خمسة أقسام: البدن والزي والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة.

القسم الأول: الرياء بالبدن: بإظهار النحول والصَّفار ليدلَّ على قلة الأكل والسهر وكثرة الاجتهاد والحزن على الدين، وبتشعيثِ الشعر ليدل على استغراق الهم، وتدعوه نفسه إلى إظهارها. ويقرب منه خفض الصوت وإغارة

العينين وذبول الشفتين، ليدل على أنه مواظب على الصوم، وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجِّل شعرَه ويكحل عينيه. وكذلك روي عن أبي هريرة.

أما أهل الدنيا فيراؤون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء.

الثاني: الرياء بالهيئة: بتشعيثِ شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس والهدوء ولبس الصوف والتشمير إلى قريبٍ من الساق وتركِ تنظيفِ الثوب ليظهر أنه متَّبعٌ للسنة مُقتدٍ بالصالحين. ومنه لُبس المرقّعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبُّهًا بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن. ومنه التقنُّع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليُريَ أنه انتهى تقشُّفه إلى الحذر من غبار الطريق. ومنه الدِّراعة والطيلسان يلبسه مَن هو خالٍ عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراؤون بالزي طبقات: منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح فيلبس الثياب المخرّقة الوسخة القصيرة الغليظة، ولو كُلِّف أن يلبس وسطًا نظيفًا لكان عنده كالذبح. وأخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا، ولو لبسوا الفاخر ردَّهم القرَّاء، ولو لبسوا المخرّقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فيطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقَّعات المصبوغة، فيلتمسون القبول عند الفريقين، وإن كلِّفوا لُبسَ خشنٍ أو وسخٍ لكان عندهم كالذبح، ولو كُلِّفوا لبسَ الكتَّان الدقيق الأبيض وإن كان دون قيمة ثيابهم لعظُم عليهم.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع



التوسُّع والتجمُّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وقد يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس ما لم يبالِغوا في الزينة.

الثالث: الرياء بالقول: بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لاستعمالها في المحاورة إظهارًا لغزارة العلم والعناية بأحوال الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر والنهي بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، والأسف على مقارفة الناس المعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام وترقيقه بالقرآن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ، والرد على مَن يروي الحديثَ ليُعرف أنه بصير بالأحاديث، والمبادرة إلى أنه صحيح أو غير صحيح، والمجادلة بقصد إفحام الخصم. وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح وحفظ النحو الغريب.

الرابع: الرياء بالعمل: كطولِ القيام والسجود وإطراق الرأس وإظهار الهدوء، وبالصوم والغزو والحج والصدقة وإطعام الطعام، وإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار عند اللقاء، حتى قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطَّلع عليه أحدٌ من أهل الدين رجع إلى الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجَلتِه، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله بل لاطِّلاع إنسانٍ عليه. ومنهم من إذا سمع هذا كلَّف نفسه المشيةَ الحسنةَ في الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، وصار في خلوته إنما يحسِّن مشيتَه ليكون كذلك في الملأ لا لخوفٍ من الله، فهو مراءٍ في الخلوة والجلوة.

وأما أهل الدنيا: فبالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخُطا والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين كمَن يتكلف أن يستزير عالمًا أو عابدًا ليُقال: قد زاره فلان وأهل الدين يتردَّدون إليه ويتبركون بزيارته، أو ملكًا ليُقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته، وكمن يكثر ذكر الشيوخ ليُريَ أنه لقي الكثير، وتترشح مراعاته عند مخاصمته فيقول لغيره: مَن لقيت؟ وأنا قد لقيت فلانًا وفلانًا ودُرت البلاد وخدمت الشيوخ. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم مِن راهبٍ انزوى إلى ديرِه سنين، وكم مِن عابد اعتزل إلى قُلَّةِ جبلٍ مدةً عالمًا بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة لتشوَّش ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، مع أنه قد قطع طمعَه من أموالهم ولكنه يحب مجرّدَ الجاه، وإن كان سريعَ الزوال لا يغترُّ به إلا الجهال ولكنَّ أكثرَ الناس جهال.

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته، بل يلتمس إطلاق اللسان بالثناء. ومنهم من يريد انتشار الصيتِ في البلاد لتكثر الرحلةُ إليه. ومنهم مَن يريد الاشتهارَ عند الملوك لتُقبل شفاعتُه وتُنجز الحوائجُ على يده. ومنهم من يقصد التوصُّلَ إلى جمعِ حطامٍ وكسبِ مالٍ ولو من الأوقاف وأموال اليتامى، وهؤلاء شرُّ طبقاتِ المرائين الذين يراؤون بالأسباب المذكورة.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل: فإن الرياء إما أن يكون بالعبادات أو بغيرها، فإن كان بغيرها فلا يحرم كطلب المال، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكسبُ ما يحتاج إليه الإنسان من المال محمودٌ، فكسبُ ما يسلم به من الجاه عن الآفات أيضًا محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، وكما أن المال فيه سمٌّ ناقع

وترياقٌ نافع فكذلك الجاه، وكثير المال يُلهي ويُطغي ويُنسي ذكرَ الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، وتملُّكُ المال الكثير غيرُ حرام وكذلك ملكُ القلوب الكثيرة، إلا إذا حملهُ كثرة المال والجاه على مباشرة ما لا يجوز. نعم، انصرافُ الهَمِّ إلى سعة الجاه مبدأ الشرور، ولا يقدر محبُّ الجاه والمال على تركِ معاصي القلب واللسان وغيرها.

وأما سَعة الجاه من غير حرصٍ منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاهَ أوسعُ من جاهِ رسول الله ﷺ وجاهِ الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم مِن علماء الدين، ولكن انصراف الهَم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة، وهو ليس بحرام لأنه ليس بعبادة، وكان نظرُ رسول الله في جبِّ الماءِ وتسويتِه عمامته وشعره عبادة، لأنه كان مأمورًا بدعوة الخلق وترغيبهم واستمالةِ قلوبِهم، فكان يجبُ عليه أن يُظهرَ لهم المحاسنَ ليقرِّبَهم، ولو قصد قاصدٌ حذرًا مِن ذمِّهم واسترواحًا إلى توقيرهم كان مباحًا، إذ له الاحترازُ من ألم المذمَّة وطلبِ راحةِ الأنس بالإخوان، ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذًا المراءاةُ بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومةً بحسَب الغرض المطلوب بها.

أما العبادات فللمرائي فيها حالتان:

إحداهما: ألَّا يكون له قصد إلا الرياء المحض، وهذا يبطل عبادتَه، بل يعصي بذلك ويأثم لمعنيين:

أحدهما: يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر، لأنه خيَّل إليهم أنه مخلصٌ مطيع. وتملُّك القلوب بالخداع والمكر إثم.

والثاني: يتعلق بالله، فمهما قصد بعبادته خلقَه فهو مستهزئٌ بالله. قال قتادة: إذا راءى العبدُ قال الله لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بي!

ومثالُه أن يتمثَّل بين يدي ملِكٍ طولَ النهار كعادةِ الخدم، وإنما وقوفُه لملاحظةِ جاريةٍ مِن جواري الملك، فإنه استهزاءٌ بالملك إذ لم يقصد التقرُّبَ إليه. وهل ذلك إلا لأنه يظن أن العبدَ أقدرُ على تحصيلِ أغراضِه من الله، وأنه أولى بالتقرُّب من الله؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات سمَّاه رسول الله ﷺ الشركَ الأصغر، كما جاء في رواية أحمد والطبراني، وروى الحاكم وصححه قال شداد بن أوس: كنا نعدُّ على عهد رسول الله ﷺ أن الرياءَ الشرك الأصغر.

نعم، بعضُ درجات الرياء أشدُّ من بعض، ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، لأن المرائيَ عظَّم في قلبه الناس فاقتضَت أن يسجدَ ويركع، فكان الناس هم المعظَّمون بالسجود، ومهما زال قصدُ تعظيمِ الله بالسجود وبقيَ تعظيمُ الخلق كان ذلك قريبًا من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب مَن عظُم عنده بإظهاره مِن نفسه صورة التعظيم لله، فكان هذا كان شركًا خفيًّا لا جليًّا، ولا يُقدِم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى، فلذلك عدَل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم.

❖ بيان درجات الرياء:

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوتِ الدرجات فيه.



وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله، ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء، وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردًا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة، فتكون الدرجات أربعًا:

الأولى وهي أغلظها: ألَّا يكون مرادُه الثوابَ أصلًا، كالذي يصلي بين أظهُر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرَّد قصدَه إلى الرياء، فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك مَن يُخرِج الصدقةَ خوفًا من مذمَّة الناس وهو ولا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لمَا أدّاها.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضًا ولكن قصدًا ضعيفًا، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصدُ الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريبٌ مما قبله وما فيه من شائبةِ قصدِ ثوابٍ لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصدُ الثواب وقصدُ الرياء متساويَين، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليًا عن الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقلَّ بحملِه على العمل؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، فنرجو أن يسلم رأسًا برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطِّلاع الناس مرجِّحًا ومقوِّيًا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه، فالذي نظنه ـ والعلم

عند الله ـ أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقَب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصدِ الثواب، وأما قوله ﷺ: «**يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك..**»[1]، فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءَى به، وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات، وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلَّد في النار، وهو الذي يُظهر كلمتَي الشهادة وباطنُه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]، أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء]، والآيات فيهم كثيرة.

وكان النفاق يكثرُ في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض، وذلك مما يقلُّ في زماننا، ولكن يكثر نفاقُ مَن ينسلُّ عن الدين باطنًا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢) بسند صحيح، وأحمد (٩٦١٩). وقد تقدم.

فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلًا إلى قول الملاحدة، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلًا إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفرًا أو بدعةً وهو يظهر خلافَه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلَّدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشدُّ حالًا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كُفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضًا عظيمٌ عند الله ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مالُ الرجل في يد غيره فيأمره بإخراجِ الزكاة خوفًا من ذمِّه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجَها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمعٍ وعادتُه تركُ الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوةً من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمَه أو يبَرُّ والديه لا عن رغبةٍ ولكن خوفًا من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك. فهذا مُراءٍ معه أصلُ الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كُلِّف أن يعبد غيرَ الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند اطّلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحبَّ إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمَّة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتِهم أشد من رغبته في ثواب الله، وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمَقت! وإن كان غير منسلٍّ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: ألَّا يرائيَ بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يُرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها،

وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفًا من المذمة أو طلبًا للمحمَدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض. فهذا أيضًا عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله آثر حمدَ الخلق على حمدِ الخالق. وهذا أيضًا قد فعل ذلك واتقى ذمَّ الخلق دون ذمِّ الخالق، فكان ذمُّ الخلق أعظمَ عنده من عقاب الله.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضًا على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يرائيَ بفعلِ ما في تركِه نقصانُ العبادة، كالذي غرضُه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطوِّل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمَّم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربَّه عز وجل. أي أنه ليس يبالي باطّلاع الله عليه، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن. ومن جلس بين يدي إنسان متربِّعًا أو متَّكئًا فدخل غلامُه فاستوى وأحسنَ الجلسة كان ذلك منه تقديمًا للغلام على السيد واستهانةً بالسيد لا محالة. وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة. وكذلك الذي يعتاد إخراجَ الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحَب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجَها من الجيد خوفًا من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومَه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالًا لعبادة الصوم خوفًا من المذمة، فهذا أيضًا من الرياء المحظور لأن فيه تقديمًا للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول الطاعات.



فإن قال المرائي: إنما فعلتُ ذلك صيانةً لألسنتِهم عن الغيبة، فإنهم إذا رأَوْا تخفيفَ الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتَهم عن هذه المعصية، فيُقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمةٌ منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبةِ غيرك، فلو كان باعثُك الدين لكانت شفقتُك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمَن يُهدي وصيفةً إلى ملك لينال منه فضلًا وولايةً يتقلَّدها، فيُهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفًا من مذمَّة غلمانه، وذلك مُحالٌ، بل من يراعي جانبَ غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبتُه للملك أكثر.

إلا أنه لهذا المرائي حالتان:

إحداهما: أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعًا.

والثانية: أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خفَّفت كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذمِّهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيبة دفع مذمَّتِهم ولا أرجو عليه ثوابًا، فهو خيرٌ من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة. والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء.

الدرجة الثانية: أن يرائيَ بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدِّ القيام وتحسين



الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السور المعتادة.

الثالثة: أن يرائيَ بزياداتٍ خارجةٍ عن نفس النوافل كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجُّهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يُحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يراءَى به، وبعضه أشد من بعض. والكل مذموم.

الركن الثالث: المراءَى لأجله، فإن للمرائي مقصودًا لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مالٍ أو جاهٍ أو غرضٍ من الأغراض، وله ثلاث درجات:

الأولى وهي أشدها وأعظمها: أن يكون مقصوده التمكُّنَ من المعاصي، كالذي يرائي بعبادته ويُظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضُه أن يُعرف بالأمانة فيُولَّى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودَع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلَّم إليه الأموال التي تُنفق في طريق الحج فيختزل بعضَها أو كلَّها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج.

وقد يُظهِر بعضهم زيَّ التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصده التحبُّب إلى الناس، وقد يحضرون مجالسَ العلم والتذكير وحلق القرآن يُظهرون الرغبةَ في سماع العلم والقرآن وغرضُهم ملاحظة النساء والصبيان، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترفٌ جريمةً اتُّهِم بها وهو مُصرٌّ عليها ويريد أن ينفي التهمةَ عن نفسه فيُظهر التقوى لنفي التهمة.



الثانية: أن يكون غرضُه نيلَ حظٍّ مباحٍ من حظوظ الدنيا، كالذي يُظهر الحزنَ والبكاءَ ويشتغل بالوعظ والتذكير لتُبذَل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيُظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاعَ الحياة الدنيا ولكنه دون الأول.

الثالثة: ألَّا يقصد نيلَ حظٍّ وإدراكَ مال أو نكاح، ولكن يُظهر عبادتَه خوفًا من أن يُنظَر إليه بعين النقص، ولا يُعدّ من الخاصة. كالذي يمشي مستعجلًا فيطَّلع عليه الناس فيُحسن المشيَ ويترك العجَلة كيلا يُقال: إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن يُنظر إليه بعين الاحتقار فيُتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوةٍ لمَا كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن يُنظر إليه بعين الاحتقار لا بعَين التوقير، وكالذي يرى جماعةً يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفةَ أن يُنسب إلى الكسل ويُلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لا يفعل شيئًا من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفًا من أن يعلم الناسُ أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصومَ امتنع عن الأكل لأجله، أو يُدعى إلى طعام فيمتنع ليُظنَّ أنه صائم، وقد لا يصرِّح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمعٌ بين خبيثين، فإنه يُرى أنه صائم ثم يُرى أنه مخلص ليس بمُراءٍ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيًا، ثم إن اضطر إلى شربٍ لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرًا تصريحًا أو تعريضًا بأن يتعلل

بمرض يقتضي فرطَ العطش ويمنع من الصوم، أو يقول أفطرت تطييبًا لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلًا بشربه كيلا يُظن به أن يعتذر رياءً ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرضِ حكايةٍ عرضًا؛ مثل أن يقول: إن فلانًا محبٌّ للإخوان شديدُ الرغبة في أن يأكل الإنسانُ من طعامه، وقد ألحَّ عليَّ اليوم ولم أجد بدًّا من تطييب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفةُ القلب مشفقةٌ عَلَي تظن أني لو صمت يومًا مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عِرق الرياء في الباطن.

أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم تكن له رغبةٌ في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علمَ الله فيكون ملبِّسًا، وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلمِ الله تعالى ولم يشرك فيه غيرَه، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداءَ غيرِه به وتحريكَ رغبة الناس فيه، وفيه مكيدةٌ وغرورٌ، وسيأتي شرح ذلك وشروطه.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقتِ الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزلُّ فيه فحول العلماء فضلًا عن العُبَّاد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب، والله أعلم.

❖ الرياء الخفي:

هو جليٌّ وخفيٌّ، فالجلي يبعث على العمل، وأخفى منه يُخفِّف العمل كمن يعتاد التهجد، فإذا نزل عنده ضيفٌ تنشَّط له، وأخفى منه ما لا يؤثِّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف، ولكنه مُستَبطَن لا يُعرف إلا بالعلامات،



وأجلاها أن يُسرَّ باطّلاعِ الناس على طاعته، فلقد كان مستكنًّا في القلب فأظهر عنه اطلاعُ الخلائق أثر الفرح والسرور، فإذا لم يُقابِل ذلك بكراهية يصير قوتًا للعِرق الخفي، فيتقاضى أن يتكلف سببًا يُطَّلع عليه بالتعريض بالنطق أو بإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويُبسِ الشفتين وجفافِ الريق وآثار الدموع.

وأخفى منه ألّا يريد الاطّلاع ولا يُسَرّ بظهور طاعته، ولكن إذا رأى الناسَ أحبَّ أن يبدؤوه بالسلام والبشاشة والتوقير، وأن ينشطوا في قضاء حوائجِه وأن يوسِّعوا له، فمن قصَّر فيه ثقُل ذلك على قلبه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لمَا كان يستبعد تقصيرَ الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فيما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلمِ الله، ولم يكن خاليًا عن شوبٍ خفيٍّ من الرياء أخفى من دبيب النمل.

وقد رُوي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقرَّاء يوم القيامة: ألم يكن يرخَّص لكم في السعر؟ ألم تكونوا تُبتدَؤون بالسلام؟ ألم تكن تُقضى لكم الحوائج؟

فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء، إذ علِموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص، وعلموا شدةَ حاجتِهم وفاقتِهم فيها. وشوائب الرياء الخفي لا تنحصر، ومهما أدرك تفرقةً بين اطِّلاع إنسانٍ أو بهيمةٍ ففيه شعبةٌ من الرياء.

فإن قلت: ما نرى أحدًا ينفكُّ عن السرور إذا عُرفت طاعاته؟ فنقول: هو منقسمٌ إلى محمود وإلى مذموم؛ فالمحمود أربعة:

الأول: أن يقصد الإخفاء، ولمّا اطّلع عليه الخلقُ علم أن اللهَ أظهر الجميلَ من أحواله، فيستدل به على حُسنِ صنعِه به ولطفه، فيكون فرحُه



بجميلِ نظرِ الله له، لا بحمدِ الناس وقيام المنزلة في قلوبهم.

الثاني: أن يستدلَّ أنه كذلك يفعل في الآخرة، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما ستر اللهُ على عبد ذنبًا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة**»[1].

الثالث: أن يظن رغبةَ المطلعين على الاقتداء به، فله مثل أجر أعمال المقتدين.

الرابع: أن يفرح بِحبِّهم للمطيع وميلِ قلوبهم إلى الطاعة، فهذا فرحٌ بحسنِ إيمانِ عباد الله. وعلامة الإخلاص فيه أن يكون فرحُه بحمدِهم غيره مثلَ فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو **الخامس**: فأن يكون فرحُه لقيام المنزلة في قلوب الناس، فهذا مكروه. والله تعالى أعلم.

❖ ما يُحبط العملَ من الرياء:

إذا عقد العبادةَ على الإخلاص ثم ورَد الرياء بعد الفراغ سرورًا بالظهور من غير إظهار فلا يفسد العمل، فإن تمَّ العملُ على الإخلاص ثم ظهر له الرياء في الإظهار فتحدث فهذا مَخوف. وروي عن ابن مسعود أنه سمع رجلًا يقول: قرأتُ البارحة البقرة، فقال: ذلك حظُّه منها. وهو من ابن مسعود استدلالٌ على أن قلبَه عند العبادة لم يخلُ عن الرياء، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مُبطلٌ لثوابه، بل إنه مُثاب على عمله الماضي ومُعاقَب على مراءاته بعد الفراغ، بخلاف لو تغير قبل الفراغ فإن ذلك قد يُبطل الصلاة ويحبط العمل، ولا يخلو إذا ورد أن يكون مجرَّدَ سرور أو أن يكون باعثًا على العمل، فإن كان

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠).



باعثًا وختم به حبط أجره، كمن يذكر شيئًا نسيه ولولا الناس لقطع الصلاة، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة، وقد قال ﷺ: «**إنما العمل كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله**»[1]، وهذا مُنزَّلٌ على الصلاة لا على الصدقة والقراءة، فإن كل جزءٍ من ذلك مفرد، فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة.

والأقيَس عندنا أن ما بقي فيه العمل صادر عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع، فلا يُفسد العمل.

وأما الأخبار في الرياء فمحمولة على إذا لم يُرد إلا الخلق، وما ورد في الشركة محمول على ما إذا كان قصدُ الرياء مساويًا لقصدِ الثواب أو أغلظ منه، ولا يبعد أن يُقال: إن الذي أُوجب عليه صلاة خالصة، والخالص ما لا يشوبه شيء والعلم عند الله فيه.

القسم الثالث: ما يقارن حالَ العقد بأن يبتدئ الصلاةَ على قصدِ الرياء، فإن استمرَّ حتى سلَّم فلا خلاف أنه يقضي ولا يُعتدُّ بصلاته، وإن ندم أثناء ذلك واستغفر ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته. وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود. وقالت فرقة: لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة.

والذي يستقيم على قياس الفقه أن يُقال: إن كان باعثهُ الرياء في ابتداء العقد لم ينعقد افتتاحُه، أما إذا اجتمع الباعثان فإما أن يكون في صدقةٍ وقراءةٍ وما ليس فيه تحليلٌ وتحريمٌ أو في عقدِ صلاةٍ وحجٍّ، فإن كان في صدقة فقد

(١) رواه ابن حبان (٣٩٢)، وأبو نعيم (١٦٢/٥).

عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة] ، فله ثوابٌ بقدر قصدِه الصحيح وعقابٌ بقدر قصدِه الفاسد. وإن كان في صلاة فإما أن تكون فرضًا وإما أن تكون نفلًا ، فإن كانت نفلًا فحكمُها حكمُ الصدقة ، فقد عصى من وجهٍ وأطاع من وجه.

فأما إذا كان في فرضٍ واجتمع الباعثان وكان كلُّ واحدٍ لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فلا يسقط الواجب عنه ، وإن كان كل باعثٍ مستقلًّا فهذا محل النظر ، فيُحتمل أن يُقال: إن الواجب صلاة خالصة ، ويحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعثٍ مستقلٍّ وقد وُجِد ، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلًا دون الأصل فهذا مما يُقطع بصحة صلاته. وأما مجرد السرور باطلاع الناس ولم يبلغ أثره حيث يؤثر في العمل فبعيدٌ أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقًا بقانون الفقه. والعلم عند الله عز وجل ، وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

❖ بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

الرياء محبطٌ للأعمال وسببٌ للمقتِ عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات ، فجدير بالتشميرِ في إزالته ولو بالمجاهدة ، والمجاهدة يضطر إليها العباد كلهم ، إذ الصبي يُخلَق ضعيف العقل والتمييز ممتدَّ العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم ، فيرى الناسَ يتصنَّع بعضُهم لبعض فيغلب عليه حب التصنُّع ، وإنما يشعر بكونه مُهلكًا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه ، فلا يقدر على قمعهِ إلا بمجاهدةٍ شديدةٍ ومكابدةٍ لقوة الشهوات. وفي علاجه مقامان:



أحدهما: قلعُ عروقِه وأصولِه التي منها انشعابُه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول في قلعِ عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصِّل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد لهذا ما روى أبو موسى أن أعرابيًّا سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ـ ومعناه أنه يأنف أن يُقهر أو يُذمّ بأنه مقهور مغلوب ـ وقال: والرجل يقاتل ليُرى مكانه ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١). وقال ﷺ: «**من غزا لا يبغي إلا عقالًا فله ما نوى**»(٢)، فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمدَ ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء فإنه يتصدق بالقليل كيلا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفًا من الذم، وقد يترك السؤال عن علم هو محتاجٌ إليه خيفةً من أن يُذَمّ بالجهل. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تُحرك إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ونذكر ما يخص الرياء، وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء لظنِّه أنه خير له ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل. فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضارّ في المآل سهل عليه قطعُ الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بانَ له أن فيه سمًّا أعرض عنه؛ كذلك مهما عرف العبد مضرةَ الرياء

---

(١) رواه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) رواه النسائي (٣١٣٨)، وفي الكبرى (٤٣٤٦)، وأحمد (٢٢٦٩٢)، وابن حبان (٤٦٣٨)، والحاكم (٢/١٢٠) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٢٦٨٧).

وما يفوته من صلاح قلبه وما يُحرم منه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب والمقت والخزي، وقابلَ بينه وبين ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا، مع أن العمل الواحد ربما يترجَّح به ميزان حسناته، فإذا فسد بالرياء حُوِّل إلى كفةِ السيئات، فلو لم يكن فيه إلا إحباط عبادةٍ واحدةٍ لكان كافيًا في معرفة ضرره، هذا مع ما يتعرَّض له في الدنيا من تشتُّت الهم، فإن رضا الناس غايةٌ لا تدرك، ومن طلب رضاهم في سخطِ الله سخطَ الله عليه وأسخطهم عليه، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذمِّ الله لأجل حمدِهم ولا يزيده حمدُهم رزقًا ولا أجلًا ولا ينفعه يوم فقرِه.

وأما قطع الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله مسخِّرٌ للقلوب بالمنع والإعطاء، والخلق مضطرون ولا رازق إلا الله. فكيف يترك ما عند الله برجاءٍ كاذبٍ ووهمٍ فاسدٍ، وإذا أصاب فلا تفي لذتُه بألمِ مذلَّته. وأما ذمُّهم فلِم يحذر منه ولا يزيده شيئًا لم يكتبه اللهُ عليه ولا يعجِّل أجلَه ولا يؤخِّر رزقَه ولا يبغِّضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله، فالعباد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياتًا ولا نشورًا.

فإذا قرَّر في قلبه آفة هذه الأسباب فتَرت رغبتُه وأقبلَ على الله، ولو علمَ الناس ما في باطنه من قصدِ الرياء لمَقتوه وسيكشفُ الله عن سره. ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصَه وسخَّرهم له، مع أنه لا كمالَ في مدحِهم ولا نقصانَ في ذمِّهم كما قال شاعر بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمِّي شَين، فقال له رسول الله ﷺ: «**كذبتَ، ذاك الله الذي لا إلــه إلا هو**»[1]. فهذا وما قدمنا هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

(١) أخرجه أحمد ورجاله ثقات (١٥٩٩١)، ورواه الترمذي وحسَّنه (٣٢٦٧)، والنسائي (١١٥١٥).



وأما الدواء العملي: فأن يعوِّد نفسَه إخفاءَ العبادات كما تُغلَق الأبوابُ دون الفواحش ويقنع بعلم الله، ذمَّ بعض أصحاب أبي حفص الحداد الدنيا وأهلها، فقال له: أظهرتَ ما كان سبيلك أن تخفيه، لا تجالسنا. لأن في ذمِّ الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، ويشقُّ في بداية المجاهدة ويهُونُ بتواصل ألطاف الله، ومن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرعُ الباب ومن الله فتح الباب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

المقام الثاني: دفع العارض منه أثناء العبادة: فإن مَن جاهد وقلعَ مغارس الرياء واستحقر مدحَ المخلوقين وذمَّهم فالشيطان لا يتركه بل يعارضه بخطرات الرياء. فلا بد أن يتشمَّر لدفع ما يعرض.

وخواطره ثلاثة قد تخطر دفعةً كالخاطر الواحد وقد تترادف، فالأول: العلم باطّلاع الخلق ورجاؤه. ثم هيجانُ الرغبة في حَمدِهم والمنزلة عندهم. ثم هيجانُ الرغبة في قبوله والركون إليه.

فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث: فعلٌ يُسمَّى العزم. وكمال القوة في دفع الأول قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له قال لنفسه: مالَك وللخلق، علموا أو لم يعلموا، والله عالم، فأي فائدةٍ في علمِ غيره؟ فإن هاجت إلى لذة الحمد تذكَّر ما رسخ في قلبه من آفة الرياء وتعرُّضه للمقتِ عند الله، فمعرفة اطّلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهةً مقابلةً لها، والنفس تطاوعُ أقواهما.

فلا بد من ثلاثة أمور: المعرفة والكراهة والإباء. وقد يشرع في العبادة

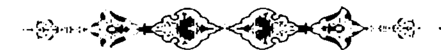
على الإخلاص ثم يرِد الرياءُ فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة، وسببه امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد، فيعزب عن القلب معرفة آفات الرياء، فهو كالذي يحدِّث نفسَه بالحلم ويعزم على التحلُّم ثم يجري ما يشتد به غضبه فينسى سابقةَ عزمه، قال جابر رضي الله عنه: بايعنا رسولَ الله تحت الشجرة على ألَّا نفر، فأُنسيناها يوم حنين[1]، ورواه مسلم[2] عن العباس قال: حتى نودي: يا أصحاب الشجرة، فرجعوا، ذُكِّروا فذكَروا.

فالفائدة في اجتماع الثلاث: المعرفة والكراهة والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوتها بحسب قوة الإيمان والعلم. ومن صادفَ من نفسه كراهةَ الرياء حملته على الإباء لكنه غير خالٍ عن ميلِ الطبع وهو كاره لميلِه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم أن الله لم يكلف العبادَ إلا ما تطيق، وليس في طاقة العبد منعُ الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع، وإنما غايته أن يقابل شهوتَه بكراهةٍ استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله، قال ﷺ: **«الحمد لله الذي ردَّ كيدَ الشيطان إلى الوسوسة»**[3]. فوسوسةُ الشيطان ومنازَعة النفس لا تضرك مهما رددتَ مرادَهما بالإباء والكراهة، وللشيطان هنا مكيدة، وهي أنه إذا عجز عن حملِه على قبول الرياء خيَّل إليه أن صلاحَ قلبه في الاشتغال بمجادلته حتى يسلبه ثوابَ الإخلاص وحضورَ القلب.

والمتخلِّصون عن الرياء على أربع مراتب:

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٦).
(٢) (١٧٧٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، والنسائي في اليوم والليلة (١٠٥٠٣).



الأولى: أن يردّه على الشيطان، ويشتغل بمجادلته ويطيلها وهو نقصان، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وانصرف إلى قتال قطَّاع الطريق.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فيقتصر على تكذيبه ودفعه.

الثالثة: ألَّا يشتغل بتكذيبه لأن ذلك وقفةٌ وإن قلَّت، بل قرر في ضميره كراهةَ الرياءِ وكذبِ الشيطان، فيستمر مستصحبًا للكراهة غير مشتغلٍ بالمخاصمة.

الرابعة: أن يعلم أن الشيطان سيحسده، فيعزم أنه مهما نزغ زاد من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء العبادة، وذلك الذي يغيظ الشيطان ويوجب يأسَه.

يُروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلانًا يذكرك، فقال: والله لأغيظنَّ مَن أمرَه ـ وهو الشيطان ـ فقال: اللهم اغفر له. أي لأغيظنَّه بأن أطيعَ الله فيه. قال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبدَ إلى الباب من الإثم، فلا يطِعه وليُحدِث عند ذلك خيرًا، فإذا رآه كذلك تركَه. وقال: إذا رآك الشيطان متردِّدًا طمعَ فيك، وإذا رآك مداومًا ملَّك وقلاك.

وضرب الحارث المحاسبي للأربعة مثالًا فقال: كأربعةٍ قصدوا مجلسًا فحسدهم ضالٌّ مبتدعٌ، فتقدم إلى واحد فصرفه ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فشغلَه بالمجادلة فاشتغل معه وهو غرضه ليفوِّت عليه بقدر تأخره. فلمّا مرّ الثاني نهاه فدفع في نحرِه واستعجل، ففرح منه بقدر توقُّفه للدفع. ومرّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا قتاله، بل استمر على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. فمرّ الرابع فلم يتوقف، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته، فيوشك إن عادوا ومروا مرةً أخرى أن يعاودَ الجميعَ إلا الأخير خيفةً من أن يزداد فائدةً باستعجاله.

فإن قلتَ: هل يجب الترصُّد له قبل حضوره انتظارًا لوروده، أم يجب التوكل، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: ذهبت فرقةٌ من أهل البصرة إلى أن الأقوياء استغنوا عن الحذر لانقطاعهم إلى الله.

وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصُّدَ للحذر يحتاج إليه من قلَّ يقينُه ونقص توكُّله، فمن أيقن منهم أن الشيطان ذليل مخلوق ولا يكون إلا ما أراده الله فاليقين يغنيه.

وقالت فرقةٌ من أهل العلم: لابد من الحذر، وما قيل من الاستغناء عنه يكاد يكون غرورًا، قال تعالى لآدم وحواء: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه]، فإذًا لم يأمن نبيٌّ وهو في الجنة فكيف يجوز لغيره أن يأمن في الدنيا؟ وأَخذُ الحذرِ من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغالَ بحب الله كما أمر به من الكفار فقال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فيحذر الشيطانَ، ويعتقد أن الهاديَ والمضلَّ هو الله، والأسباب وسائط مسخَّرة، وهذا ما اختاره المحاسبي، وهو الذي يشهد له نور العلم.

ثم اختلفوا في كيفية الحذر فقال قوم: لا ينبغي أن يكون شيءٌ أغلبَ في قلوبنا من الحذر منه. وقال قوم: بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله ولا ننسَى الشيطانَ وعداوتَه فنجمع بين الأمرين. وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرَّد لذكر الشيطان ونسي ذكرَ الله. وأما الثاني فقد جمعَ بين ذكر الله والشيطان، وبقدرِ ذكرِ إبليس ينقص من ذكر الله، فالحق أن يُلزمَ العبد قلبَه الحذرَ ويقرّر عداوةَ الشيطان، ثم يشتغل بذكر الله ويكبُّ عليه بكل الهمة، ولا يخطر بباله الشيطان، وإذا خطر الشيطان له تنبَّه ودفعه، والاشتغالُ بذكر



الله لا يمنع التيقُّظَ، بل الرجل ينام وهو خائفٌ فَوتَ مهمٍّ عند طلوع الصبح فيتنبَّه في الليل مرات لما في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه. ومثل هذا القلب يقوى على دفع العدو بالاشتغال بمجرد الذكر قد أماتَ منه الهوى وأحيا نورَ العقل والعلم. فالقلب كبئرٍ أُريد تطهيرُها من الماء القذر ليتفجر منها الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان ترك الماء القذر، والذي جمع بين ذكره وذكر الله نزح القذرَ من جانب وتركَه جاريًا إليها من جانبٍ آخر، والبصير جعل لمجرى الماء القذر سدًّا وملأها بالصافي، فإذا جاء القذر دفعه بالسد من غير كلفة.

❖ الرخصة في إظهار الطاعات:

في الإسرار فائدةُ الإخلاص، وفي الإظهار فائدةُ الاقتداء. قال الحسن: قد علم المسلمون أن السرَّ أحرزُ العملين. وفي الإظهار فائدة، لذلك أثنى الله على السرِّ والعلانية فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

والإظهار قسمان: أحدهما: في نفس العمل، والآخر: التحدث بما عمل. **فالأول**: إظهار نفسِ العمل كالصدقة في الملأ، كما روي أن الأنصاري جاء بصرَّةٍ فتتابع الناسُ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من سنَّ سنةً حسنة فعُمِل بها كان له أجرُها وأجرُ من اتبعه**»[1]. ومثلها سائر الأعمال، والاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم الغازي إذا شدَّ الرحلَ قِبلَ القوم تحريضًا لهم فهو أفضلُ لأنه لا يمكن إسراره، فالمبادرة ليست من الإعلان بل تحريضٌ مجردٌ كالمبادرة إلى الحج والجمعة، أما ما يمكن إسراره كالصدقة فإن كان

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

إظهارها يؤذي المتصدَّقَ عليه فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام، فإن لم يكن إيذاء قال قوم: السر أفضل، وقال قوم: السر أفضل من علانيةٍ لا قدوةَ فيها. ويدلُّ عليه أن اللهَ أمر الأنبياءَ بإظهار العمل، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**فله أجرُها وأجرُ من عمل بها**» ولا وجه للخلاف إذا تمَّ الإخلاص، فما يُقتدى به أفضل، ومهما حصلت شائبةُ الرياء لم ينفعه اقتداء غيره، فالسر أفضل.

وعلى مَن يُظهِر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يُقتدى به أو يظنه ظنًّا، والعالم المعروف يقتدي به الناس كافة، وغير العالم إذا أظهر ربما نسبوه إلى الرياء ولم يقتدوا به.

والثانية: أن يراقب قلبَه فربما حبُّ الرياء الخفي دعاه بعذر الاقتداء إلى الإظهار، وهذا حال مَن يُظهر أعمَاله إلا الأقوياء المخلصين وقليلٌ ما هم. فالضعيف كالغريق الذي يحسنُ سباحةً ضعيفةً فنظر إلى غرقى فرحمَهم فتشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء ألمُه ساعة وليت الهلاكَ بالرياء مثله، ومحكُّ ذلك أن يعرضَ على نفسه لو قيل له: أخفِ العمل حتى يقتديَ الناس بعابدٍ آخر من أقرانك ويكون لك مثل أجر الإعلان، فإن مالَ قلبُه إلى أن يكون هو المقتَدى به فباعثُه الرياء دون طلب الأجر، فليحذر العبد خِدعَ النفس.

القسم الثاني: أن يتحدث بعد الفراغ، والخطر فيه أشد لخفَّةِ النطق، وقد تجري في الحكاية زيادةٌ ومبالغة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثِّر في إفساد العبادة الماضية، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من تمَّ إخلاصه واستوى عنده مدحُ الناس وذمُّهم، وذكر عند مَن يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فجائزٌ، بل مندوب إن صفت النية. قال سعد بن معاذ: ما صليت



صلاةً منذ أسلمت فحدثتُ نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازةً فحدثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقولٌ لها، وما سمعت النبيَّ ﷺ يقول قولًا قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خيرٌ لي؟ وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حالٍ فتمنَّيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنَّيت ولا تمنَّيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ[1]. وقال شداد بن أوس: ما تكلمت بكلمةٍ منذ أسلمت حتى أزمَّها وأخطمها غير هذه! وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء. وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا عليَّ فإني ما أحدثت ذنبًا منذ أسلمت. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: ما قضى الله فيَّ بقضاءٍ قطّ فسرَّني أن يكون قضى لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدرِ الله.

فالإظهار على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط المذكورة، بل إظهار المرائي فيه خيرٌ كثير للناس ولكنه شر للمرائي. فكم من مخلصٍ كان سببُ إخلاصه الاقتداء بمن هو مراءٍ «**وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[2]، «**وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوامٍ لا خلاق لهم**»[3].

❖ بيان الرخصة في كتمان الذنوب:

الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، قال سيدنا عمر

(١) رواه ابن ماجه (٣١١).

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

(٣) رواه النسائي بإسناد صحيح في الكبرى (٨٨٨٥)، وابن حبان (٤٥١٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٤٨)، والبزار كما في كشف الأستار (١٧٢٠). قال الهيثمي (٥/٣٠٢): «رواه البزار، والطبراني في الأوسط، وأحد أسانيد البزار ثقات».



رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطُّلع عليك لم تستحْيِ منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملًا أبالي أن يطلع الناسُ عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط. إلا أنها درجة عظيمة لا ينالها كل واحد. والمحظور أن يستر ذلك ليُريَ الناسَ أنه ورع خائف.

أما الصادق فله سترُ المعاصي ويصح قصدُه فيه في ثمانية أوجه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتمَّ وخاف أن يُهتك ستره في القيامة.

الثاني: علمُه أن الله تعالى يكره ظهورَ المعاصي كما قال ﷺ: **«من ارتكب شيئًا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»**(١). فهو لم يُخلِ قلبَه عن محبة ما أحبه الله، وأثرُ الصدق فيه أن يكره ظهورَه من غيره ويغتم بسببه.

الثالث: أن يكره ذمَّ الناس من حيث أنه يَشغَلُ قلبَه وعقلَه عن طاعة الله، وبهذه العلة ينبغي أن يكره الحمدَ الذي يشغله عن ذكر الله، وهذا من قوة الإيمان.

الرابع: أن يكون ستره وكراهته الذم من حيث يتأذَّى طبعه، وخوف تألُّم القلب ليس بحرام، وإنما يعصي إذا جزعت نفسه ودعتهُ إلى ما لا يجوز، نعم كمال الصدق أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي ذامُّه ومادحه عنده لعلمِه أن الضار والنافع هو الله، وأن العباد عاجزون؛ ورُبَّ تألُّمٍ بالذم محمودٌ إذا كان الذامُّ من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله، فكيف لا يغتم به؟ وحبُّ الحمد على الطاعة طلبُ ثوابٍ في الحال، وكراهة الذمِّ على المعصية لا محذور فيه إلا أن يُشغله غمُّه باطلاع الناس عن اطلاع الله، بل ينبغي أن يكون غمُّه باطّلاع الله وذمه له أكثر.

---

(١) رواه الحاكم (٤/٤٢٥)، والبيهقي (١٧٣٧٩).



الخامس: أن يكره الذم من حيث إن الذامّ عصى الله تعالى به، وعلامته أن يكره ذمَّ غيره.

السادس: أن يستر كيلا يُقصد بشرٍّ حذرًا.

السابع: مجرد الحياء، وهو خلقٌ كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق نور العقل فيستحيي من القبائح إذا شوهدت منه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحياءُ خيرٌ كله**»[1]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[3]. فالذي لا يبالي أن يظهر فسقه جمع إلى الفسق التهتُّكَ والوقاحة وفقدُ الحياء، إلا أن الحياء ممتزجٌ بالرياء ومشتبهٌ به، ويدَّعي كلُّ مراءٍ أنه مستحْيٍ، والحياء خلقٌ ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبه داعيةُ الرياء وداعية الإخلاص.

الثامن: أن يخاف من ظهور الذنب أن يستجريَ عليه غيره ويقتديَ به، ويختص ذلك بالأئمة وبمن يُقتدى به، وبهذه العلة ينبغي أن يخفيَ العاصي معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة إلا هذا الأخير.

فإن قلت: هل يجوز أن يحب حمدَ الناس له بالصلاح وحبهم إياه، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: دلَّني على عملٍ إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، قال: «**ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس**

---

(١) رواه مسلم (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٣) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

يحبُّك الناس»[1]؟ فنقول: قد يكون مباحًا وقد يكون محمودًا أو مذمومًا. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حبَّ الله لك، والمذموم أن تحبَّ حبَّهم وحمدَهم على طاعاتك فذلك عوضٌ عاجلٌ سوى ثواب الله. والمباح أن تحبَّ ذلك لصفاتٍ محمودةٍ سوى الطاعات، فهو كحبك المال. والله أعلم.

❖ بيان من يترك الطاعات خوفًا من الرياء:

من الناس من يترك العملَ خوفًا من أن يكون مرائيًا وذلك غلط، بل الحق أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذَّة للنفس في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو، فإنها مقاساة ومجاهدات. وإلى ما هو لذيذ؛ وهو ما يتعلق بالخَلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق.

فالأول خطرات الرياء فيه ثلاث:

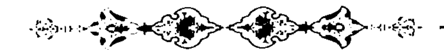
إحداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس، فينبغي أن يُترك، فإن قدر أن يدفعه عن نفسه فيقول لها: ألا تستحيين من مولاك؟ لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين لأجل عباده؟ حتى يندفع وتسخو النفس لله، فليشتغل بالعمل.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ويعترض الرياء مع عقدِ العبادة، فلا ينبغي أن يترك العمل، فليشرع وليجاهد في دفعِ الرياء.

الثالثة: أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهدَ في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى الإخلاص ويرُدَّ نفسه إليه

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢).



قهرًا، لأن الشيطان يدعوك إلى تركِ العمل، فإذا لم تُجب يدعوك إلى الرياء، فإذا لم تُجِب يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وتعبُك ضائع حتى يحملَك على ترك العمل، فيحصل غرضُه. ومثاله كمن سلَّم إليه مولاه حنطة وقال: خلِّصها مما فيها ونقِّها تنقيةً بالغة، فيقول: أخاف إن اشتغلتُ به لم تخلُص خلاصًا صافيًا نقيًا. ومن هذا القبيل أن يتركَ العمل خوفًا على الناس أن يقولوا: إنه مُراءٍ فيعصون، فهذا من مكائد الشيطان لأنه أساءَ الظنَّ بالمسلمين، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته الثواب.

وتركُ العمل خوفًا من قولهم: إنه مراءٍ عين الرياء، فلولا حبُّه لمحمدَتهم وخوفه من ذمِّهم لم يبالِ بقولهم: إنه مراء أو مخلص. وأي فرقٍ بين أن يتركه خوفًا من أن يقال: مُراء، وأن يحسِّن العمل خوفًا من أن يقال: غافل مقصر؟ ثم كيف يطمع أن يتخلّص والشيطان لا يخلِّيه، بل يقول: الآن يقول الناس: إنك تركتَ العمل ليُقال: مخلص لا يشتهي الشهرة، فلو هربتَ ودخلتَ سربًا ألقى في قلبك حلاوةَ معرفة الناس لتزهُّدك وهربِك. بل النجاة أن تُلزِم قلبَك معرفةَ آفة الرياء وضرّه في الآخرة، ولا نفع فيه في الدنيا، ليلزمَ قلبُك الكراهة والإباء، وتستمرَّ على العمل ولا تباليَ ما دمتَ تجد باعثًا دينيًا.

وجاهد خاطرَ الرياء وألزِم قلبَك الحياءَ من الله، بل إن قدرتَ أن تزيد في العمل حياءً مِن ربك وعقوبةً لقلبك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراءٍ، فاعلم كذبَه وخداعَه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله، فإن لم تجد كراهيةً وخوفًا ولم يبقَ باعثٌ دينيٌّ فاترك العملَ، وذلك بعيد.

وما نُقل عن أقوامٍ مِن تركِ العمل مخافةَ الشهرة فتركُ النوافل جائز

والكلام في الأفضل، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسَهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف. وقد ورد عن القوم من إظهار الطاعات ممن لا يحصى. وقول التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات، والعُجب بالسكوت المباح محذور. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظُم فيه الآفات، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فمن أفضل العبادات إذا كان ذلك من العدل والإخلاص، قال ﷺ: «**لَيومٌ من إمامٍ عادلٍ خيرٌ من عبادة الرجل وحده ستين عامًا**»(١). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أهل الجنة ثلاث: ذو سلطان مقسط...**»(٢) الحديث. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهم: الإمام العادل...**»(٣) الحديث.

فهي من أعظم العبادات، ولم يزل المتَّقون يتركونها ويتحرَّزون منها ويهربون من تقلُّدها، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفسَ حبُّ الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر؛ فإذا كانت الولايةُ محبوبةً كان الوالي ساعيًا في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول: مَن يأخذها بما فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني (١١٩٣٢)، قال الهيثمي (١٩٧/٥): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سعد أبو غيلان الشيباني ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات». والبيهقي (١٦٤٢٦) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وقال: هذا حديث حسن. وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن حبان (٨٧٤).



وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من والي عشرةٍ إلا جاء يوم القيامة يدُه مغلولة إلى عنقه لا يفكها إلا عدله**»[1]، وفي رواية: «**ما من والي ثلاثة إلا لقيَ اللهَ مغلولة يمينه..**»[2] الحديث. وقال ﷺ: «**ما مِن عبد يسترعيه اللهُ رعيةً لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحةَ الجنة**» متفق عليه. وقال ﷺ: «**يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أُعِنت عليها، وإن أوتيتها عن مسألة وُكِلت إليها**»[3]. وقال أبوبكر رضي الله عنه لرافع بن عمر: لا تأمَّر على اثنين، ثم ولي هو الخلافة فقام بها، فقال له رافع: ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وُلِّيت أمر أمة محمد ﷺ؟ فقال: بلى، وأنا أقول لك ذلك، فمن لم يعدل فيها فعليه بهلةُ الله. يعني لعنته.

ولعل قليلَ البصيرة يرى ما ورد في فضل الإمارة والنهي عنها متناقضًا وليس كذلك، بل الحق أن الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلُّد الولايات، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعني بالقوي الذي لا تُميله الدنيا ولا يستفزَّه الطمع ولا تأخذه في الله لومةُ لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرَّموا بها وبمخالطة الخلق، وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيِس منهم، فهؤلاء لا يحركهم ولا يسكِّنهم إلا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم.

ومن جرَّب نفسه فرآها صابرةً على الحق، ولكن خاف أن تتغير إذا وُلِّيت

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٨١)، وأبو يعلى (٦٥٧٠)، والطبراني (١٢٦٨٩)، قال الهيثمي (٥/٢٠٦): «رجاله ثقات». وأبو نعيم في الحلية (٦/١١٨).

(٢) رواه ابن حبان (٤٥٢٥)، والطبراني في الأوسط (٦٥٩).

(٣) رواه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

وأن تستحليَ الجاه فتكره العدل فتداهن، فقد اختلف العلماء هل يلزمه الهرب؟ فقال قائلون: لا يجب لأنه خوفُ أمرٍ مستقبل، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة، ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية فهو أمَارة الشر، ولذلك قال ﷺ: «**إنا لا نولِّي أمرَنا مَن سألَنا**»[1].

وأما القضاء: فإنه إمارةٌ محبوبةٌ بالطبع، والثوابُ في القضاء عظيمٌ مع اتباع الحق، والعقابُ فيه عظيمٌ مع العدول عن الحق، قال ﷺ: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة**»[2]، فينبغي أن يتركه الضعفاء وكل مَن للدنيا ولذاتها وزنٌ في عينه.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية فآفته عظيمة كآفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتيا ما وجدوا إليه سبيلًا، ويقولون: «حدَّثَنا» بابٌ من أبواب الدنيا، ومن قال: حدَّثَنا، فقد قال: أوسعوا لي. وقال بشر: يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدِّث.

والواعظ يجد في وعظِه وتأثُّر قلوب الناس به وبكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذةً، فإذا غلبَ كلُّ ذلك عليه مالَ إلى كل مزخرفٍ يروج عند العوام وإن كان باطلًا، ويفرّ عمّا يستثقلونه وإن كان حقًّا، ويصرف همَّتَه إلى ما يحرِّك قلوبَهم، فيفرح بما يسمع من حكمة وحديث مِن حيث إنه يصلح لأن يذكره على المنبر. وكان ينبغي أن يكون فرحُه لأنه عرف طريقَ السعادة ليعمل به أولًا، ثم يقصها ليشاركه إخوانه المسلمون.

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، والنسائي في الكبرى (٥٩٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥).



فإن قلت: مهما حُكم بذلك تعطَّلت العلوم وعمَّ الجهل؟ فنقول: قد نهى رسول الله عن طلب الإمارة وتوَّعد عليها، وقال: «**إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها**»[1] والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا.

وضرب عمر رضي الله عنه أبَيَّ بن كعب ـ رأى قومًا يتبعونه ـ وهو في ذلك يقول: أُبَي سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه وقال: ذلك فتنة على المتبوع ومذلَّة على التابع. وعمر كان يخطب ويعِظ، واستأذن رجلٌ عمرَ أن يعظ إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه، فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تنتفخَ حتى تبلغ الثريا. إذ رأى فيه مخايلَ الرغبة في جاه الوعظ.

والقضاء والخلافة ممّا يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس، وقول القائل: نهيُك يؤدي إلى اندراسِ العلم غلط، إذ نهيُ رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤدِّ إلى تعطيل القضاء. بل لو حُبِس الخلق وقيِّدوا من طلب العلوم التي فيها الرياسة لأفلتوا من الحبس وقطَّعوا السلاسل. وقد وعد اللهُ أن يؤيدَ هذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهم. ثم إني أقول: إذا كان في البلد جماعةٌ لا يمتنعون كلهم وإن لم يكن إلا واحدٌ وعظُه نافعٌ للناس فلا نمنعه ونقول له: اشتغل وجاهد، فإن قال: لست أقدر فنقول: اشتغل وجاهد، لأنه لو تركه لهلكَ الناسُ إذ لا قائمَ غيره، ولو واظبَ وغرضُه الجاه فهو الهالك وحده، وسلامةُ دين الجميع أحبُّ من سلامةِ دينهِ وحده.

والواعظ هو الذي يرغِّب في الآخرة ويزهِّد في الدنيا بكلامه وسيرته.

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٨)، دون قوله إلا مَن أخذها بحقها وزاد: «فنعمت المرضية وبئست الفاطمة».

فما أحدثه الوعاظ من الكلمات المزخرفة والمسجَّعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيمٌ لأمرِ الدين بل فيه الترجية والتجرئة، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نوَّاب الدجال وخلفاء الشيطان.

فإن قلتَ: ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «**لأن يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعم**»[1]، وقال ﷺ: «**مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور مَن تبعه...**»[2] الحديث. فينبغي أن يُقال للعالم: اشتغل واترك مراءاة الخلق، فاعلم أن فضلَ العلم كبير وخطرَه عظيم، ولا نقول لأحدٍ: اترك العلم إذ ليس فيه آفة، وإنما الآفة في إظهاره، ولا نقول: اتركه ما دام يجد باعثًا دينيًا.

فالمراتب ثلاث: الولايات. والثانية: الصوم والصلاة والحج والغزو. والثالثة: بين الرتبتين وهو التصدِّي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس.

فالأولى قد تركها جماعة من السلف خوفًا من الآفة. والثانية تعرَّض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يُؤْثَر عنهم الترك. والثالثة بين الرتبتين. ورتبة رابعة هي جمعُ المال وأخذُه للتفرقة على المستحقين. قال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمتُ على درجِ مسجد دمشق أصيب كلَّ يوم خمسين دينارًا أتصدق بها، أما إني لا أحرِّم البيعَ والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله.

وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).



أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفتِ قلبَه، وليَزِن وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ميل الطبع.

ولا خلاف أن تفرقةَ المال في المباحات فضلًا عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف هل الأفضل الكسب والإنفاق أو التجرُّد للذكر؟ لما في الكسب من الآفات.

ويُعرف العالمُ والواعظ أنه صادق مخلصٌ بعلامات:

إحداها: أنه لو ظهر مَن هو أحسن منه وعظًا أو أغزر علمًا والناس له أشدُّ قبولًا فرح به ولم يحسده. نعم لا بأس بالغبطة.

والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسَه لم يتغير كلامه، فينظر إلى الخلق بعينٍ واحدة.

والأخرى: ألَّا يحب اتباعَ الناس له في الطريق والمشي خلفه.

وعن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالسًا إلى جنب الحسن إذ دخل الحجَّاج ومعه الحرس، فجعل يلتفت فلم يرَ حلقةً أحفلَ من حلقةِ الحسن فتوجه نحوها، فتجافى له عن ناحيةِ مجلسه، قال سعيد: وتجافيت أيضًا، فجاء وجلس بيني وبينه، فما قطع كلامه فتكلم كلامًا واحدًا نحوًا مما كان يتكلم به، فلما فرغ رفع الحجاج يدَه فضرب على منكب الحسن قال: صدق الشيخ وبَرَّ، فعليكم بهذه المجالس فاتخذوها حلقًا وعادة، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «أن مجالس الذكر رياض الجنة»[1] ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا عليها، فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب.

وركب الحسن يريد المنزل فرأى قومًا يتبعونه فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا، فما يُبقي هذا مِن قلب العبد؟

ومهما رأيتَ العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون، اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

❖ ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

قد يبيت مع القوم فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعةً قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطُه فيزيد على ما يعتاده، وقد يقع في موضعٍ يصوم فيه أهله فينبعث نشاطه للصوم، فربما يظن أنه رياء وأن الواجب تركُ الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق، لأن كلَّ مؤمنٍ راغبٍ في عبادة الله قد تعوقُه العوائق وتستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدةُ الغير سببَ زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع، فإذا اندفعت عنه حصلت له أسبابٌ باعثةٌ على الخير كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله، فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سببٍ آخر فيغتنم ذلك، والشيطان يصدُّ عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائيًا إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة.

وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم خوفًا من ذمِّهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم، وعند ذلك يقول الشيطان: صلِّ فإنك مخلص وإنما كنت لا

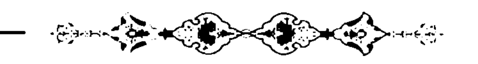


تصلي كلَّ ليلة لكَثرة العوائق وداعيتُك لزوال العوائق لا لاطلاعهم، وهذا مشتبهٌ إلا على ذوي البصائر.

فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد ولا ركعةً لطلبِ محمَدةِ الناس، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرُّك الغبطة والمنافسة في الخير فليوافق. وعلامته أن يَعرض على نفسه أن لو رأى هؤلاء من حيث لا يرونه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة؟ فإن سخَت فليصلِّ، وإن كان يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، وكذلك يحضر الإنسان الجمعةَ فينشط للصلاة ويمكن أن يكون لحبِّ حمدِهم، أو بسببِ نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم، وقد يتحرك باعثُ الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل.

وقد يبكي جماعةٌ فيحضره البكاء خوفًا من الله، ولو سمع الكلامَ وحده لما بكى، لكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد يتباكى تارةً رياءً وتارة مع الصدق إذ يخشى قساوة القلب، فيتباكى تكلُّفًا وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟

قال لقمان لابنه: لا تُرِ الناسَ أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر. كذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال تارةً تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف، وتارةً تكون لمشاهدته حزنَ غيره وقساوة قلبه فيتكلف ويتحازن وهو محمود، وقد تقترن به الرغبة لدلالته على أنه كثير الحزن ليُعرف بذلك، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء، فإن أبَاها ولم يقبلها سلِم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل وركَن حبِط أجرُه وضاع سعيُه.



وقد يكون أصلُ الأنين عن الحزَن لكن يمده ويزيد في رفعِ الصوت فتلك الزيادة رياء. وقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسَه، ولكن يسبقه خاطرُ الرياء فيقبلَه، فيدعو إلى زيادة تحزينٍ للصوت أو رفعٍ له أو حفظِ الدمعة على الوجه حتى تُبصَر بعد أن استرسلت لخشية الله، وقد يسمع الذكرَ فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحي أن يُقال له: إنه سقط من غير زوالِ عقلٍ وحالةٍ شديدةٍ، فيزعق ويتواجد، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق.

وقد يزول عقله فيسقط لكن يفيق سريعًا فتجزع نفسه أن يُقال: حالته غير ثابتة، فيستديم الزعقة. وقد يفيق بعد الضعف لكن يزول ضعفُه سريعًا فيجزع أن يُقال: لم تكن غشيتُه صحيحةً، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكئ على غيره ويتمايل في المشي ويقرِّب الخُطا.

وكلها مكائد الشيطان ونزغات النفس. وعلاجها أن يتذكر أن لو عرف الناس ما في ضميره لمقتوه، وأن الله مطلعٌ عليه، كما روي عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق، فقام معه شيخٌ آخر رأى فيه أثرَ التكلف، فقال: يا شيخ، الذي يراك حين تقوم، فجلس الشيخ.

وفي الخبر: «**تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق**»[1]. ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه ومن غضبه، فقد يكون لخاطرِ خوفٍ وتندُّمٍ على ذنب، وقد يكون للمراءاة. فهي خواطر متضادة مترادفة متشابهة؛ فراقب قلبَك فيما يخطر لك، فإن كان لله فامضِه، واحذر أن يكون خفيَ عليك شيءٌ من الرياء، وكن على وجلٍ من عبادتك أمقبولة أم لا؟ واحذر أن يتجدد لك خاطرُ الركون إلى حمدِهم بعد الشروع بالإخلاص، فإن ذلك مما يكثر جدًّا، فإذا

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق (٦٩٦٧)، والديلمي (٢٢٨٠).



خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقتِه لك. قال بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناسُ أني أخشاك وأنت لي مَاقِت.

ومن دعاء سيدنا علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تحسُن في لامعة العيون علانيتي وتقبُح لك فيما أخلو سريرتي، محافظًا على رياء الناس من نفسي مضيِّعًا لِمَا أنت مطلعٌ عليه مني، أُبدي للناس أحسنَ أمري وأُفضي إليك بأسوأ عملي، تقرُّبًا إلى الناس بحسناتي وفرارًا منهم إليك بسيآتي، فيحلَّ بي مقتُك ويجب عليَّ غضبُك، أعذني من ذلك يا رب العالمين.

وكيف يُدرَك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقُّد والمراقبة، وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يُطمَع في إدراكه من غير تفقُّدٍ للقلب وامتحانٍ للنفس وتفتيشٍ عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

❖ ما ينبغي للمريد أن يُلزم نفسَه قبل العمل وبعده وفيه:

أولى ما يُلزم المريد قلبَه القناعة بعلم الله، ولا يقنع به إلا مَن لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فمن خاف غيرَه وارتجاه اشتهى اطلاعَه على محاسن أحواله، فليُلزم قلبَه كراهةَ ذلك من جهة العقل والإيمان، وليراقب نفسَه عند الطاعات فإنها تكاد تغلي حرصًا على الإفشاء وتقول: كيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلَّك وينكرون قدرَك ويُحرَمون الاقتداء بك؟ فليثبِّت قدمَه، وليتذكر عظمَ ملك الآخرة ودوامه، وعظمَ غضبِ الله على من طلب بطاعته ثوابًا من عباده، فيقول: كيف أَتَّبع مثلَ هذا العمل بحمدِ الخلق وهم عاجزون

لا يقدرون لي على رزقٍ ولا أجل؟ ولا ينبغي أن ييْأَس فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، فيترك المجاهدة، فالمخلِّط إلى الإخلاص أحوج.

وقد روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُحاسب العبدُ يوم القيامة، فإن نقص فرضُه قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أُكمل به فرضه، وإن لم يكن له تطوع أُخذ بطرفيه فأُلقي في النار**»(١)، فالمخلِّط يأتي وعليه ذنوبٌ كثيرة ولا تُجبَر الفرائضُ وتُكفَّر السيئات إلا بخلوص النوافل.

ويُلزم قلبَه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به، ويكون وجلًا خائفًا أنه ربما داخلَه من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فليكن هكذا في دوام العمل وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقِّنًا أنه مخلص، فإذا شرع ومضت لحظةٌ يمكن فيها الغفلة كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفيَّة محبطة للعمل أولى به، لكن يكون رجاؤه أغلب، فتعظم لذَّته في المناجاة والطاعات، فالإخلاص يقين والرياء شك، وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفِّر خاطرَ الرياء إن سبقَ وهو غافل.

والمتقرب بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم يُلزم نفسَه رجاءَ الثواب على دخول السرور على قلبِ مَن قضى حاجتَه، وعلى عملِ المتعلم بعلمِه دون شكرٍ ومكافأة وحمدٍ وثناء. ومهما توقَّع مساعدةً في شغل أو خدمةً أو مرافقةً في المشي ليستكثر باستتباعه أو ترددًا منه في حاجةٍ فقد أخذ أجرَه فلا ثواب له. نعم إن لم يقصد إلا الثواب على عملِه بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن

---

(١) رواه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥)، وابن ماجه (١٤٢٥).

خدَمه التلميذ بنفسه فقبل، فنرجو ألَّا يُحبِط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده ولا يستبعد منه قطعَه.

وقد وقع بعضُهم في بئر فجاء قومٌ فأدلوا حبلًا ليرفعوه، فحلف ألَّا يقف معهم مَن قرأ عليه آيةً من القرآن أو سمع منه حديثًا خيفةَ أن يحبط أجره. وقال شقيق البلخي: أهديتُ لسفيان الثوري ثوبًا فردَّه علي، فقلت له: يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديثَ حتى تردَّه علي، قال: علمت ذاك ولكن أخاك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره.

وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين، وكان أبوه صديقًا لسفيان، فقال: يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك، كان وكان.. وأثنى عليه، فقال: يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال إلي، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك، قال: فقبل سفيان. فلما خرج قال لولده: يا مبارك الحقه فرده عليَّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ مالَك، فلم يزل به حتى رده. قال ولده: فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا! حجارة؟ عدَّ أنه ليس لك عيال، أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ فأكثرتُ عليه فقال: يا مبارك تأكلها أنت هنيئًا مريئًا وأُسأل عنها أنا.

فيجب على العالم أن يُلزم قلبَه طلبَ الثواب من الله في اهتداء الناس به، وعلى المتعلم أن يُلزم قلبَه حمدَ الله وطلبَ ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلّم وعند الخلق، وربما يظن أن له أن يرائيَ بطاعته لينالَ عند المعلم رتبته، وهو خطأ، فإرادة غيرِ الله خسرانٌ في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد، بل ينبغي أن يتعلم لله، ويعبد لله، ويخدم المعلمَ لله، لا ليكون له في قلبه منزلة. وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمَهما لطلبِ المنزلة عندهما إلا



من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائيَ بطاعته لينال منزلةً عند الوالدين.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفةَ مِن راهب يقال له سمعان، قلت له: منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الديرَ الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال إنهم يأتوني في كل سنة يومًا فيزيِّنون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني، فكلما تثاقلَت نفسي عن العبادة ذكَّرتها عزَّ تلك الساعة، فأحتمل جهدَ سنة لعزِّ ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهدَ ساعة لعزِّ الأبد، فوقرَ في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قال: انزِل عن الصومعة، فنزلت، فأدلى لي ركوةً فيها عشرون حمصة، فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليتُ إليك، فلما دخلتُ الدير اجتمع عليَّ النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك؟ قلت: من قوته، قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به، ثم قالوا: ساوم، قلت: عشرون دينارًا، فأعطوني عشرين دينارًا، فقال: ما الذي صنعت؟ قلت: بعتُه منهم بعشرين دينارًا، قال: لو ساومتَهم بعشرين ألف لأعطَوك، هذا عزُّ من لا تعبده فانظر كيف يكون عزُّ من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابةٍ واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يجزع، إلا كراهةً ضعيفةً، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه.

ومن علامة الصدق أن لو كان له صاحبان، غني وفقير، لا يجد عند



إقبال الغني زيادةً هزةٍ إلا إذا كان فيه زيادةُ علمٍ أو ورعٍ فيكرمه لذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع، فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة. وقد حُكي أنه لم يُرَ الأغنياء في مجلسٍ أذلَّ منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء. نعم لك زيادة إكرامه إذا كان أقربَ إليك أو بينك وبينه حقٌّ وصداقة سابقة، لكن يكون بحيث لو وُجدت تلك في فقيرٍ لكنتَ لا تقدم الغنيَّ عليه. قال ابن السماك لجارية: مالي إذا أتيتُ بغداد فُتحت لي الحكمة!؟ قالت: الطمع يشحذ لسانك.

ومكائد النفس في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك إلا أن تُخرِج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بشهوات منغِّصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كمَلكٍ أمكنته الشهوات لكن في بدنه سقم يخاف منه الهلاك، وعلم أن لو احتمى عاش ودام ملكُه، فجالسَ الأطباء وحارفَ الصيادلة وتعوَّد شربَ الأدوية المُرَّة وهجر اللذات، فيزداد بدنهُ نحولًا ولكن سقمه يزداد نقصانًا، فمهما نازعَته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام وأداه إلى الموت، ومهما اشتد عليه شربُ دواءٍ تفكَّر فيما يستفيده من الشفاء، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لمُلك الآخرة احتمى عن كل مُهلكٍ له في آخرته، ثم علم أن اللهَ كريمٌ رحيمٌ لم يزل لعباده رؤوفًا وعليهم عطوفًا، أراد أن يبلو عبادَه ويعرف صدقَ إرادتهم، ثم إذا تحمل التعب أقبل عليه بالمعونة وحط عنه الأعباء وحبَّب إليه الطاعة ورزقه من لذة المناجاة ما يُلهيه عن سائر اللذات ويقوِّيه على إماتة الشهوات، فإن الكريم لا يضيِّع سعيَ



الراجي ولا يخيِّب أملَ المحب، وهو الذي يقول: «**من تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذراعًا**»[1]، ويقول: «**لقد طال شوقُ الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم أشد شوقًا**»[2]. فليُظهر العبدُ في البداية جِدَّه وصدقَه وإخلاصَه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: «لم أجد له أصلًا إلا أن صاحب «الفردوس» أخرجه من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادًا». واكتفى الزبيدي في الإتحاف (٧/٢٢١) بنقل كلام العراقي فقط.

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للهِ الخالقِ البارئِ العزيزِ الجبارِ المتكبر، كلُّ جبارٍ له ذليلٌ خاضع، وكل متكبِّرٍ في جنبِ عزَّته مسكينٌ متواضع، كسرَ ظهورَ الأكاسرة عزُّه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمتُه وكبرياؤه. والصلاة على سيدنا محمد الذي أُنزل عليه النورُ المنتشرُ ضياؤه، حتى أشرقت بنوره أكنافُ العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباب الله وأولياؤه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فقد وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات.

❖ ذم الكبر:

قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ مِن كبر، ولا يدخل النارَ رجلٌ في قلبه مثقال حبةٍ**

من خردلٍ من إيمان»[١] وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيتُه في جهنم**» رواه ابن ماجه[٢] واللفظ له، وأبو داود[٣] وقال: «**قذفتُه في النار**» ومسلم[٤] وقال: «**عذبته**». وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك؟ قال: هذا زعم أنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**مَن كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من كبرٍ أكبَّه الله في النار على وجهه**»[٥].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين، فيصيبُه ما أصابَهم من العذاب**»[٦]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**يخرج من النار عنقٌ له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وُكِّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل مَن دعا مع الله آخر، وبالمصوِّرين**»[٧]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذِّب بك**

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود (٩١).

(٢) (٤١٧٤).

(٣) (٤٠٩٠).

(٤) (٢٦٢٠).

(٥) أخرجه أحمد (٧٠١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد صحيح (٨١٥٤).

(٦) أخرجه الترمذي وحسنه (٢٠٠٠).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٥٧٤) وقال: صحيح غريب.

من أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما ملؤها»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن نوحًا عليه السلام لمّا حضَرته الوفاة دعا ابنيه، وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السماوات والأرَضين وما فيهن لو وُضِعت في كفة الميزان ووضعت لا إلـه إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أن السماوات والأرضين وما فيهن كانت حلقةً فوُضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق كل شيء»[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يُحشر المتكبّرون يوم القيامة في صور الذرّ، تطؤهم الناس لهوانِهم على الله تعالى»[3].

قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرنَّ أحدٌ أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقيل في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، هو سبيل الغائط والبول. وقد قال سيدنا محمد بن الحسين بن علي: ما دخلَ قلبَ امرئ شيءٌ من الكبر قط إلا نقصَ من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلَّ أو كثُر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر.

❖ ذم الاختيال وجرِّ الثياب:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا ينظر الله إلى مَن جرَّ إزارَه

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) رواه أحمد (٦٥٨٣)، والبخاري في كتاب الأدب (٥٤٨)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد (١١٢/١).

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء: «رواه البزار هكذا مختصرًا دون قوله: «الجبارون» وإسناده حسن». ورواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٢٤)، والبيهقي في الشعب (٨١٨٥).

بطرًا»[1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**بينما رجلٌ يتبختر في بُرديه قد أعجبته نفسُه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة**»[2]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره خيلاء**»[3]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا مشت أمتي المُطَيطَأ وخدمتهم فارس والروم، سلط الله بعضَهم على بعض**»[4]، قال ابن الأعرابي: هي مشيةٌ فيها اختيال. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَن تعظَّم في نفسه، واختال في مشيته، لقي اللهَ وهو عليه غضبان**»[5].

ومرَّ بالحسن شاب عليه بزَّة حسنة فدعاه فقال: ابن آدم معجَب بشبابه، محب لشمائله، كأن القبرَ قد وارى بدنَك، وكأنك قد لاقيتَ عملك، ويحك داوِ قلبَك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم. ورأى محمد بن واسع ولدَه يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمئتي درهم، وأما أبوك فلا أكثرَ اللهُ في المسلمين مثله. ويروى أن مطرِّف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلبَ وهو يبتختر في جبة خزٍّ فقال: هذه مشيةٌ يبغضها الله ورسوله، فقال: أما تعرفني؟ قال بلى، أوَّلك نطفةٌ مذِرة، وآخرتك جيفةٌ قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فمضى وترك مشيتَه تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة]، أي يتبختر.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٨) ومسلم (٢٠٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٨٥).

(٤) رواه الترمذي (٢٢٦١)، وابن حبان في صحيحه (٦٧١٦)، والطبراني في الأوسط (١٣٢).

(٥) رواه أحمد (٥٩٩٥). قال الهيثمي (١/٩٨): «رجاله رجال الصحيح». والبخاري في الأدب (٥٤٩). والطبراني، والبيهقي في الشعب (٨١٦٧)، والحاكم وصححه (١/٦٠).



❖ فضيلة التواضع:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[١]. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبلُ صلاةَ مَن تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خَلقي، وألزمَ قلبَه خوفي وقطع نهارَه بذكري، وكفَّ نفسَه عن الشهوات من أجلي. وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرِثون الفردوسَ يوم القيامة، طوبى للمطهَّرة قلوبُهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وحديث أكلِه صلى الله عليه وآله وسلم مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[٢].

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه: إن العبد إذا تواضعَ لله رفع الله حكَمتَه وقال: انتعِش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طورَه رهصَه الله في الأرض وقال: اخسأ أخسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعينِ الناس حقير، حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبد الله: انتهيتُ إلى شجرة تحتها نائمٌ استظلَّ بنطع، وقد جاوزَت الشمس النطعَ فسوَّيتُه عليه، ثم استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت ما صنعت، فقال: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٧)، وابن ماجه (٣٥٤٢).

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعتَه من صبي قبلتَه، ولو سمعتَه من أجهل الناس قبلته. وقال قتادة: من أُعطي مالًا أو جمالًا أو ثيابًا أو علمًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة. وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمتُ عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أُتمِمها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبدٍ من نعمةٍ فشكرها وتواضع بها إلا أعطاه نفعَها في الدنيا ورفعَ بها درجتَه في الآخرة، وما أنعم الله على عبدٍ من نعمةٍ فلم يشكرها ولم يتواضع بها إلا منعه نفعَها في الدنيا وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه.

وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفَّح وجوهَ الأغنياء والأشراف، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكينٌ مع مساكين. وتذاكر يونس وأيوب والحسن في التواضع فقال الحسن: أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا. وقال يونس بن عبيد عند انصرافِه من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم، فأخشى أن حُرموا بسببي. وقال زياد النمري: الزهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن مناديًا بباب المسجد: ليخرج شرُّكم، والله ما سبقني أحدٌ إلا بفضل قوةٍ أو سعي، فلما بلغ ابن المبارك قال: بهذا صار مالكٌ مالكًا. وقال الفضيل: من أحب الرئاسةَ لم يفلح أبدًا. وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلةٌ وريحٌ حمراء، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل فقلت: أنت إمامُنا فادعُ الله لنا، فبكى وقال: ليتني لم أكن سببَ هلاكِكم، فرأيت النبيَّ ﷺ في النوم فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في المنام



فقلت: عِظني، قال: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبةً منهم في ثواب الله! وأحسنُ منه تيهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عز وجل. وقال أبو يزيد: ما دام العبدُ يظن أن في الخلق مَن هو شرٌّ منه فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعا؟ قال: إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا.

وتواضعُ كل إنسانٍ على قدر معرفته بربه عز وجل وبنفسه، قال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. ويُقال: لا عزَّ إلا لمن تذلل لله، ولا رفعةَ إلا لمن تواضع لله، ولا أمْنَ إلا لمن خاف الله، ولا ربحَ إلا لمن ابتاع نفسه من الله.

وكان الجنيد يوم الجمعة في مجلسه يقول: لولا أنه روي عن النبي ﷺ: «يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلُهم»[1] ما تكلمت عليكم. وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلًا راكبًا بغلة وبين يديه غلمان يعنِّفون الناس، وبعد حين دخلتُ بغداد، فإذا برجلٍ حافٍ حاسرٍ جعلتُ أنظر إليه، فقال: ما لك تنظر إلي؟ قلت: شبَّهتك برجل رأيتُه في مكة ووصفت له الصفة، قال: أنا ذلك الرجل، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: ترفَّعت في موضع يتواضع فيه الناس، فوضعني الله حيث يترفَّع الناس. وقال المغيرة: كنا نهابُ إبراهيم النخعي هيبةَ الأمير، وكان يقول: إن زمانًا صرتُ فيه فقيهَ الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السُّلَمي إذا سمع صوتَ الرعد قام وقعد وقال: من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس.

❖ حقيقة الكبر وآفته:

ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن خُلُقٌ في النفس، والظاهر هو أعمال

---

(١) رواه الترمذي (٢٢١٠، ٢٢١١).

تصدر عن الجوارح، وهو بالخُلق الباطن أحق. فالأصل هو الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤيتها فوق المتكبَّر عليه، والعُجب لا يستدعي غير المُعجَب، ولا يُتَصوَّر أن يكون متكبرًا إلا مع غيره يرى نفسه فوقَه، فاعتقادات أن لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ومرتبته فوق الغير تحصِّل اعتدادًا وهزَّةً وفرحًا وركونًا وعزًّا في نفسه، فذلك خلق الكبر، فهو عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من تلك الاعتقادات. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، قال: عظمةٌ لم يبلغوها.
وتقتضي أعمالًا في الظاهر والباطن هي ثمرات له تُسمَّى تكبُّرًا، فمهما عظم عنده قدره حقَّر من دونه وازدراه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، وإن اشتد كبرُه رأى أن حقه أن يقوم ماثلًا بين يديه، فإن كان أشد استنكف عن استخدامه، فإن كان دون ذلك أنِف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام، وإن حاجَّ أو ناظرَ أنِف أن يُرَدَّ عليه، وإن وُعِظ استنكف من القبول، وإن وَعظ عنَّف، وإن علَّم لم يرفق وانتهر وامتنَّ، فينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير.

فآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العُبَّاد والزهَّاد والعلماء فضلًا عن عوامِّ الخلق، وإنما صار حجابًا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وأخلاق المؤمنين كلها، وهي أبواب الجنة، فلا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفي نفسه العز، ولا يقدر على التواضع وفيه العز، ولا على تركِ الحقد، ولا أن يدوم على الصدق، ولا أن يترك الغضب، ولا أن يكظم الغيظ، ولا أن يترك الحسد، ولا أن ينصح بلطف، ولا أن يقبل النصح، ولا يسلَم من الازدراء بالناس وفيه العز. فما من خلقٍ ذميمٍ



وإلا وصاحب الكبر مضطرٌّ إليه، وما من خلقٍ محمودٍ إلا وهو عاجزٌ عنه خوفًا أن يفوته عزُّه. والأخلاق الذميمة متلازمة، البعض داع إلى البعض.

وشر أنواع الكبر ما يمنع استفادةَ العلم وقبول الحق، وفيه وردت الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام]، ثم قال: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر]، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قيل: سأرفع فهمَ القرآن عن قلوبهم. وفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت. قال ابن جرير: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذا قال المسيح عليه السلام: إن الزرع ينبت في السهل لا على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع لا في قلب المتكبر. وقال ﷺ: «**الكبر مَن سفهَ الحق وغمص الناس**» رواه أحمد[(١)]، ورواه الترمذي بلفظ: «**مَن بطر الحق وغمص الناس**»[(٢)]، وقال: حسن صحيح. وفي رواية: «**بطر الحق وغمط الناس**»[(٣)].

---

(١) (٣٧٨٩).

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٩).

(٣) رواه مسلم (٩١).

❖ **بيان المتكبَّر عليه وأقسامه:**

قد خُلق الإنسان ظلومًا جهولًا، فتارة يتكبّر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فهو باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله، وهو أفحش أنواع الكبر، لا مثارَ له إلا الجهل المحض والطغيان، كما كان من نمروذ يحدِّث نفسَه بأن يقاتل ربَّ السماء، وكما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى. استنكف أن يكون عبدًا لله. وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

الثاني: التكبر على الرسل، لتعزُّز النفس على الانقياد لبشر، فتارةً يصرف عن الفكر والاستبصار، وتارة يمتنع مع المعرفة لكن لا تطاوعه نفسه، كما حكى الله قولَهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩]، قال وهب: قال له موسى: آمن ولك ملكُك، قال: حتى أشاور هامان، فقال له: بينما أنت ربٌّ يُعبَد إذ صرت عبدًا تَعبُدُ، فاستنكف.

وقالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، طلبوا أعظم رئاسةً من النبي فقالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا!؟ فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ



﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فمنهم من منعَه الكبر عن الفكر، ومنهم من عرف ومنعَه الكبر عن الاعتراف، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا قريبٌ من التكبر على الله وإن كان دونه، فهو تكبُّر على قبول أمره والتواضع لرسله.

الثالث: التكبر على العباد، فتأبى نفسه عن الانقياد ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، فهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، أما المملوك العاجز فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر فقد نازعَ اللهَ صفةً لا تليق إلا بجلاله، فمن تكبر على عبدٍ من عباد الله فقد نازعَ اللهَ في حقه، نعم الفرق بين هذه ومنازعة نمروذ وفرعون هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده وبين منازعته في أصل الملك.

الثاني: أنه يدعو إلى مخالفة الله لأن المتكبر إذا سمع الحقَّ استنكف عن قبوله، لذا ترى المناظرين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم يتجاحدون، ومهما اتضح الحق على لسان واحد أنِف الآخر من قبوله وتشمَّر بجحده واحتال لدفعِه، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، فكل مُناظرٍ للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق فقد شارك في هذا الخلق ويحمله على الأنفَة من قبول الوعظ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، قال ابن مسعود: كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له: اتق الله قال: عليك نفسك.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لرجل: «**كُل بيمينك**» قال: لا أستطيع، فقال: «**لا استَطعتَ**» ما منعه إلا كبره، فما رفعها بعد ذلك[1]. فإذًا تكبُّره على الخلق يدعوه إلى التكبر على أمرِ الله، وإنما ضُرب إبليس مثلًا لهذا ليُعتبَر به، إذ قال: أنا خير منه، كان مبدأه الكبرُ على آدم والحسد له، فجرَّه إلى التكبر على أمرِ الله، فكان سببَ هلاكه أبد الآباد.

فكل من رأى أنه خيرٌ من أخيه، أو ردَّ الحقَّ وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومَن أنِف أن يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

❖ ما به التكبر:

لا يَتكبَّر إلا باستعظامِ نفسِه، باعتقادِ صفةِ كمالٍ دينيٍّ كالعلم والعمل، أو دنيويٍّ كالنسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب.

الأول: العلم، وما أسرع الكبرَ إلى أهله! إذ فيما يتعلق بالدنيا يتعزَّز أحدُهم بالعلم ويستعظم نفسَه وينظر إلى الناس كالبهائم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام والإكرام، ويرى الفضلَ له عليهم فيَبَرُّونه ولا يبَرُّهم ويزورونه ولا يزورهم، ومن قصَّر في حاجته استنكره كأنهم عبيده وأُجراؤه. وفي أمرِ الآخرة يرى نفسه أعلى وأفضل، فيخاف عليهم أكثر من نفسِه، وهذا أن يسمى جاهلًا أولى، إنما العلم الحقيقي هو الذي يعرفُ الإنسان به نفسَه وربَّه وخطرَ الخاتمة وحجَّةَ الله على العلماء، فيرى الناسَ خيرًا منه لعظمِ الحجَّة عليه. قال أبو الدرداء: مَن ازداد علمًا ازداد وجعًا، وهو كما قال.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢١).



فإن قلتَ: فما بالُ البعض يزداد بالعلم كِبرًا؟ فلذلك سببان:

أحدهما: اشتغاله بما يسمى علمًا وليس علمًا حقيقيًا، بل العلم معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تُورِث التواضعَ غالبًا.

الثاني: أن يخوض في العلم وهو خبيث الدُّخلة رديء النفس، لم يشتغل أولًا بتهذيب نفسه، فبقي خبيثَ الجوهر، فيُصادف العلمُ من قلبهِ منزلًا خبيثًا فلا يطيب ثمره. قال وهب: العلم كالغيث ينزل حلوًا صافيًا فتشربهُ الأشجار فتحوِّله على قدر طعومها، يزداد المرُّ مرارةً والحلوُ حلاوة، والعلم تحفظهُ الرجال بهمَمِها وأهوائها، فيزيد المتكبرُ كبرًا والمتواضع تواضعًا. لأن مَن كان متكبرًا وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد، وإذا كان خائفًا مع جهله فازداد علمًا علم أن الحجةَ تأكدت فازداد خوفًا وتواضعًا، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ووصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال العباس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يكون قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرَهم، يقولون: قد قرأنا فمَن أقرأ منا ومن أعلم منا؟** ثم التفت إلى أصحابه وقال: **أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وَقود النار**»(١).

قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرةَ العلماء فلا يفي علمُكم

---

(١) أخرجه الطبراني (١٣٠١٩) وفي الأوسط (٦٢٤٢)، وأبو يعلى (٦٦٩٨)، والبزار (٢٨٣) قال الهيثمي (١/٢٢٧): «ورجال البزار موثقون». وابن المبارك في «الزهد والرقائق». وفي البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٣): «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**».

بجهلكم. واستأذن تميمٌ عمرَ في القصص فأبى وقال: إنه الذبح. واستأذنه إمام قوم أنه إذا سلَّم ذكَّرهم، فقال: إني أخاف أن تنتفخَ حتى تبلغَ الثريا. فما أعزَّ على بسيط الأرض عالمًا لا يحرِّكه عزُّ العلم وخيلاؤه، فإن وُجد فهو صدِّيق زمانه لا ينبغي أن يُفارَق، بل النظر إليه عبادة فضلًا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله، ولو عرفناه ولو أقصى الصين لسعينا إليه رجاءَ أن تشملَنا بركتُه وتسريَ إلينا سيرتُه وسجيَّته. فنسأل الله أن يعاملَنا بما هو أهله ويستر علينا قبائحَ أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو الزهاد والعبَّاد عن رذيلةِ العز والكِبر، أما في الدنيا فيرون غيرَهم بزيارتهم أولى، ويتوقعون قيامَ الناس بقضاءِ حوائجِهم وتوقيرِهم والتوسيعِ لهم وذكرِهم بالخير وتقديمِهم على سائرِ الناس كأن عبادَتهم منةٌ على الخلق.

وفي الدين يرى الناسَ هالكين ونفسه ناجيًا، وهو الهالك. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا سمعتم الرجلَ يقول: هلك الناسُ فهو أهلكُهم**»[(١)]. وذلك يدل أنه مُزدرٍ بالخلق مغترٌّ بالله آمنٌ من مكرِه، ويكفيه شرًّا احتقارُه الغير، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**بحسْب امرئٍ من الشر أن يحقرَ أخاه المسلم**»[(٢)]، وكم من فرقٍ بينه وبين مَن يحبه ويعظمه لله ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، وهو يتمقَّت إلى الله بالترفُّع عنهم، فما أجدرهم أن ينقلَهم الله إلى درجته في العمل، وما أجدره أن ينقله إلى حدِّ الإهمال، كما رويَ أن رجلًا يُقال له خليعُ بني إسرائيل مرَّ بآخر يُقال له عابد بني إسرائيل على رأسه غمامة، فقال في نفسه: أنا خليعُ بني إسرائيل وهذا

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣).
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).



عابدُهم، فلو جلستُ إليه لعل اللهَ يرحمني، فجلس إليه، فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليعهم كيف يجلس إلي؟ فأنف منه، قال: قم عني، فأوحى الله إلى نبي زمانهم: مُرهما فليستأنفا العمل فقد غفرتُ للخليع وأحبطت عملَ العابد. وفي رواية: تحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

فالله إنما يريد من العبيد قلوبَهم، فالجاهل العاصي إذا تواضعَ هيبةً وذلاً وخوفًا فقد أطاع اللهَ بقلبه، فهو أطوعُ من العالم المتكبر والعابد المُعجب. وورد أن رجلًا في بني إسرائيل أتى عابدًا فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك أبدًا. فأوحى الله أيها المُتألِّي بل أنت لا يغفر الله لك(١).

ولو استخفَّ به أو آذاه أحدٌ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك أنه صار ممقوتًا، ولو آذى مسلمًا آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وهو جمعٌ بين الكبر والعجب، وقد ينتهي الحُمق إلى أن يتحدى ويقول: سترونَ ما يجري عليه، وإذا أُصيب زعم أن ذلك من كراماته، مع أنه يرى طبقاتٍ من الكفار يسبون الله ورسولَه، وعرف جماعةً آذَوُا الأنبياء صلوات الله عليهم بقتلٍ وضربٍ وأمهلَ الله أكثرَهم، بل ربما أسلم بعضُهم، والمغرور يظن أنه أكرمُ من الأنبياء، ولعلَّه في مقتِ الله بإعجابه وكبره.

أما الأكياس فيقولون ما قال عطاء السُّلمي حين تهب الريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناسَ ما يصيبهم إلا بسببي، ولو مات عطاء لتخلَّصوا. وقال الآخر بعد انصرافه من عرفات: أرجو الرحمةَ لجميعِهم لولا كوني فيهم. فانظر الفرقَ، هذا يتقي اللهَ ظاهرًا وباطنًا وهو وجِلٌ مزدرٍ لعمَله، وذاك ربما

(١) رواه أبو داود (٤٩٠١)، والحاكم وإسناده حسن، والطبراني في الكبير (٨٧٩٥).



يضمر من الرياء والكبر والغل والحسد ما هو ضحكة للشيطان ثم يمتنُّ على الله، ومن اعتقد جزمًا أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميعَ عمله، فالجهلُ أفحش المعاصي، وحكمه لنفسه بأنه خير جهلٌ وأمنٌ مِن مِكر الله؛ وذُكر رجل للنبي ﷺ بخير فأقبل، فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه، فقال: «**إني أرى في وجهه سفعةً من الشيطان**»، فسلَّم ووقف على النبي، وقال له: «**أسألك بالله أحدَّثتك نفسك أنه ليس في القوم أفضل منك**» قال: اللهم نعم[١]. وهذه آفة لا ينفك عنها من العبَّاد إلا من عصمه الله.

والعلماء والعُبَّاد في الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون مستقرًّا في قلبه إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعلَ من يرى غيره خيرًا، وهذا رسخَ في قلبه شجرةُ الكبر لكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفُّع والتقدُّم وإظهار الإنكار على من يقصِّر في حقه، وأدناه في العالم أن يصعِّر خدَّه للناس، وفي العابد أن يعبِّس وجهَه كأنه مستقذِرٌ لهم، وليس يعلم أن الورعَ ليس في الجبهة ولا في الخدِّ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**التقوى هاهنا**»[٢] وأشار إلى صدره.

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أكرمَ الخلق وأتقاهم، وكان أوسعَهم خُلقًا وأكثرَهم بِشرًا وتبسُّمًا وانبساطًا. قال الحارث بن جزء صاحب رسول الله: يعجبني من القرَّاء كلُّ طليق مضحاك، فأما الذي تلقَاه ببشر ويلقاك

---

(١) رواه أحمد والبزار والدارقطني (٢/٥٤، رقم: ٧)، والبيهقي في الشعب (٨٢٥٤)، وأبو نعيم (٣/٥٢)، وأبو يعلى (٩٠، ٤١٢٧، ٤١٤٣) قال الهيثمي (٦/٢٤١): «رواه أبو يعلى، وفيه موسى بن عبيدة وهو متروك. ورواه البزار باختصار، ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم».

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).



بعبوس فلا أكثر الله في المسلمين مثلَه، ولو كان الله يرضى ذلك ما قال لنبيه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء].

الثالثة: أن يظهر الكبرَ على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوة والمفاخرة وتزكية النفس والتشمُّر لغلبة الغير.

أما العابد فيقول في التفاخر عن غيره من العُبَّاد: من هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ يطوِّل اللسان فيهم، ثم يثني على نفسه: إني لم أفطر منذ كذا وكذا، ولا أنام الليل، وأختم القرآن في كل يوم؛ وفلان ينام سحرًا، ولا يُكثر القراءة، وما يجري مجراه. وقد يزكِّي نفسَه ضمنًا يقول: قصدني فلان بسوء فهلَك وولده وأُخذ مالُه أو مرض، يدَّعي الكرامةَ لنفسه. أما مباهاته: فلو وقعَ مع قومٍ يصلون قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع كلَّف نفسَه الصبر ليغلبهم ويشتد في العبادة خوفًا من أن يُقال غيره أعبد منه.

وأما العالم فيتفاخر بقوله: أنا متفنِّن في العلوم ومطَّلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانًا وفلانًا، ومن أنت؟ وما فضلك؟ ومَن لقيت؟ وما الذي سمعت؟ ومباهاته: أن يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يُغلب، ويسهر في تحصيل علومٍ يتجمَّل بها في المحافل كالمناظرة والجدل، وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظِ العلوم الغريبة ليُغرِب بها على الأقران ويتعظَّم، ويفرح مهما أخطأ واحد ليردَّ عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفةَ أن يُرى أعظم منه.

فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[1] كيف يستعظم نفسَه ويتكبَّر على غيره، ورسول الله يقول إنه

(١) رواه مسلم (٩١). وقد تقدم.

من أهل النار؟ والعالم من فهم أن الله قال: إن لك قدرًا عندنا ما لم ترَ لنفسك قدرًا، فإن رأيتَ لها قدرًا فلا قدرَ لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسمُ العالِم عليه كذب، ومَن علمَه لزمه ألَّا يتكبر.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فيستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلمًا، وقد يرى أن الناس له أموال وعبيد يأنفُ من مجالستهم، ثمرته التفاخر به، فيقول: يا نبطي ويا هندي من أنت؟ ومن أبوك؟ وأين لمِثلك أن يكلمني، ومع مثلي تتكلم؟ وجاء عن أبي ذر أنه قال: قاولتُ رجلًا عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء، فقال النبي ﷺ: «**إنك لستَ بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضلَه بتقوى**»[1]، فقال أبو ذر: فاضطجعت، وقلت للرجل: قم فطأ على خدِّي. فانظر كيف نبَّهه رسول الله، وكيف تاب وقلع من نفسه شجرةَ الكبر بأخمصِ قدم مَن تكبَّر عليه.

وورد أن رجلين تفاخرا عند النبي فقال أحدهما: أنا ابن فلان ابن فلان فمَن أنت لا أمَّ لك؟ فقال النبي ﷺ: «**افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدَّ تسعة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل للذي افتخر إن التسعةَ من أهل النار وأنت عاشرهم**»[2].

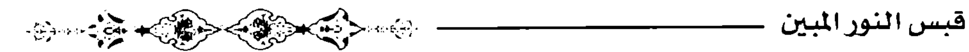
الرابع: التفاخر بالجمال وأكثر ما يجري بين النساء ويدعو إلى التنقُّص والثَّلب والغيبة.

الخامس: الكبر بالمال، ويجري بين الملوك والتجار والمتجمِّلين في

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٤٠٧)، وابن المبارك.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أُبي بن كعب بإسناد صحيح (٢١١٧٨)، وعبد بن حميد (١٧٩)، قال الهيثمي (٨/٨٥): «رجاله رجال الصحيح غير يزيد بن زياد بن أبي الجعد، وهو ثقة». والبيهقي في شعب الإيمان (٥١٣٣)، والديلمي (١٦٤٣).



لباسهم وخيولهم ومراكبهم، يستحقر الغني الفقير ويقول: أنت مكِدٌّ ومسكين لو أردتُ لاشتريتُ مثلك، واستخدمت مَن هو فوقك، وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك، وأنفق في اليوم ما لا تنفقه في سنة، لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وذلك جهل، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]، ومن ذلك تكبُّر قارون، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] الآية.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والعشيرة والأقارب والبنين، ويجري بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة كل ما هو نعمة وأمكنَ أن يُعتقد كمالًا أمكنَ أن يُتكبَّر به وإن لم يكن في نفسه كمالًا، حتى إن الفاسق قد يفتخر بفِسقه ويتكبر به لظنِّه أن ذلك كمال.

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

❖ البواعث على التكبر وأسبابه:

الكبرُ باطنٌ، وما يظهر من الأفعال ثمرةٌ، ويسمى تكبرًا. والكبر استعظام النفس ورؤية قدرِها فوق قدر الغير، وموجبه العجب، فإذا أُعجب بنفسه أو بعلمه أو بعمله أو بشيء استعظم وتكبر.

أما الكبر الظاهر فأسبابه: العجب وهو سبب في المتكبر. والحقد والحسد تتعلَّق بالمتكبَّر عليه. والرياء يتعلق بغيرهما.

فالعجب يورِث الكبرَ الباطنَ وهو يثمر التكبر الظاهر.

والحقد يحمل على التكبر كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسببٍ سبق فأورثه حقدًا، فلا تطاوعه نفسُه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقًّا، فكم من رذيلٍ لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحدٍ من الأكابر لحقدِه عليه أو بغضه له، فيرد الحقَّ إذا جاء من جهته ويأنف من قبول نصحه ويجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك.

والحسد يوجب البغضَ للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاءٌ وسببٌ يقتضي الغضب، ويدعو إلى جَحد الحق، فكم من جاهلٍ يشتاق إلى العلم وبقي في رذيلةِ الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحدٍ من أهل بلده أو أقاربه حسدًا فيُعرض ويتكبر مع معرفته أنه يستحق التواضع.

والرياء يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه، ويمتنع من قبول الحق والاستفادة منه خيفةً من أن يقول الناس: إنه أفضل، فباعثُه على التكبر رياءٌ مجردٌ ولو خلا معه لا يتكبر عليه. أما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد والحقد فيتكبر أيضًا عند الخلوة، وقد ينتمي إلى نسب شريف كاذبًا ثم يتكبر به ويترفع في المجالس ويتقدم في الطريق، وهو عالمٌ باطنًا أنه لا يستحق ذلك، فيحمله الرياء على أفعال المتكبرين. نسأل الله حسن التوفيق.

❖ أخلاق المتواضعين وما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعَرٍ في وجهه، ونظره شزِرًا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته وفي مشيته وقيامه وجلوسه. فمن المتكبرين من يجمع ذلك، ومنهم من يتكبر في بعض:



فمنها أن يحبَّ قيامَ الناس له أو بين يديه، قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فلينظر إلى رجلٍ قاعدٍ وبين يديه قومٌ قيام.

ومنها ألَّا يمشيَ إلا ومعه غيره يمشي خلفه، قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بُعدًا ما مُشيَ خلفه. وكان عبدالرحمن بن عوف لا يُعرَف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم. ومشى قومٌ خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يُبقي هذا من قلب العبد.

ومنها ألَّا يزور غيرَه وإن كان يحصل منها خيرٌ في الدين. قدم سفيان الثوري الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدِّثنا، فجاء، فقيل: تبعث إليه بمثل هذا!؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه؟

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه، قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فمسَّ فخذي فخذَه فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرَّني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة؟ وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًّا مني. وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيدِ رسول الله ﷺ حتى تذهب به حيث تشاء.

ومنها أن يتوقَّى مجالسةَ المرضى والمعلولين، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذومًا ولا أبرص ولا مبتلًى إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها ألَّا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، أتى عمرَ بن عبد العزيز ضيفٌ وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفَه، قال: أفأنبِّه الغلام؟ قال: هي أول نومةٍ



نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتًا، قال الضيف: قمتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعًا.

ومنها ألَّا يأخذ متاعَه ويحمله إلى بيته، قال علي كرم الله وجهه: لا يُنقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلًا له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمةَ حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال: أوسِع الطريق للأمير يا بن أبي مالك. وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلِّقا لحمًا في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدِّرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت عليًّا رضي الله عنه قد اشترى لحمًا بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحملُ عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها اللباس، قال النبي ﷺ: «**البذاذة من الإيمان**»[١]. قال هارون: سألت معنًا عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزارٌ فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أُدم. وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب. وقال طاوس: إني لأغسل ثوبَيَّ هذين فأنكر قلبي ما داما نقيَّين. وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قبل أن يُستخلف تُشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استُخلف كان

---

(١) رواه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨).



يُشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده لولا لينه، فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفسًا ذواقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقةً إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعةَ ثم جلس وعليه قميصٌ مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست، فنكس رأسه مليًّا ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجِدة، وإن أفضل العفو عند المقدرة.

فإن قلت: قد سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال: «**لا، ولكن من سَفِه الحقَّ وغمص الناس**»(١)، فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر، وهو الذي أشار إليه رسول الله، وعرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمُّلَ إذا رآه الناس ولا يباليَ إذا انفرد، وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمالَ في كل شيء ولو في خلوته.

فالأحوال تختلف في المحبوب الوسط من اللباس، وقد قال ﷺ: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة**»(٢)، وقال ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثرَ نعمته على عبده**»(٣). وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري، البسوا ثيابَ الملوك وأميتوا قلوبَكم بالخشية.

---

(١) رواه مسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وأحمد (٣٧٨٩). وقد تقدم.

(٢) رواه النسائي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥).

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه (٢٨١٩).

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ، فينبغي أن يُقتدى به. وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كُل لله واشرب لله والبس لله، وكلُّ شيء من ذلك دخلَه زهوٌ أو مباهاةٌ أو رياءٌ أو سمعةٌ فهو معصيةٌ وسرف، وعالج في بيتك ما كان يعالج رسولُ الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقمُّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيءَ من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلِّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله، يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حرٍّ أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلَّة لمدخله وحلَّة لمخرجه، لا يستحيي من أن يُجيب إذا دُعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دُعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداءً لعشاء ولا عشاءً لغداء، هيِّن المؤنة، ليِّن الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه، بسَّام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب، دائم الإطراق، لم يبتسم قط من شبع ولا يمد يده من طمع. قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زُهدِ رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفًا، ولقد قصَّر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلئ قط شبعًا ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظلُّ جائعًا يلتوي ليلته حتى يصبح، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربَه فيؤتى بكنوز

الأرض وثمارها ورغدِ عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمةً له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنَه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «**يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضَوا على حالهم وقدِموا على ربهم، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفَّهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أيامًا يسيرةً أحب إلي من أن ينقص حظي غدًا في الآخرة، وما من شيء أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي**» قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل[(١)].

فما نُقل من أحواله ﷺ يجمع جملةَ أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتدِ به، ومن رأى نفسه فوق محلِّه ولم يرضَ لنفسه بما رضيَ هو به فما أشد جهله! فلقد كان أعظمَ خلق الله منصبًا في الدنيا والدين، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلا في الاقتداء به، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزَّنا الله بالإسلام فلن نطلب العزَّ في غيره، لمَّا عوتب في بذاذةِ هيئته عند دخوله الشام.

اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته.

---

(١) قال العراقي في تخرج الإحياء: «لم أجده» وقال الزبيدي في شرح الإحياء (٧/٣٩١): «قلت هو أشبه بمخاطبة عمر رضي الله عنه مع ابنته حفصة حين لامت عليه في خشونة العيش. أورده الذهبي في نعم السمر في سيرة عمر» وقال السيوطي في المناهل (٣٠٧): «الحديث بطوله لم أقف عليه هكذا، ولكن أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديثها قالت: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ...». وقد تقدم.

❖ الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد عن شيء منه، وإزالته فرضُ عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له، وفي معالجته مقامان: أحدهما استئصال أصله، والثاني: دفع العارض.

أما الأول: فعلمي وعملي، أما العلمي فأن يعرف نفسَه ويعرف ربه، ومهما عرف نفسه علم أنه أذلُّ من كل ذليل وأقلُّ من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس]، أشارت إلى أول خلقِ الإنسان وآخر أمره ووسطه، فأوله أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم خُلقَ من أرذل الأشياء، من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، ثم امتنَّ عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت.

وكذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، أحياه بعد أن كان جمادًا ترابًا أولًا ونطفةً ثانيًا، وأسمعَه بعدما كان أصم، وبصَّره بعدما كان فاقدًا للبصر، وقوَّاه بعد الضعف، وعلَّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات. فانظر كيف دبَّره وصوَّره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ

مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ [يس]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم]، فصار موجودًا وحيًّا وناطقًا وبصيرًا وقويًّا وعالمًا ومهديًّا وقادرًا وغنيًّا، فكان في ذاته لا شيء ثم صار بالله شيئًا، فخلقَه من التراب الذليل والنطفة القذرة ليعرف خسَّةَ ذاته.

وإنما أكمل النعمةَ عليه ليعرفَ بها ربه ويعلم عظمتَه، ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وعرَّف خسَّته فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة]، ثم ذكر منَّته فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة]، ولكن عادة الخسيس إذا رُفع من خسته شمخَ بأنفه وتعظَّم ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسلَّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات والطباع المتضادة، يجوع ويعطش ويمرض ويموت كُرهًا، يريد أن يعلم فيجهل، ويريد أن يذكر فينسى، ويريد أن ينسى الشيءَ فلا يغفل عنه، فلا يملك قلبُه قلبَه ولا نفسُه نفسَه، ولا يأمن في لحظةٍ أن يُسلب سمعُه وبصره وتُفلَّجَ أعضاؤه ويُختلس عقله ويُختطف روحه، فأنى يليق الكبر به لولا جهله!؟ هذا أوسط أحواله.

وأما آخره ومورده فالموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس]، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، ثم يوضع في التراب فيصير جيفةً منتنةً، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه ويأكل الدود أجزاءه، فيصير روثًا في أجواف الديدان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابًا، ثم يحييه بعد طول البلى ليقاسيَ شديد البلاء، ويخرج إلى أهوال القيامة ينظر إلى سماءٍ مشقَّقةٍ ممزقةٍ

وأرضٍ مبدَّلةٍ وجبالٍ مسيَّرةٍ ونجومٍ مُنكدرةٍ وشمسٍ منكسفةٍ وأحوالٍ مظلمةٍ، ويرى صحائفَ منشورةً فيُقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤]، ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكلٍ وشرب وقيام وقعود، وقد نسيتَه وأحصاه الله عليك، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ وإن كان عند الله مستحقًّا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع، إذ أوله التراب وآخره التراب بمعزلٍ عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق.

ولو رأى أهلُ الدنيا العبدَ المذنبَ في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقُبح صورته، ولو وجدوا ريحَه لماتوا من نَتْنِه، ولو وقعت قطرةٌ من شرابه في بحار الدنيا صارت أنتنَ من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة ـ إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ـ كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئًا حتى يعتقد فضلَه؟

هذا العلاج العلمي. أما العملي فالتواضع لله والخلق بأخلاق المتواضعين كما وصفناه من أحوال الصالحين وأحوال رسول الله ﷺ، قد كان يأكل على الأرض ويقول: «**إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد**»[1]. وقيل لسلمان: لم لا تلبس جديدًا؟ قال: إنما أنا عبد فإذا أُعتقت يومًا لبست جديدًا. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذا أُمر العرب بالإيمان والصلاة

(١) رواه البيهقي (٧/٢٨٣)، وابن المبارك في الزهد (٩٩٥)، وهناد في الزهد ص (٧٩٩)، وأحمد في الزهد ص (٦)، وقال الهيثمي (٨/٣٠٨): «رواه البزار، وفيه حفص بن عمارة الطلحي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا».

لما فيها من التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع والسجود، وقد كانوا يأنفون من الانحناء، فلما كان السجود عندهم منتهى الذلة أُمروا به لينكسر خيلاؤهم ويزول كبرُهم.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة، ونذكر طريقَ العلاج من العلم والعمل في جميعها.

فالأول: النسب فليداوِ المتكبر به قلبَه بمعرفةِ أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل من حيث أنه تعزُّزٌ بكمال غيره.

لـــئن فخُـــرتَ بآبـــاء ذوي شرفٍ   لقد صدقتَ ولـكن بئس ما وَلَدوا

الثاني: أن يعرف نسبَه الحقيقي، فان أباه القريب نطفةٌ قذرة وجدُّه البعيد ترابٌ ذليل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة] فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب.

والسبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظرَ العقلاء، فإنه وكِّل به الأقذار، الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائطَ بيده كل يوم، ويتردد إلى الخلاء مرة أو مرتين ليُخرج من باطنه ما لو رآه لاستقذره فضلًا عن أن يمسَّه.

وفي أول أمره خُلق من النطفة ودم الحيض وأُخرج من مجرى الأقذار. قال أنس: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنهما يخطبنا فيقذِّر إلينا أنفسنا

ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين. وقال طاوس لعمر بن عبد العزيز إذ رآه يتبختر قبل خلافته: ما هذه مشيةُ من في بطنه خراء.

ولو ترك نفسه ولم يتعهَّدها بالتنظيف لثارت الأنتان والأقذار أنتن من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها، فإذا نظر أنه خُلق من أقذار وأُسكن في أقذار، ويموت فيصير جيفةً لم يفتخر بجماله، ولو كان جماله باقيًا وعن هذه القبائح خاليًا لكان يجب ألّا يتكبر إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يُحمد عليه، وفي كل حين يُتصوَّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب.

السبب الثالث: التكبر بالقوة، ويمنعه منه أن يعلم ما سُلِّط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجَّع عرقٌ في يده لصار أعجز من كل عاجز، ولو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه، وأن بقَّةً لو دخلت في أنفه أو نملة في أذنه قتلته، وأن شوكةً لو دخلَت في رجله أعجزته، وحُمَّى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر مدة. فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، وإن قويَ لا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل وأي افتخار في صفة يسبق فيها البهائم.

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، وكل ذلك معنًى خارج عن ذات الإنسان، فالمتكبِّر بماله متكبِّر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدم الدار لعاد ذليلًا، والمتكبر بتمكين السلطان إن تغيَّر عليه كان أذلَّ الخلق، وكل متكبر بخارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، والمتكبر بالغنى لو تأمل رأى في اليهود من يزيد عليه، فأي شرف يسبقه به اليهودي، ويأخذه السارق في لحظة فيعود مفلسًا، فالتفاخر به غاية الجهل.



السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة وجهد جهيد، فقدرُ العلم عظيم عند الله وعند الناس أعظم من المال والجمال وغيرهما. ولذا قال كعب الأحبار: إن للعلم طغيانًا كطغيان المال. وقال عمر رضي الله عنه: العالم إذا زلَّ زلَّ بزلته عالَم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن حجةَ الله على أهل العلم آكد، قال ﷺ: «**يُؤتى بالعالم يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابُ بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه**»[1]. وقد مثَّل الله من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف]، فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم، وكان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلِدني أمي. ويأخذ الآخر تبنةً من الأرض ويقول يا ليتني كنتُ هذه التبنة. ويقول الآخر: ليتني كنت طيرًا أوكل. ويقول الآخر: ليتني لم أكُ شيئًا مذكورًا، خوفًا من خطر العاقبة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبرَ لا يليق إلا بالله، وأنه إذا تكبَّر صار ممقوتًا فيكلِّف نفسَه ما يحبه مولاه، وهذا يزيل التكبرَ وإن كان يستيقن أن لا ذنب له. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ علموا أن مَن نازعَ اللهَ تعالى رداءَ الكبرياء قصمَه.

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

فإن قلت: كيف يَتواضع للفاسق والمبتدع ويرى أنه دونهم وهو عالم عابد؟ فاعلم أنه يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، إذ يُتصوَّر أن يُسلم الكافر فيُختم له بالإيمان ويضل العالم فيُختم له بالكفر، فمن نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه استحقره وازدراه، وقد رزقه الله الإسلامَ وفاقَ المسلمين، فالعواقب مطوية عن العباد.

فمِن حقِّ العبد ألَّا يتكبر على أحد، إن نظر إلى جاهل قال: عصى بجهل وأنا بعلم. وإن نظر إلى عالم قال: علِم ما لم أعلم. وإن نظر إلى أكبر منه قال قد أطاع اللهَ قبلي، وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيتُ الله قبله، وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يُختَم له بالإسلام ويُختم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية إلي.

ويعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا، ولو حُبِس جماعة في جناية ووُعدوا أن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمَّهم الخطر إذ شُغل كلٌّ بنفسه لا بالالتفات إلى غيره، كأن كل واحد وحده في مصيبته.

فإن قلت: فكيف أَبغض المبتدعَ والفاسقَ في الله وقد أُمرت ببغضهما ثم أتواضع لهما؟ فاعلم أنه يلتبِس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبرِ النفس والإذلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقًا جلس بجنبه أزعجه وتنزَّه عنه بكبرٍ باطنٍ في نفسه وهو ظانٌّ أنه غضب لله، كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعِهم.

والذي يخلِّصك من اشتباهِهما والتباسِهما أن يكون الحاضرُ على قلبك عند مشاهدةِ المبتدع أو الفاسق وعند أمرهما ونهيِهما ثلاثة أمور:



أحدها: التفاتك إلى ما سبق من خطاياك ليصغُر قدرُك في عينك.

والثاني: ملاحظتك أن ما أنت متميِّزٌ به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح نعمةٌ من الله، فله المنة لا لك حتى لا تعجب.

والثالث: ملاحظة إبهام العاقبة فيشغلك الخوفُ عن التكبر.

فإن قلت: كيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، ففي غضبك لا ترى نفسَك ناجيًا وصاحبَك هالكًا، بل يكون خوفُك على نفسك أكثرَ من خوفك عليه. وإذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه، ووكَّل الغلامَ بالولد وأمره أن يضربه مهما أساء أدبَه واشتغل بما لا يليق. فإن كان الغلام محبًّا مطيعًا لمولاه لا يجد بُدًّا أن يغضب مهما رأى ولدَه أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه يريد التقربَ بامتثال أمره إليه، وقد جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ويغضب من غير تكبُّر، بل هو متواضع له يرى قدرَه فوق قدر نفسه عند مولاه، لأن الولد أعزُّ من الغلام. فليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع، فتغضب بحُكم الأمرِ محبةً لمولاك لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا بُغض العلماء الأكياس. وأما المغرور فيتكبَّر ويرجو لنفسه أكثرَ مما يرجوه لغيره.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك فتنة عظيمة، وسبيلُه أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي**»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

فإن قال: ذلك لعالمٍ عاملٍ وهذا عالمٌ فاجرٌ، فيُقال: كما أن العلم يمكن أن يكون حجةً على العالم، فيمكن أن يكون وسيلةً له وكفارة لذنوبه، والأمر غائب فلا يجوز أن يحتقر عالمًا.

فإن قلت: فينبغي إذًا للعالم أن يرى نفسَه فوق العابد، فاعلم أن ذلك لو علِم العالم عاقبةَ أمره، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفًا على نفسه، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء.

فأما غير العالم فمنقسمون إلى مستورين ومكشوفين، فلعل المستورَ أقل ذنوبًا وأكثر عبادةً وأشد حبًّا لله، والمكشوف إن رأيتَ منه القتلَ والشربَ والربا فلا ينبغي أن تتكبّر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله شديدٌ عند الله، فربما جرى في باطنك ما صرت به ممقوتًا، وجرى للفاسق الظاهر الفسق من حبِّ الله وإخلاصٍ وخوفٍ وتعظيمٍ ما أنت خالٍ عنه، وقد كفَّر الله بذلك عنه، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوقك بدرجات، فكيف إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك!؟

قال وهب بن منبِّه: ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتى يكون فيه عشر خصال، فعدَّ تسعةً حتى بلغ العاشرة، فقال: العاشرة وما العاشرة! بها شاد مجدُه وعلا ذكره، أن يرى الناس كلَّهم خيرًا منه. وإنما الناس فرقتان: فرقة أفضل وأرفع، وفرقة شر منه وأدنى. فيتواضع للفرقتين إن رأى مَن هو خير منه سرَّه وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شرٌّ قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، ولا أدري لعل فيه خلقًا كريمًا بينه وبين الله فيرحمه ويختم له بأحسن الأعمال، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات، ثم قال: فحينئذٍ كمُل عقلُه وساد أهلَ زمانه.



وبالجملة فمن جوَّز أن يكون شقيًا فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال، روي أن عابدًا آوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائتِ فلانًا الإسكاف فسَله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عيالَه ببعضه. فرجع وهو يقول: إن هذا لحَسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله، فأُتي في النوم ثانيًا فقيل له: ائت فلانًا الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحدًا من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

ويدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]، أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجلٍ عظيمٍ من قبولها. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور]، وقد وصف الملائكةَ مع تقدُّسهم عن الذنوب بالإشفاق فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء].

فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق غلب الأمنُ مِن مكرِ الله فيوجب الكبر، وهو دليل الأمن، والأمن مُهلك، والتواضع دليل الخوف وهو مُسعد، فما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال، إلا أن النفس قد تضمر التواضعَ وهي كاذبةٌ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعِها فلا يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل تُكمَّل بالعمل وتجرَّب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس. وبيانه أن يمتحن النفسَ بخمس امتحانات:

الأول: أن يناظَر في مسألةٍ مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيءٌ من الحق على لسان صاحبه فثقُل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له فذلك يدل على أن فيه كبرًا دفينًا، فليتقِ الله وليشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم بأن يذكر خسَّةَ نفسه وخطرَ عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله. وأما العمل فبأن يكلف نفسَه الاعترافَ بالحق ويطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر بالعجز ويشكر على الاستفادة.

فإذا واظب على ذلك مرات صار ذلك طبعًا وسقط ثقلُ الحق عن قلبه، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان لا يثقل في الخلوة ويثقل في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فإن ثقل فيهما ففيه الكبر والرياء جميعًا.

الثاني: أن يجتمع مع الأقران في المحافل ويقدِّمهم ويمشيَ خلفَهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه فهو متكبِّر، وهاهنا للشيطان مكيدة، أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال، فيظن ذلك تواضعًا وهو عين الكبر، إذ يوهم أنه ترك مكانه بالاستحقاق بل ينبغي أن يقدم أقرانَه ويجلس بجنبهم.

الثالث: أن يُجيب دعوةَ الفقير ويمرَّ إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبر، فهذه الأفعال من مكارم الأخلاق، ونفورُ النفس عنها ليس إلا لخُبثٍ في الباطن.

الرابع: أن يحمل حاجةَ نفسه وأهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن ثقل عليه فهو كبر، وإن كان لا يثقل إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وعن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمةَ حطب فقيل: قد كان في



غلمانك ما يكفيك! قال: ولكن أردت أن أجرِّب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرَّبها. وأخرج البيهقي في الشعب[1] عن أبي أمامة وضعَّفه: «**من حمل بضاعتَه فقد برئ من الكبر**».

الخامس: أن يلبس ثيابًا بذلة، فنفورُ النفس عنه في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»[2]. وقيل لأبي موسى الأشعري: إن أقوامًا يتخلَّفون عن الجمعة بسبب ثيابِهم، فلبس عباءةً فصلى فيها بالناس.

❖ غاية الرياضة في التواضع:

هذا الخُلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه المائل إلى الزيادة تكبر، والمائل إلى النقصان تخاسُسٌ ومذلَّة، والوسط تواضع. والمحمود أن يتواضعَ في غير مذلة ومن غير تخاسُس. فمن يتقدم على أمثاله فمتكبر، ومن يتأخر فمتواضع: أي وضع شيئًا من قدرِه.

والعالم إذا دخل عليه إسكافٌ فتنحَّى عن مجلسه وأجلسه ثم سوَّى له نعلَه وعدا إلى باب الدار خلفَه فقد تخاسَس وتذلَّل وهذا غير محمود، بل المحمود أن يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وتواضعه للسُّوقي في القيام والبِشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابةِ دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسَه خيرًا منه ولا يحتقره ولا يستصغره.

---

(١) (٨٢٠١)، وابن عدي (٩/٥، ترجمة ١١٨٧ عمر بن موسى بن وجيه)، وقال: «هو في عداد من يضع الحديث».

(٢) رواه البيهقي (٢٨٣/٧)، وابن المبارك في الزهد (٩٩٥)، وهناد في الزهد ص (٧٩٩)، وأحمد في الزهد ص (٦)، وقال الهيثمي (٣٠٨/٨): «رواه البزار، وفيه حفص بن عمارة الطلحي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا». وقد تقدم.

فسبيل اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران، فإن خفَّ عليه فقد حصل التواضع، وإن كان يثقل عليه فهو متكلِّف، والخُلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة، فإن خفَّ وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحبَّ التملُّق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسَه، والميل عن الوسط إلى طرف النقصان أهون منه إلى طرف الزيادة بالتكبر، والمحمود المطلق وضع الأمور موضعها كما يجب.

ولنقتصر على هذا القدر من بيان الكبر والتواضع.

❖ ذم العجب:

هو مذمومٌ في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، وقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، وقال: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]، وقد يُعجب الإنسان بعملٍ مخطئٍ فيه كما يُعجب بعملٍ مصيبٍ فيه، قال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه**»[1] وقال ﷺ لأبي ثعلبة: «**إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متَّبعًا وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه فعليك نفسَك**»[2].

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب. جمع بينهما لأن

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، والحاكم (٤/٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: «فيه عبد الواحد بن زيد متروك». بلفظ: «الشرك» بدل الرياء وفسَّراه به. وأحمد (١٧١٢٠)، والطبراني (٧١٤٤)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠). وقد تقدم بلفظ: «أخوف ما أخاف».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والترمذي وحسَّنه (٣٠٥٨).

السعادةَ تُنال بالسعي، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجَب فلا يسعى، ومستحيلة في اعتقاد القانط فلا يسعى. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، قال ابن جريج: إذا عملت خيرًا فلا تقل: عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبَرُّوها، أي لا تعتقدوا أنها بارّة. وقال مطرِّف: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحبُّ إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح مُعجبًا. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله، فأطال الصلاة يومًا ورجلٌ خلفه ينظر ففطن له، فلما انصرف قال: لا يعجبنَّك ما رأيتَ مني فإن إبليس لعنه الله قد عبدَ اللهَ تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظنَّ أنه محسن، وقال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والمن نتيجة استعظام الصدقة وهو العجب.

❖ آفة العجب:

هو يدعو إلى الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، هذا مع العباد، أما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب لظنِّه أنه مُستغنٍ عن تفقُّدِها، وما يتذكره يستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه. وأما العبادات فيتبجَّح بها ويمنُّ على الله بفِعلها، وينسى نعمةَ الله بالتوفيق والتمكين ثم يعمى عن آفاتها. ومَن لم يتفقَّد آفاتِ الأعمال كان أكثرُ سعيِه ضائعًا، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه ورأيه ويأمن مكرَ الله وعذابَه، ويظن أن له مكانةً وحقًّا بأعماله ويخرجه إلى أن يثنيَ على نفسه، وإن أُعجب برأيه وعقله منعَه ذلك من الاستفادة والاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال مَن هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ

لكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره، فيصر ولا يسمع نصحًا ولا وعظًا، فإن كان في دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في ديني فيهلك به. ولو اتهم نفسَه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظبَ على مدارسة العلم وسؤال أهل البصيرة لأوصله إلى الحق. ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنِّه أنه قد فاز وهو الهلاك الصريح. نسأل اللهَ العظيم حسنَ التوفيق لطاعته.

❖ حقيقة العجب:

إنما يكون بوصف كمال، وللعالم بكمال نفسه حالتان:

إحداهما: أن يكون خائفًا على زواله مشفقًا على تكدُّره أو سلبه فليس بمعجب. **والأخرى**: ألَّا يكون خائفًا من زواله بل فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: أن يكون غير خائفٍ عليه بل فرحًا مطمئنًّا إليه، من حيث إنه كمالٌ ورفعةٌ لا من حيث أنه عطيَّة من الله تعالى، ويكون فرحُه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى.

فإذًا هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتِها إلى المنعِم. فإن انضاف إليه أن له عند الله حقًّا ومكانًا واستبعد أن يجريَ عليه مكروه استبعادًا يزيد على استبعادِهِ ما يجري على الفسَّاق سُمِّي إدلالًا بالعمل، وكذلك قد يعطي غيره شيئًا فيستعظمه فيكون معجبًا، فإن استخدمه واقترح عليه واستبعد تخلُّفه عن قضاء حقوقه كان مُدِلاً عليه.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر]، أي لا تُدِلَّ بعملك، والإدلال وراء العجب، فلا مُدلَّ إلا وهو معجب ورب معجب لا يُدل.



❖ **علاج العجب:**

علاج كل علةٍ هو مقابَلةُ سببِها بضدِّه، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجُه المعرفة المضادة لذلك الجهل، فلنفرض العجب بفعلٍ اختياري، فنقول: الورع والتقوى والعبادة إنما يُعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته، فإن كان من حيث إنه فيه فهذا جهل، لأن المحلَّ مسخَّر لا مدخل له في الإيجاد، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث أنه منه وباختياره وقدرته فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وسائر الأسباب التي تمَّ بها عمله من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك من الله من غير حقٍّ سبقَ له فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله، فمهما برز ملكٌ لغلمانه وخلع على واحد فينبغي أن يتعجب من فضل الملك ولا ينبغي أن يعجب بنفسه. فإن قال: الملك حكم عدل لا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أن فيَّ صفةً محمودةً لما آثرني، فيقال: وتلك الصفة من خلعته وعطيته، فلو أعطاك فرسًا فلم تعجب به، فأعطاك غلامًا فصرتَ تعجب وتقول: أعطاني لأني صاحب فرس وأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس، فلا فرق أن يعطيكهما معًا أو أحدهما بعد الآخر، فالكل منه.

وإن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب، وهذا يُتصور في حق ملوك الأرض، ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع، المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة. فإن قلت: وفقني للعبادة لحبِّي له، يُقال: ومن خلق الحُبَّ في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: كلاهما نعمتان من عنده، فيكون الإعجاب بجوده، فلا معنى لعجب العابد بعبادته والعالم بعلمه والجميل بجماله والغني بغناه، لأن كل ذلك من فضل الله،

وإنما هو محلٌّ لفيضان فضل الله وجُوده، والمحل من فضله وجوده أيضًا.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي فإني أنتظر عليها ثوابًا، فإن كانت مخلوقةً لله فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت مني فكيف لا أعجب؟ فجوابك من وجهين: صريح الحق، وآخر فيه مسامحة.

أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلقِ الله، فما عملت إذ عملت، وما صليت إذ صليت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والصحة، وخلق لك العقل والعلم، وخلق لك الإرادة، فلو أردت أن تنفيَ شيئًا منها لم تقدر عليه، وتدريجه في الخلق شيئًا بعد شيء خيَّل لك أنك أوجدتَ عملَك وقد غلطت.

والجواب الثاني الذي فيه مسامحة: أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين هي؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك، ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك منه لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحُه، وهذا المفتاح بيد الله، فالعبادات خزائن يُتوصَّل بها إلى السعادات، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله. ولو جلستَ على خزائن الدنيا مجموعةً في قلعةٍ حصينةٍ مفتاحها بيد خازن ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار فيها، ولو أعطاك المفتاح أخذتَ من قريب بأن تبسط يدك، فليكن إعجابك بإعطاء الخازن مفاتيح لا بما منك من مدِّ اليد وأخذها. فكذلك العمل هيِّن عليك، وتحرِّيك البواعثَ وصرف العوائق وتهيئة الأسباب ليس شيء منها إليك، فكيف تعجب بنفسك لا بمن إليه الأمر، إذ سلط دواعي الفساد على الفسَّاق وصرفَها عنك، وسلَّط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم



وصرفهم عنك، ومكَّنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيَه وسلَّطها عليك حتى تيسر لك الخير، فلا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلًا إلى مخالفتها.

والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلًا وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم حتى يكاد يراه ظلمًا، ولا يدري المغرور أن لو جمع له بينهما كان ذلك بالظلم أشبه، إذ يقول الجاهل الفقير: لِم جمعتَ له بين العقل والغنى وحرمتني منهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقلَ الرجل محسوبٌ عليه من رِزقه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال النبي ﷺ لأصحابه: «**ما منكم من أحد ينجيه عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدَّني الله برحمته**»[١]. ولقد كان أصحابه من بعده يتمنَّى أحدهم أن يكون ترابًا وتبنًا وطيرًا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟

إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن ارتد ومطيع فسق وخُتم له بسوء، والله أعلم.

❖ أقسام ما به العجب وعلاجه:

ثمانية أقسام:

الأول: ببدنه، في جماله وهيئته وقوَّته، وينسى أنه نعمةٌ من الله عُرضةُ الزوال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وأول

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

أمره وآخره، ووجوهٍ جميلةٍ وأبدانٍ ناعمة تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوة كما قال تعالى عن قوم عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وعلاجه ما ذكرناه أن حمَّى يوم تُضعف قوَّته، وإذا أُعجب بها ربما سلبها الله بأدنى آفة يسلِّطها عليه.

الثالث: بالعقل والكياسة والتفطُّن للدقائق، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال المخالفين لرأيه، ويُخرج إلى قلَّة الإصغاء إلى أهل العلم، وعلاجه أن يشكر اللهَ على ما رزقه من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرضٍ يصيب دماغَه كيف يوسوس ويُجن بحيث يُضْحَك منه، فلا يأمن أن يُسلب وليستكثر ما أوتي، وليعلم أن ما جَهِلَهُ مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس، وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم والقاصر لا يعلم قصورَ عقله، فينبغي أن يعرفَ مقدارَ عقله من غيره ومن أعدائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبًا.

الرابع: العجب بالنسب الشريف، وعلاجه أن يعلم أنه إن اقتدى بآبائه فما كان مِن أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق، ولقد شُرِّفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة فليتشرف بما شُرِّفوا به، ومهما خالفهم في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحقٌ بهم فقد جهل، وقد شاركهم في النسب من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شرًّا من الكلاب، وقال صلى الله عليه وآله وسلم «**إن الله قد أذهب عنكم عِبِّيَّة الجاهلية ـ أي كِبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب**»[1].

(١) رواه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي وحسَّنه (٣٩٥٥).



فمَن عرف أن شرفَه بتقواه، وكان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، والنسيب جديرٌ بأن يرجو الشفاعةَ لكن بشرط أن يتقيَ اللهَ أن يغضب عليه، وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يُشفع فيه وإلى ما لا يُشفع فيه وجب الخوف، فالانهماك في الذنوب اتكالًا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادًا على طبيبٍ حاذق، وذلك جهل، كيف وأصحاب خير الخلق يتمنَّون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحُسن أعمالهم وصفاء قلوبهم؟

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم، وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم والفساد، ولو نظر إلى صورهم وأنتانهم لاستنكف وتبرَّأ من الانتساب إليهم، ولو انكشف ذلُّهم في القيامة وتعلُّق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم لتبرَّأ منهم، فحقٌّ أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين.

السادس: العجب بكثرة العدد من أولاد وخدم وعشيرة وأنصار وأتباع كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ: ٣٥]، كيف يعجب بهم وسيفترقون عنه إذا مات فيُدفن ذليلًا لا يرافقه أهلٌ ولا ولدٌ ولا عشير؟ يسلمونه إلى البِلى والحيات والعقارب والديدان ولا يُغنون عنه شيئًا ويهربون منه يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس]، فكيف تعجب ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضلُ الله؟

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]، وعلاجُه أن يتفكر في آفات المال

وحقوقه وغوائله، وإلى أنَّ في اليهود من يزيد عليه في المال، قال صلى الله عليه وآله وسلم «**بينما رجلٌ يتبختر في حلَّةٍ له قد أعجبته نفسُه إذ أمر الله الأرضَ فأخذته فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة**»(١). بل لا يخلو المؤمن عن خوفٍ من تقصيره في حقوق المال في أخذِه مِن حلِّه ووضعِه في حقه، ومن لم يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار، فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [غافر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف]، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة، وبذلك هلكت الأمم السالفة و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون]، وجميع أهل البدع أصرُّوا لعجبهم بآرائهم استحسانًا لما يسوقه الهوى والشهوة مع ظنِّ كونه حقًّا، وعلاج هذا أشدُّ من علاج غيره ولا يُعالَج الداء الذي لا يعرف. والجهل داءٌ لا يُعرف فتَعْسُر مداواته. لأن العارف يبيِّن للجاهل جهلَه ويزيله إلا إذا كان معجبًا برأيه فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، وكيف يطلب الهربَ مما هو سبب سعادته في اعتقاده، فإنما علاجه على الجملة أن يكون متَّهِمًا لرأيه أبدًا إلا أن يشهد له قاطعٌ من كتاب أو سنة أو دليلٌ عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يُعرف إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدٍّ وتشميرٍ وممارسةٍ للكتاب والسنة ومجالسةٍ لأهل العلم ومدارسةٍ للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن الغلط. فنسأل اللهَ العصمةَ من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجُهَّال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي بيدهِ مقاليدُ الأمور، وبقدرته مفاتيحُ الخيرات والشرور، ومُخرجُ أوليائه من الظلمات إلى النور، ومُوردُ أعدائه ورطات الغرور. والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ مخرجِ الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرُّهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاةً تتوالى على ممر الدهور، ومكرِّ الساعات والشهور.

أما بعد: فمفتاح السعادة التيقُّظ، ومنبع الشقاوة الغرور، والأكياس قلوبهم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، والمغترُّون قلوبُهم ﴿كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

ونحن نشرح أجناسَ مجاري الغرور، ونشير إلى وجهِ الاغترار وإن كان أكثر مما يُحصى، لكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء، وفِرقُ المغترِّين كثيرة يجمعهم أربعة أصناف: العلماء والعُبَّاد والمتصوِّفة وأرباب الأموال، فمنهم مَن رأى المنكر معروفًا، ومنهم من لم يميِّز بين ما يسعى لنفسه وبين ما يسعى فيه لله، كالواعظ الذي غرضُه القبول والجاه، ومنهم من يترك الفرضَ

ويشتغل بالنافلة، ومن يترك اللبابَ ويشتغل بالقشر، كالذي يكون همُّه في الصلاة مقصورًا على تصحيح مخارج الحروف.

❖ بيان ذم الغرور:

اعلم أن قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]، كافٍ في ذم الغرور. وقال صلى الله عليه وآله وسلم «**الكيِّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله**»[١].

والغرور جهلٌ إلا أن كل جهل ليس بغرور، فالغرور سكونُ النفس إلى ما يوافق الهوى عن خدعةٍ من الشيطان، وأكثر الناس مغرورون، وغرور بعضِهم أظهرُ وأشدُّ من بعض، وأشدُّها غرور الكفار والفسَّاق، فنورد لهما أمثلة:

الأول: غرور الكفار الذين غرَّتهم الحياة الدنيا، قالوا: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، وقالوا: اليقين خيرٌ من الشك، ولذَّات الدنيا يقين، فهذه أقِيسةٌ فاسدةٌ كقياسِ إبليس حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة]، وعلاجه إمّا بالإيمان وإما بالبرهان؛ فالإيمان أن يصدِّق اللهَ بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٦٠]، ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).



وأما البرهان فأن يعرف فسادَ هذا القياس، وفيه أصلان:

أحدهما: أن الدنيا نقدٌ والآخرة نسيئةٌ، وهذا صحيح.

والآخر: أن النقد خير من النسيئة، وهذا محل التلبيس، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل فالنسيئة خير، فإنه يبذل في تجارته درهمًا ليأخذ عشرةً نسيئة، ولا يقول: النقد خير من النسيئة، وإذا حذَّره الطبيب لذائذَ الأطعمة تركَها في الحال خوفًا من ألمٍ في المستقبل.

وأقصى عُمرِ الإنسان، مئة سنة وليس هو عشر عشيرٍ من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة. فكأنه ترك واحدًا ليأخذ ألفَ ألف، بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حدَّ، ومن حيث النوع لذَّات الدنيا مكدَّرة مَشُوبة بمنغِّصات، ولذَّات الآخرة صافية، وعند هذا يفزع إلى القياس الآخر أن اليقين خيرٌ من الشك، وهذا أكثر فسادًا، لأن كِلا أصلَيه باطل، فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك، والصياد في تردُّده على يقين وفي الظفَر بالصيد على شك، والحزم دأبُ العقلاء وكل ذلك تركُ اليقين بالشك.

وأمّا الأصل الثاني: وهو أن الآخرة شك فهو خطأ بل يقين عند المؤمنين، وليقينه مدركان:

أحدهما: الإيمان والتصديق. والثاني: الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء، ومعنى معرفةِ الأنبياء أنه كُشفت لهم حقيقة الأشياء فشاهدوها بالبصيرة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر، فيخبرون عن مشاهدة.

فغرور الشيطان بأنّ الآخرة شك يُدفع إمّا بيقين تقليدي، وإمّا ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنون إذا ضيّعوا أوامرَ الله وهجروا الصالحات ولابَسوا الشهوات والمعاصي شاركوا الكفار في الغرور، نعم أمرُهم أخفُّ

فأصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد، لكنهم اعترفوا بأن الآخرة خير ومالوا إلى الدنيا وآثروها، ووعدُ المغفرة في كتاب الله منوطٌ بالإيمان والعمل الصالح جميعًا لا بالإيمان وحده.

ونذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. أما الكفار فكقول بعضهم: لو كان لله من معادٍ فنحن أحقُّ به من غيرنا كما قال تعالى عن الرجلين المتحاورَين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]، ونُقل في التفسير أنه بنى قصرًا بألف دينار واشترى بستانًا بألف وخدَمًا بألف وتزوّج على ألف دينار، والمؤمن يقول: اشتريتَ قصرًا يفنى ألا اشتريتَ قصرًا في الجنة؟ واشتريتَ بستانًا يخرب ألّا اشتريتَ بستانًا في الجنة، وخدَمًا لا يفنون، وزوجة من الحور العين لا تموت، ويردُّ الكافر ما هناك شيء، وإن كان ليكوننَّ لي خير من هذا، وكذلك وصفَ الله قولَ العاص بن وائل: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم]، فقال ردًّا عليه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾ [مريم]، قال خبَّاب بن الأرتِّ: كان لي على العاص دَين، فجئت أتقاضاه فلم يقضِ لي، فقلت: إني آخذه في الآخرة؛ فقال: إذا صرتُ إلى الآخرة فإن لي هناك مالًا وولدًا أقضيك، فأنزل الله الآية.

وسبب هذا الغرور قياسٌ إبليسي، فمرة ينظرون إلى النِّعم في الدنيا فيقيسون عليها الآخرة، ومرّة إلى تأخير العذاب، فيقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، قال تعالى جوابًا لهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]، ومرة رؤيتُهم المؤمنين فقراء شُعث غُبر فيستحقرونهم فيقولون: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، والتلبيس تحت ظنِّه أن الإنعام عليه في الدنيا إحسان، فاغترَّ إذ ظن أنه كريم عند الله.

والذي له عبدان صغيران منع أحدَهما من اللعب وألزمه المكتب ومنعَه ملاذَّ الأطعمة الضارّة وسقاه الأدوية، وأهمل الآخر كيف يريد، فيظن المهمَل أنه محبوب كريم لأنه مكَّنه من شهواته، وذلك محض الغرور. فإن الله يحمي عبدَه من الدنيا وهو يحبه، كما يحمي أحدُكم مريضَه من الطعام والشراب وهو يحبه كما في الحديث(١).

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر]. وعلاجه معرفة دلائلِ الكرامة والهوان إما بالبصيرة بالإلهام في منازل العارفين، وإما بالتقليد تصديقًا بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم]، وقوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم] إلى غير ذلك.

المثال الثاني: قول العصاة: إن الله كريم وإنا نرجو عفوَه، وقد قال: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي**» والشيطان لا يُغوي الإنسان إلا بكلامٍ مقبولِ الظاهر، لكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والأحمق من أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله**»(٢)، وهذا التمنِّي غيَّر الشيطان

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) وحسَّنه، بلفظ: «**إذا أحَبَّ الله عبدًا حَمَاهُ الدُّنْيا كما يَظَلُّ أَحدُكم يَحْمِي سَقِيمهُ الماءَ**». والحاكم وصححه (٣٤٤/٤) ووافقه الذهبي. ورواه والبيهقي في الشعب (١٠٤٤٨)، وأبو يعلى (٦٨٦٥)، قال الهيثمي (٢٨٥/١٠): «إسناده حسن».

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠). وقد تقدم قريبًا.

اسمَه فسماه رجاءً، خدعَ به الجهّال، وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]، وقال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فمن استؤجر على إصلاح أوانٍ وشُرِط له أجرة وكان الشارط كريمًا وفيًّا، فجاء وكسَّر الأواني وأفسد جميعَها، ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء متمنِّيًا مغرورًا أم راجيًا!؟ قيل للحسن: قومٌ يقولون نرجو الله ويضيِّعون العمل؟ قال: هيهات! تلك أمانيُّهم، من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه.

فإن قلت: أين موضع الرجاء المحمود؟ فله موضعان:

أحدهما: في حق العاصي إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنَّى تُقبل توبتُك؟ فيقمع القنوطَ بالرجاء، ويتذكر أنَّ الله يغفر الذنوبَ جميعًا ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر]، أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه]، فإذا توقَّع المغفرةَ مع التوبة فهو راجٍ، وإن توقَّعَها مع الإصرار فمغرور، كمن ضاقَ عليه وقتُ الجمعة وهو في السوق فخطر أن يسعى إليها، فقال الشيطان: لا تدركها، فكذَّب الشيطانَ وعدا ومرَّ يعدو فهو راجٍ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام في الصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو آخره أو لأجل غيره أو لسببٍ لا يعرفه فهو مغرور.

الثاني: أن يفتُرَ عن الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجِّيَ نفسَه نعيمَ الله وما وعدَ به الصالحين حتى ينبعث النشاط في العبادة ويتذكر قولَه تعالى: ﴿قَدْ



أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون]، فالأول يقمع القنوطَ المانعَ من التوبة. والثاني: يقمع الفتورَ المانعَ من النشاط، فما حثَّ على توبةٍ أو تشميرٍ في العبادة فرجاء، وما أوجب فتورًا وركونًا إلى البطالة فغرَّة، كما إذا خطر له أن يترك الذنبَ ويُقبل على العبادة فيقول الشيطان: ما لك ولإيذاء نفسك ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتر عن التوبة والعبادة فهو غرَّة، فيجب أن يستعمل الخوفَ من غضبِ الله ويقول: مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ومع أنه كريم خلَّد الكفار في النار أبدَ الآباد، ولم يضره كفرُهم، وسلَّط المحنَ والأمراضَ على جملةٍ من العباد في الدنيا وهو قادرٌ على إزالتها، فمَن هذه سُنَّته وقد خوَّفني عقابَه فكيف لا أخافه؟

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان إلى العمل الصالح، فما لا يبعث على العمل فتَمَنٍّ وغرور، ورجاء كافة الخلق سبب فتورِهم وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الله، فذلك غرور.

كان الناس يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلة، يخافون وهم طولَ الليل والنهار في الطاعة والحذر من الشبهات، والآن ترى الخلقَ آمنين مطمئنين مع إكبابِهم على المعاصي وإعراضِهم عن الله زاعمين وثوقَهم بكرمِ الله ورجاءهم لمغفرته، فكأنهم يزعمون أنهم عرفوا مِن فضله وكرمِه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون.

وقد أخبر الله عن النصارى فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، أي هم علماء ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف:

١٦٩] أي شهواتهم من الدنيا حرامًا كان أو حلالًا، وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم]، والقرآن لا يتفكر فيه متفكرٌ إلا وهو يعظُم خوفُه إن كان مؤمنًا بما فيه، وترى الناسَ يهذُّونَه ويتناظرون على خفضِ الحروف ورفعها كأنه شعرٌ لا يهمُّهم الالتفاتُ إلى معانيه. فهذه أمثلة الغرور بالله، والفرق بين الرجاء والغرور.

ويقرب منه غرور طوائف معاصيهم أكثر من طاعاتهم، ويظنون أن ترجحَ كفَّةُ حسناتِهم، فترى الواحدَ يتصدق بدراهمَ معدودةٍ من حلالٍ وحرامٍ ويتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ويظن أن أكلَ ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة، كمن وضع عشرةً في كفةِ ميزان وفي الأخرى ألفًا وأراد أن ترجحَ كفةُ العشرة.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر لأنه لا يحاسب نفسَه، وإذا عمل طاعةً حفظَها كمن يستغفر اللهَ بلسانه أو يسبِّح مئة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزِّق أعراضَهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طولَ النهار من غير عدد، ويكون نظره أنه استغفر مئة وغفلَ عن هذيانه طولَ نهاره، وقد كتبه الكرامُ الكاتبون، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق]، فهذا يتأمل فضائلَ التسبيحات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين، ولو كان الكرامُ الكاتبون يطلبون منه أجرةَ النسخِ لهذَيانه لكان يكفُّ لسانَه عن جملةٍ من مُهمَّاته، ويَعدُّ ما نطق به ويحسبه.

❖ **أصناف المغترين:** أربعة:

الأول: أهل العلم: ففرقةٌ أحكموا العلومَ الشرعيةَ والعقلية، وأهملوا تفقُّدَ



الجوارحِ وحفظَها عن المعاصي، وظنوا أنهم عند الله بمكان، وألَّا يعذِّب مثلَهم، بل تُقبل شفاعتهم ولا يطالَبون بذنوبهم، ولو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: معاملة ومكاشفة وهو العلم بالله وصفاته.

فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام وأخلاق النفس المذمومة والمحمودة، فلا يُرادُ إلا للعمل، ولولا الحاجةُ إلى العمل لم يكن للعلم به قيمة، كمريضٍ لا يزيل علَّته إلا دواءٌ مركَّب من أخلاطٍ لا يعرفها إلا حذَّاق الأطباء، فيسعى في طلبِ الطبيب بالسفر حتى يعثرَ على طبيبٍ حاذق، فإذا علَّمه وفصَّل له الأخلاطَ ومقاديرَها وكيفيةَ دقِّ كلٍّ وخَلطِه كتب منه نسخةً بخطٍّ حسنٍ ورجع إلى بيته يكررها ويعلِّمها المرضى، ولم يشربها، أفترى أن ذلك يغني عنه؟ هيهات لو كتب ألف نسخةٍ وعلَّم ألفَ مريضٍ حتى شفي جميعهم وكرره في الليلة ألف مرة لم يُغنِه من مرضه شيء، إلا أن يشربه في وقته بعد تقديم الاحتماء ويصبر على مرارته، فإذا فعل ذلك فعلى خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلًا، والذي أحكمَ علمَ الطاعات ولم يعمل، وأحكم علمَ المعاصي ولم يجتنب، وأحكم علمَ الأخلاق وما زكَّى نفسه فمغرور، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس] ولم يقل: من تعلَّم كيفيةَ تزكيتها وكتَبه وعلَّمه.

ويقول الشيطان: إن العلمَ بالدواء لا يزيل المرض وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه، والعلم يجلب الثواب، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضله، فإن كان معتوهًا وافقَ ذلك هواه فاطمأن وأهمل العمل، وإن كان كيِّسًا يقول: أتذكِّرني فضائلَ العلم وتُنسيني ما وردَ في العالم الفاجر كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وكقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ

يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن ازدادَ علمًا ولم يزدد هدًى لم يزدد من الله إلا بُعدًا»[١]. وقال: «يُلقى العالم في النار فتندلق أقتابُه فيدور بها في النار كما يدور الحمار بالرحى»[٢]. فإن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم أخبره بذمِّ علماء السوء، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد الحجة غاية الغرور.

والذي يدَّعي علومَ المكاشفة ويهمل العملَ غرورُه أشد، ومثاله كمن أراد خدمةَ ملكٍ فعرفَ أخلاقَه وأوصافَه ولونَه وشكلَه وطولَه وعرضَه وعادتَه ومجلسَه، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه ويرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمتَه وهو ملابسٌ لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل لجميع ما يحبه، فوردَ عليه متلطِّخا بما يكرهه عاطلًا عما يحبه متوسلًا بمعرفته له ولاسمه وبلده وعادتِه في سياسة غلمانه فهذا مغرور. بل تقصيره في التقوى واتباعه الشهوات يدلُّ أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» وحديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال: «زهدًا»، وروى ابن حبان في «روضة العقلاء» موقوفًا على الحسن: «من ازداد علمًا ثم ازداد على الدنيا حرصًا لم يزدد من الله إلا بعدًا»، وروى أبو الفتح الأزدي في «الضعفاء» من حديث علي: «من ازداد بالله علمًا ثم ازداد للدنيا حبًّا ازداد الله عليه غضبًا». وقال الزبيدي في الإتحاف (١/٣٥١): «قلت: وحديث علي المتقدم سنده ضعيف ... والحديث الذي بعده رواه أبو الفتح الأزدي في «الضعفاء» ومن الشواهد ما أخرجه أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا الحسن بن إبراهيم بن يسار، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا ابن عيينة، قال: كان يقال: إن العاقل إذا لم ينتفع بقليل الموعظة لم يزدد على الكثير منها إلا شرًا» وفي معنى ذلك قول مالك بن دينار: من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي من العلم ما ينفعه». أبو نعيم في الحلية (٣/٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩). وقد تقدم.



المعاني، إذ لو عرفه لخشيَه واتقاه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. واستُفتي الحسن عن مسألةٍ فأجاب، فقيل: إن فقهاءنا ليقولون ذلك، فقال: هل رأيت فقيهًا قط؟ الفقيه القائم ليله، الصائم نهاره، الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يُداري ولا يُماري، ينشر حكمةَ الله، فإن قُبلت منه حمدَ الله، وإن رُدَّت عليه حمدَ الله. «**ومن يردِ الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١). وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبَهم ليمحوا الصفاتِ المذمومةَ عند الله مِن كبرٍ وحسدٍ وطلبِ رئاسة وإرادةِ سوء للأقران، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم، ولا يلتفت إلى قوله ﷺ: «**أدنى الرياء شرك**»(٢)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر**»(٣). فهؤلاء زيَّنوا ظواهرَهم وأهملوا بواطنَهم ونسوا قولَه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٤). فمثَلهم كبئر الحش ظاهرها جصٌّ وباطنها نَتِن، أو بيتٍ مظلمٍ باطنُه وُضع سراجٌ على سطحه، وكرجل قصد الملكُ ضيافتَه إلى داره فجصَّص باب داره وترك المزابلَ في صدرِ داره. بل كرجل زرع زرعًا فنبت ومعه حشيش يُفسده، فأُمر بتنقيتهِ عن الحشيش، فأخذ يجزُّ رؤوسَه وأطرافَه وتقوى أصوله فتنبت، وكمريض ظهر به جرب فأُمر بالطلاء ليزيلَ ما على ظاهره

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٠/٣٦، رقم ٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٥)، والحاكم (٣/٣٠٣) وقال: صحيح الإسناد. والقضاعي (١٢٩٨).

(٣) رواه مسلم (٩١). وقد تقدم.

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).



وشرب الدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فهو يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعُجْبهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع من أن يُبتَلَوا بها، فإذا ظهر عليهم مخائل الكبر والرئاسة، قالوا: طلب عزِّ الدين وإظهار شرف العلم وإرغام المخالفين من المبتدعين، ولو لبستُ الدون وجلستُ في الدون شمتَ بي أعداء الدين وكان ذُلاًّ على الإسلام، وينسى أن النبي بماذا نصر الدين وأرغم الكافرين، ونسي ما رُوي عن الصحابة من التواضع والقناعة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيِّه عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العزَّ في غيره، وهذا يطلب عزَّ الدين بالثياب الرقيقة والخيول والمراكب، ويزعم أنه يطلب عزَّ العلم وشرفَ الدين، ومهما أطلقَ اللسانَ بالحسد في أقرانه قال: إنما هذا غضبٌ للحق، وردٌّ على المبطل، ولم يظن بنفسه الحسد. وإذا خطر له الرياء قال: إنما غرضي اقتداء الخلق بي ليهتدوا، ولا يتأمل أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره، فلو كان غرضُه الصلاح لفرحَ بصلاحهم.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم وطهَّروا الجوارحَ واجتنبوا ظواهرَ المعاصي، وتفقدوا أخلاقَ النفس وصفاتِ القلب وجاهدوا أنفسَهم في التبرِّي من ذميمِ الصفات وقلعوا منابتَها الجلية، وبقيت في زوايا القلب من مكائد الشيطان وخبايا خداعِ النفس ما دقَّ وغمض كمن يريد تنقيةَ الزرع من الحشيش فدار على كل حشيشٍ رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يُخرج رأسَه بعد،



وقد نبت من أصول الحشيش شعبٌ لطاف انبسطت تحت التراب، فأهملها فإذا هو بها قد نبتت وأفسدت أصولَ الزرع. فكذلك العالم قد يفعل جميعَ ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والدفائن، تراه يقضي ليلَه ونهارَه في جمعِ العلوم والتصانيف، ولعل باعثَه الخفي طلبُ الذكر وانتشار الصيت والاجتماع حوله، والتمتُّع بتحريك الرؤوس إلى كلامه، والسرور بالخاصية من بين الأقران، ولعل حياتَه في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وانقياد وحُسن ثناء، فلو تغيَّرت عليه القلوب فعساه يتشوَّش قلبه وتختلط أوراده ويعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه. وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع، وإن اعتقد فوق قدره، وينبو قلبه عمن عرف حدَّ فضله وإن كان على وفق حاله. وعساه يؤثر بعضَ أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدُّمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له، وأتبع لمراده وأكثر ثناءً عليه، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، ويظن أن قبولَهم لإخلاصه وصدقه، وعساه لو وُعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقدِه لذة القبول وعزة الرئاسة. وعساه يصنف ويجتهد وإنما يريد به استطارةَ اسمه بحُسن التصنيف، فلو ادعى مدَّعٍ تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه مع علمه أن ثواب الاستفادة إنما يرجع للمصنف، والله يعلم بأنه هو المصنف، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه إما صريحًا وإما ضمنًا، ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه، ليُظن أنه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له، أو يغير أدنى تغيير كالذي يسرق قميصًا فيتخذه قَباء حتى لا يُعرف أنه مسروق.



ولعل جماعةً من هذا الصنف إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامةَ عن عيوب القلب، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقةً نظر كل واحد إلى كثرةِ مَن يتبعه، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع، ثم إذا اشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرةً منه، فلا يهتز باطنه لإكرامه وقضاء حوائجه كما كان من قبل، ولعل واحدًا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن في دينه ليحمل غضبه على ذلك.

ومهما ذُكرت عيوبه ربما فرح، وإن أُثني عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطَّب وجهَه إذا ذكرت عيوبه يُظهر أنه كاره لغيبة المسلمين وقلبُه راضٍ به ومريد له والله مطلع عليه.. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوبَ نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا بصَّره بعيوب نفسه، ومن سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال، وأمرُه أقرب من المغرور المزكي لنفسه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار.. وبالله التوفيق.

ولنذكر غرورَ الذين قنعوا من العلم بما لا يهمُّهم وتركوا المهم. فمنهم فرقةٌ اقتصروا على علمِ الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الجارية بين الخلق، وخصَّصوا اسم الفقه بها، وربما ضيَّعوا الأعمالَ الظاهرةَ والباطنةَ فلم يتفقدوا الجوارح ويُخرسوا اللسانَ عن الغيبة والبطنَ عن الحرام، ولم يحرسوا قلوبَهم عن الكبر والحسد والرياء والمهلكات. وغرورهم من حيث العمل ومن حيث العلم.



أما العمل: فمثالهم من به علَّةُ البواسير والبرسامي وهو مشرفٌ على الهلاك فاشتغل بتعلُّم دواء الاستحاضة، وتكرار ذلك مع علمِه أنه رجل لا يحيض ولا يُستحاض، لكن يقول ربما تقع علةُ الاستحاضة لامرأة وتسألني، فكذلك المُتفقِّه قد يُسلَّط عليه حبُّ الدنيا واتباع الشهوات والمهلكات الباطنة، وربما يخطفه الموت فيلقى اللهَ وهو عليه غضبان، فترك ذلك واشتغل بعلمِ السلَم والإجارة والظهار والجراحات والديات والدعاوى والبينات لما فيه من الجاه والرئاسة، ويظن أنه مشغول بفرضِ دينه وليس يدري أن الاشتغالَ بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرضِ العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وتركَ كتاب الله وسنةَ رسوله وربما طعن في المحدثين وقال: نقَلةُ أخبار وحملَةُ أسفار لا يفقهون، وترك علمَ تهذيب الأخلاق، وترك الفقهَ عن الله بإدراك جلاله وعظمته وهو الذي يورث الهيبةَ والخشوعَ ويحمل على التقوى، فتراه آمنًا مُغترًّا متَّكِلًا أنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام، وسبب غروره ما سمع من تعظيم الفقه ولم يدرِ أن ذلك هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته، إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

ومنهم من اقتصر على الخلافيات وطريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقُّد لعيوب الأقران، والتلقُّف لأنواع ما يؤذي، وهؤلاء هم سباع الإنس، طبعُهم الإيذاء وهمُّهم السفَه، وكل علمٍ لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب يستحقرونه ويسمونه التزويق، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء زادوا على مَن قبلهم

من أهل علم الفتاوى إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضًا، بل دقائق الجدل بدعة لم يعرفها السلف، فغرور هؤلاء أشد وأقبح مِن غرور مَن قبلهم.

وفرقة اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والرد على المخالفين والطرق في المناظرة والإفحام، واعتقدوا أنه لا يصح إيمان إلا بتعلُّم جدلِهم وما سمَّوه أدلة، وأنه لا أحد أعرف منهم بالله وصفاته.

ثم هم فرقتان: ضالة تدعو إلى غير السنة، ومُحقَّة تدعو إلى السنة، فغرور الضالة بغفلتها وظنِّها النجاة، وهم فِرقٌ يكفِّر بعضُهم بعضًا، أُتِيت من حيث إنها لم تتَّهم رأيَها ولم تُحكِم شروطَ الأدلة ومنهاجَها، فيرى أحدُهم الشبهةَ دليلًا والدليل شبهة. والمُحقِّة اغترارُها إذ ظنت الجدل أهم الأمور وأفضل القُربات، وأن من صدَّق من غير بحثٍ وتحريرِ دليلٍ فليس كامل الإيمان ولا مُقرَّبًا، فقطعت أعمارَها في تعلُّم الجدل وهذيانات المبتدعة وأهملوا أنفسَهم وقلوبَهم حتى عميَت، يظن أحدُهم أن اشتغالَه بالجدل أقرب عند الله. ولالتذاذِه بالغلبة والإفحام والرئاسة والانتماء إلى الذبِّ عن الدين عميَت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهد بأنهم خير الخلق وقد أدركوا أهلَ البدع والهوى فما جعلوا أعمارَهم غرضًا للمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقُّد قلوبهم وجوارحِهم وأحوالِهم، ولا تكلموا إلا حيث رأوا حاجةً وتوسَّموا مخايلَ قبولٍ ونفع، وإذا رأوا مُصرًّا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ولم يَلزموا الملاحاة معه طول العمر.

ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة، قال ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»[1]. وخرج على أصحابه يوماً وهم يتجادلون

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢٢١٦٤). وقد تقدم.



فغضب حتى كأنه فُقئ في وجهه حبُّ الرمان وقال: «**أبهذا بُعثتم، أبهذا أُمِرتم أن تضربوا كتابَ الله بعضه ببعض، أنظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نُهيتم عنه فانتهوا**»[1].

ثم إنهم رأوا رسولَ الله بُعث إلى كافة الملل فلم يقعد في مجلس مجادلة الإلزام والإفحام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن لأن ما زاد يشوِّش القلوب ويستخرج الإشكالات والشُّبه، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام.

والأكياس وأهل الحزم قالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكُهم، وليس علينا أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، ونرى أن المبتدعَ لا يترك بدعتَه بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشدُّدًا في بدعته، فاشتغالي بمخاصمةِ نفسي لتتركَ الدنيا للآخرة أولى، كيف وقد نُهيت عن الجدل، وكيف أدعو إلى السنة بتركها!؟

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والتوكل والصدق ونظائره، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعَوْا إليها فقد صاروا موصوفين بها، وهم منفكُّون إلا عن قدرٍ يسيرٍ لا ينفك عنه عوام المسلمين، فغرورهم أشد الغرور لأنهم يعجبون غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحَّروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقعوا على خفايا

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٤٧٠).

عيوب النفس إلا وهم عنها منزَّهون، فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو أمن، ومن الراجين وهو مغترٌّ مضيع، ومن الراضين وهو من الساخطين، ومن المتوكلين وهو من المتَّكلين على الجاه والمال، ومن المخلصين وهو من المرائين، فيصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ويصف الرياء وهو يرائي بذكره، ليُعتَقد لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا لشدةِ حرصِه عليها ورغبتِه فيها، ويصرف الناس عن الخلق وهو عليهم أشد حرصًا، ويزعم أن غرضَه إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلقُ عليه وصلحوا على يديه لمات غمًّا وحسدًا.

فهؤلاء من أبعدِ الناس عن التنبه، لأن المرغِّب في الأخلاق المحمودة والمنفِّر عن المذمومة العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه، فبعد ذلك بماذا يُعالج؟ وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوِّف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف. نعم يمكن أن يُدلَّ بطريق الامتحان والتجربة، فإذا ادعى حبَّ الله فما الذي تركه من محابِّ نفسه لأجله؟ وإذا ادعى الخوفَ فما الذي امتنع منه بالخوف، وإذا ادعى الزهدَ فما الذي تركه لوجه الله مع القدرة عليه، وإذا ادعى الأنسَ فمتى طابت له الخلوة، بل يرى قلبَه يمتلئ بالحلاوة إذا أحدق به المريدون ويستوحش إذا خلا بالله تعالى.

فالأكياس يمتحنون أنفسَهم ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون بالتزويق، والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كُشف الغطاء في الآخرة يفتضحون، وإنما وقع الغرور لهم من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئًا ضعيفًا من أصول هذه المعاني، وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما وصفوها وعلموها وانتفع



الناس بكلامهم إلا لاتصافهم. وإنما مثاله كمريضٍ يصف المرضَ ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحةَ والشفاء، وغيره من المرضى لا يقدر على ذلك، فلا يفارقهم في صفة المرض إنما في الوصف والعلم بالطب، فظنُّه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل، كذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها.

فهذه حالة الوُعّاظ الذين لا عيب في كلامهم بل على منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم.

وفرقةٌ عدَلُوا عن المنهاج الواجب في الوعظ فاشتغلوا بالطامات والشطْح وتلفيقِ كلماتٍ خارجةٍ عن قانون الشرعِ والعقلِ طلبًا للإغراب وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، وغرضُهم أن تكثر الزعقات والتواجد في مجالسهم؛ فالأولون إن لم يُصلحوا أنفسَهم قد أصلحوا غيرَهم، وهؤلاء يصدون عن سبيل الله ويجرُّون الخلقَ إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء، لاسيما إذا كان الواعظُ متزيِّنًا تشهد هيئتُه بشدة حرصهِ على الدنيا، فما يفسده أكثر مما يصلحه، بل لا يصلح ويضل خلقًا كثيرًا.

وفرقة قنعوا بحفظِ كلام الزهاد وأحاديثهم ليؤدوها من غير إحاطةٍ بمعانيها على المنابر، أو في المحاريب أو في الأسواق، ويظن أنه إذ حفظ كلامَ الزهاد فقد أفلح ونال الغرضَ وصار مغفورًا له من غير أن يحفظ ظاهرَه وباطنَه عن الآثام.

وفرقة استغرقوا أوقاتَهم في علم الحديث، في سماعِه وجمعِ الروايات وطلبِ الأسانيد الغريبة العالية، فأحدهم يدور في البلاد ليقول: أنا أروي عن فلان ورأيت فلانًا ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري. فهم كحمَلة الأسفار لا



يصرفون العناية إلى فَهمِ معاني السنة، فلا يعملون وقد يفهمون بعضًا ولا يعملون به. ويتركون الذي هو فرض عين من معرفة علاج القلب. ولا يقيمون شرطَ السماع فإن السماعَ مهمٌّ للوصول إلى إثبات الحديث، إذ التفهُّم بعد الإثبات والعمل بعد التفهُّم، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا على السماع وتركوا حقيقتَه، فترى الصبيَّ يحضر في مجلس الشيخ، والحديث يُقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب ثم يُكتب اسم الصبي في السماع، فإذا كبر تصدى ليُسمَع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغل بحديثٍ أو نسخٍ والشيخ الذي يقرأ عليه لو صُحِّف وغُيِّر ما يقرأ لم يشعر به، وكل ذلك جهلٌ وغرور. إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجزتَ عن سماعه من رسول الله سمعتَه من الصحابة أو التابعين صار سماعُك عن الراوي كسماعِ مَن سمعَ مِن رسول الله، وهو أن تصغيَ لتسمع وتحفظ وتروي كما حفظت وتحفظ كما سمعت لا تغيِّر حرفًا ولو غيَّر غيرُك أو أخطأ علمتَ خطأه.

ولحفظِك طريقان:

أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار.

والثاني: أن تكتب كما تسمع وتصحِّح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يدُ من يغيِّره، ولو سمعوا على الشرط لكانوا مغرورين في اقتصارِهم على النقل وإفناء أعمارِهم في الروايات وإعراضِهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يُقصد من الحديث سلوك طريقِ الآخرة، وسالكُها ربما يكفيه الحديث الواحد، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلسَ السماع



فكان أول حديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**مِن حُسنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه**»[1] فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره، فهكذا سماع الأكياس.

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو وغريب اللغة وزعموا أن قد غُفر لهم إذ قِوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو، ومثالهم كمن يُفني العمرَ في تعلُّم الخط وتصحيح الحروف ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، ولو عقل لعَلِم أنه يكفيه أن يتعلَّم أصلَ الخط بحيث يمكن أن يقرأ، فيكفي من اللغة علم الغريبَيْن في الكتاب والأحاديث، ومن النحو ما يتعلق بهما، أما التعمُّق ففضولٌ ولو اقتصر عليه فمغرور، مثال من ضيَّع عمرَه في تصحيح مخارجِ الحروف واقتصر عليه، وإنما المقصود المعاني والحروف ظروف، ومن احتاج أن يشرب السكَنجَبين لتزول منه من الصفراء فضيَّع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه فمن الجهال المغرورين.

فهذه العلوم لمّا تعلّقت بعلمِ الشرع اغترَّ أربابها، فأما علم الطب والحساب والصناعات فلا يعتقد أصحابُها نيلَ المغفرة بها من حيث علمِها، فكان الغرور بها أقل.

وفرقةٌ عظُم غرورُهم في فنِّ الفقه، فوضعوا الحيلَ في دفعِ الحقوق وأساؤوا تأويلَ الألفاظ المبهمة، كفتواهم أن المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه وبين الله، والزوج قد يسيء بحيث يضيِّق عليها فتضطر إلى طلبِ الخلاص فتبرِّئه لا عن طيبةِ نفس، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء]، وإنما طيبةُ النفس أن تسمح

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

بالإبراء لا عن ضرورة، فلو طلب مالًا على ملأ فاستحيا ألَّا يعطيَه وخاف ألَمَ المذمّة فسلَّمه فكالمصادرة، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضربٌ للقلب بالسوط، وكذلك من يُعطى اتقاءً لشرِّ لسانِه أو سعايته، وكهبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها، فالفقيه يقول: سقطت الزكاة فإن أراد أن مطالبة السلطان والساعي سقطت فقد صدق، وإن ظن أنه يسلم في القيامة كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجةٍ فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة! قال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع**»(١)، وإنما صار مطاعًا بما فعله، وقبله لم يكن مطاعًا، فقد تمَّ هلاكُه بما يظن أن فيه خَلاصَه، فإن الله مطلعٌ على قلبه، ولو ذهبنا نَصِفُ غرورَ الفقهاء في أمثالِ هذا لملأنا مجلدات، والغرض التنبيه.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل:

ففرقةٌ أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمَّقوا فيها، كمن تغلب عليه الوسوسة في الوضوء، ولا يرضى الماءَ المحكوم بطهارته ويقدِّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آلَ الأمر إلى أكلِ الحلال قدَّرَ الاحتمالاتِ القريبة بعيدة، ولو انقلب الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبهَ بسِيرة الصحابة. وقد يفوته فضيلةُ أول الوقت ويسرف في الماء ويضيِّع العمرَ فيما له مندوحة عنه، وإنما يقدر الشيطان على صدِّ العباد بما يخيِّل إليهم أنه عبادة فيُبعدهم عن الله.

وفرقةٌ غلب عليهم الوسوسة في نية الصلاة فيشوِّش عليه الشيطان حتى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، والحاكم (٤/٣٦٦) وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: «فيه عبد الواحد بن زيد متروك». بلفظ: «الشرك» بدل الرياء وفسَّراه به. وأحمد (١٧١٢٠)، والطبراني (٧١٤٤)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠). وقد تقدم.



تفوتَه الجماعة، وإن تمَّ تكبيره يكون في قلبه تردُّد في صحةِ نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيِّرون صيغتَه ثم يغفلون في جميع الصلاة، ويظنون أنهم تعبوا في تصحيح النية وتميزوا عن العامة، فهم في ظنِّهم على خير.

وفرقةٌ تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة والأذكار من مخارجها لا يهمه غيره ذاهلًا عن معنى القرآن والاتِّعاظ به، كمثال مَن حمل رسالةً إلى مجلسِ سلطان وأُمِر أن يؤدِّيها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنَّق في مخارج الحروف ويكررها غافلًا عن مقصودها ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه أن تُقام عليه السياسة ويُردَّ إلى دار المجانين.

وفرقة اغتروا بقراءة القرآن فيهذُّونه، وربما يختمونه في اليوم والليلة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني إذ لا يتفكر في معانيه لينزجر ويتَّعظ ويقف عند أوامره ونواهيه يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه. كمثال عبدٍ كتب إليه مولاه كتابًا أمره ونهاه، فلم ينصرف إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه مستمرًّا على خلافِ ما أمره به، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته، فهو مستحق للعقوبة. نعم تلاوتُه تُراد لكيلا ينسى حفظَه، وحفظه لمعناه، ومعناه للعمل به، وقد يلتذُّ بصوته الطيب ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله، ولم يتفقد قلبَه فيعرف ألَذَّتُه بكلام الله أم بصوته؟

وفرقةٌ اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتَهم عن الغيبة وخواطرَهم عن الرياء وبطونَهم عن الحرام عند الإفطار، ويظنون بأنفسهم الخير.



وفرقة اغتروا بالحج من غير خروجٍ عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الحلال، وقد يضيِّعون في الطريق الصلاة، ولا يحذرون من الرفث والخصام، وربما جمع الحرام وأنفقه على الرفقاء يطلب به السمعة فيعصي أولًا بكسبِ الحرام، وثانيًا في إنفاقه بالرياء، ثم يحضر البيت بقلبٍ ملوثٍ ويظن أنه على خير.

وفرقةٌ أخذت طريقَ الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينسَوْن أنفسَهم، وقد يجمع الناسَ إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه، ومنهم من يؤذن ويظن أنه لله، ولو جاء غيره وأذن قامت عليه القيامة، وقد يتقلد إمامةَ مسجد وإنما غرضُه أن يُقال: إمام مسجد. فلو تقدم أورعُ وأعلمُ منه ثقُل عليه.

وفرقةٌ أخرى جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا، ولم يراقبوا قلوبَهم ولم يطهِّروا ظاهرَهم وباطنَهم، ويقول: قد جاورت بمكة كذا كذا سنة. وقد يمدُّ عينَ طمعِه إلى أوساخ أموال الناس، وإذا أمسكها لم تسمح نفسه بلقمةٍ يتصدق بها، فيظهر فيه الرياءُ والبخلُ والطمعُ ومهلكاتٌ كان عنها بمعزل.

وما من عملٍ وعبادةٍ إلا وفيها آفات، فمن لم يعرف مداخلَ آفاتها فمغرور، ويُعرف شرح ذلك من جملة كتب إحياء علوم الدين. وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما في الكتب.

وفرقةٌ زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبةَ الزهاد، وهو راغبٌ في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، ترك أهونَ الأمرين وباءَ بأعظم المُهلكَين، فالجاه أعظم من المال، فلو ترك الجاهَ وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب،



ولم يدرِ أن الراغبَ في الرياسة لابد وأن يكون منافقًا وحسودًا ومتكبرًا ومرائيًا ومتَّصفًا بخبائث الأخلاق، وقد يترك الرياسةَ ويؤثر العزلةَ، ويتطاول على الأغنياء ويخشن معهم الكلام ويستحقرهم، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وربما يردُّ المالَ خيفةً من أن يُقال: بطلَ زهدُه، ولو قيل له: إنه حلال فخذه في الظاهر وردَّه في الخفية، لم تسمح به نفسه خوفًا من ذم الناس. وربما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين والمثنين عليه، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد.

وفي العبَّاد من يشدِّد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقُّده، ولا يظن بنفسه مهلكةً. وذرة من ذي تقوى وخلقٍ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملًا بالجوارح، ثم لا يخلو هذا المغرور عن الرياء وحبِّ الثناء، وظنَّ أن تزكية الناس دليلٌ على كونه مرضيًّا عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهلِ الناس بخبائث باطنه.

وفرقةٌ ترى أحدَهم يفرح بصلاة الضحى والليل والنوافل، ولا يجد للفريضة لذةً ولا يشتد حرصه على المبادرة بها، وينسى قولَه ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: «**ما تقرَّب المتقرِّبون إليَّ بمثل أداء ما افترضته عليهم**»(١). والمعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات كتقديم الفرائض على النوافل، وفروض الأعيان على فروض الكفاية، وفرض كفاية لا قائمَ به على ما قام به غيره، والأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وما يفوت على ما لا يفوت، وتقديم حاجة الوالدة على الوالد، إذ سئل رسول الله

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥).

ﷺ فقيل له: مَن أبَرُّ يا رسول الله؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال ثم من؟ قال «**أباك**» قال ثم من؟ قال: «**أدناك فأدناك**»[1].

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. ومن لا يفي مالُه بنفقة الوالدين والحج فقدَّم الحجَّ فمغرور، بل ينبغي أن يقدم حقَّهما، وهذا من تقديمِ فرضٍ أهم على فرضٍ هو دونه.

الصنف الثالث: المتصوفة

والمغترون منهم فرق:

ففرقة اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فشابهوا الصادقين من الصوفية في زيِّهم وهيئتهم وألفاظهم ومراسمهم، وأحوالهم الظاهرة في السماع والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات وإطراق الرأس وتنفُّس الصعداء وخفض الصوت، فلما تكلفوا ذلك ظنوا أنهم صوفية ولم يُتعبوا أنفسَهم في المجاهدة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لَمَا جاز لهم أن يعدُّوا أنفسَهم في الصوفية؟ كيف ولم يحوموا حولها؟ بل يتكالبون على الشبهات ويتنافسون في الرغيف والفلس ويتحاسدون ويمزِّق بعضهم أعراضَ بعض مهما خالفه.

ومثالهم عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تُثبت أسماؤهم في الديوان ويُقطع لكل واحد منهم قطر، فتاقَت إلى أن يُقطع لها مملكة، فلبست درعًا ومغفرًا وتعلَّمت من رجز الأبطال أبياتًا تعوَّدت إيرادَها بنغماتهم، وكيفية

(١) رواه مسلم (٢٥٤٨)، وابن ماجه (٣٦٥٨)، وبنحوه البخاري (٥٩٧١)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، وأحمد (٢٠٠٢٨).



تبختُرهم وتحريكهم الأيدي، ثم توجهَت إلى المعسكر ليُثبت اسمُها، فأُمِر أن تُجرَّد وتُمتَحن بالمبارزة مع بعض الشجعان، فإذا هي عجوز ضعيفة زمِنة، فقيل لها: أجئتِ للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهلِ حضرته، خذوها فألقوها قدام الفيل. فهكذا حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كُشف الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي بل إلى القلب.

وفرقة زادت في الغرور شق عليها الاقتداء في بذاذة الثياب، فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة وثيابًا أرفع قيمةً من الحرير، وظن أحدهم أنه متصوف ونسي أنهم إنما لوَّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلُها. ولبسوا المرقَّعات إذ كانت ثيابهم مخرَّقة، فأما تقطيع الفوط الرقيقة وخياطة المرقعات فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ وهؤلاء لا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلًا عن الباطنة، وشرُّهم يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي تفسد عقيدتُه في أهل التصوف ويظن أن جميعَهم من جنسهم، فيطوِّل اللسانَ في الصادقين.

وفرقةٌ ادعت علمَ المعرفة والمشاهدة ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي لأنه تلقَّف كلمات من الطامات فهو يردِّدها، وينظر إلى أصناف العلماء فضلًا عن العوام بعين الازدراء حتى إن الفلاَّح والحائك يترك عملَه ويلازمهم أيامًا ويتلقَّف الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي، فيقول في العبَّاد أُجَراء متعبون؛ ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون؛ ويدَّعي أنه الواصل وهو من الفجار، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يُحكم علمًا ولم يهذِّب خلقًا ولم يراقب قلبًا سوى اتباع الهوى وتلقُّف الهذيان.

وفرقةٌ وقعت في الإباحة ورفضوا الأحكام، فبعضهم يزعم أن الله مستغنٍ عن عملي فلِم أُتعب نفسي، وبعضهم يقول: قد كلِّف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وذلك مُحال، وإنما يغتر به من لم يجرب ونحن قد جربنا. ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يُكلَّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلِّفوا قلعَ مادتِهما بحيث ينقاد كل واحدٍ منهما لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وقلوبنا والهةٌ وواصلةٌ وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام البكَّائين الخاشعين، وذلك بناءً على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدينِ والعلم صالحٍ للاقتداء به.

وفرقةٌ جاوزت حدَّ هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلَّقت الحلال واشتغلت بتفقُّد القلب، أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوفٍ على حقيقتها وعلاماتها. فيدَّعي الوجدَ والحبَّ لله تعالى وقد تخيَّل خيالاتٍ هي بدعةٌ أو كفرٌ فيدَّعي المحبة قبل المعرفة، ثم إنه لا يخلو عن مقارفةِ ما يكره الله وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، ترك بعض الأمور حياءً من الخلق لو خلا ما تركها، وكل ذلك يناقض المحبة، وبعضهم يخوض البوادي من غير زادٍ ليصحِّح دعوى التوكل، وربما هو متوكلٌ على سببٍ من الأسباب.

وفرقة ضيَّقت على نفسها في القوت، طلبت الحلال وأهملوا تفقُّد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري أن الله لم يرضَ من عبده



بطلبِ الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال.

وفرقةٌ ادَّعَوْا حسنَ الخلق والتواضع والسماحة فتصدَّوا لخدمة الصوفية، واتخذوا ذلك للرئاسة وجمعِ المال، وغرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة.

وفرقةٌ صاروا يتعمَّقون في البحث عن عيوب النفس واتخذوه حرفةً وعلمًا، يقولون: هذا في النفس عيب، والغفلة عن كونه عيبًا عيب، والالتفات إلى كونه عيبًا عيب، ويشغفون بكلمات مسلسلة تضيعُ الأوقاتُ في تلفيقِها، كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج ولم يسلك طريقَه.

وفرقة ابتدؤوا سلوكَ الطريق وانفتحت لهم أبوابُ المعرفة، فلما تشمَّموا من مبادئها رائحةً تعجبوا وفرحوا، فتقيَّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر في انفتاح بابِها عليهم وانسدادِه على غيرهم، وذلك غرورٌ لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة قصُرت خطاه وحُرِم الوصول إلى المقصد، كمن قصد ملكًا فرأى على باب ميدانه روضةً فيها أزهار وأنوار لم يكن رأى مثلَها، فوقف ينظر ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقةٌ جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار وما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، جادِّين في السير، فوصلوا إلى حد القربة، فظنوا أنهم وصلوا إلى الله، فوقفوا وغلطوا، فإن لله سبعين حجابًا لا يصل السالك إلى حجاب إلا يظن أنه وصل، قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وليس المعنى هذه الأجسام المضيئة فإنه يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة، والجهال يعلمون أنها ليست بإله ولكن نور من الأنوار، وهي حُجب من نور بعضُها أكبر من بعض،

وأصغر النيِّرات الكواكب، فاستُعير له لفظه وأعظمها الشمس، وبينهما رتبة القمر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب فقال: ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، فلما ظهر له أنه مع عِظَمه غير خالٍ عن الهوى في حضيض النقص عن ذروة الكمال قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وأول الحُجب النفس، وإذا انكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفتَ صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغترَّ ووقف وهلك، وكان قد اغتر بكوكب من أنوار الحضرة ولم يصل إلى القمر فضلًا عن الشمس. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات.

الصنف الرابع: أرباب الأموال:

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أساميهم عليها وهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا، فإذًا قد عصوا اللهَ بكسبها، فالواجب عليهم التوبة وردها إلى ملاَّكها، فإن عجزوا فإلى الورثة، فإن لم يبقَ وارث فالواجب صرفُها إلى أهم المصالح، وربما يكون التفرقة على المساكين. وهم يظنون بأنفسهم الإخلاص، ولو كلِّف واحدٌ منهم أن ينفق دينارًا ولا يكتب اسمه على الموقع الذي أنفق فيه لشقَّ عليه.

وفرقةٌ ربما اكتسبت من الحلال وأنفقت على المساجد تطلب الثناء، فربما في جواره أو في بلده فقراء والصرف عليهم أفضل، ويصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه، وقد يفسد قلوبَ المصلين وربما شوَّقهم إلى زخارف الدنيا،



والمسجد للتواضع وحضور القلب مع الله تعالى، قال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال: أمتي بحقٍّ أقول لكم لا يترك اللهُ مِن هذا المسجد حجرًا قائمًا على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئًا، وإن أحبَّ الأشياء إلى الله القلوب الصالحة. وقال أبو الدرداء: إذا زخرفتم مساجدكم وحلَّيتم مصاحفكم فالدمار عليكم[1].

وفرقةٌ ينفقون في المحافل الجامعة وعلى مَن عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدق في السر، قال أبو نصر التمار: إن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث، وقال: إني عزمت على الحج فما تأمرني؟ فقال: كم أعددتَ للنفقة؟ قال: ألفي درهم، قال: فأي شيء تبتغي بحجك تزهدًا أو اشتياقًا أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبتَ مرضاةِ الله وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقينٍ من مرضاة الله أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشَرةَ أنفس، مديون يقضي دينَه، وفقير يلمُّ شعثَه، ومُعيل يغني عيالَه، ومربّي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبُك تعطيها واحدًا فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان أفضل من مئة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك، فقال: يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي، فتبسم وقال له: المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضتِ النفسُ أن تقضيَ به وطرًا فأظهرتِ

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه ابن المبارك في «الزهد»، وأبو بكر بن أبي داود في كتاب «المصاحف» موقوفًا على أبي الدرداء». قال الزبيدي في الإتحاف (٨/٤٨٦): «قلت: ورواه الحكيم في النوادر من حديث أبي الدرداء مرفوعًا». وقد ورد النهي عن زخرفة في البخاري (٦٢) من قول عمر بن الخطاب: «أُكن الناس ولا تُحَمِّر ولا تُصَفِّر».



الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه ألَّا يقبل إلا عمل المتقين.

وفرقةٌ يمسكون الأموال بحكم البخل ويشتغلون بالعبادات البدنية كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، فيحتاج إلى قمعِ البخل المهلك بإخراج المال، واشتغل بفضائل هو مستغنٍ عنها، مثال من دخلت في ثوبه حية وأشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكِّن به الصفراء. وقيل لبشر: إن فلانًا الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: ترك حالَه ودخل في حال غيره، وإنما حالُ هذا إطعام الطعام والإنفاق على المساكين فهو أفضل له من تجويعه نفسه وصلاته مع جمعِه للدنيا ومنعِه للفقراء.

وفرقةٌ لا تسمح نفوسُهم إلا بأداء الزكاة، ويخرجونها من الرديء، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ومن يحتاجون إليه في الخدمة أو لهم فيه غرض، ويظن أنه مطيعٌ لله وهو فاجر إذ طلب عوضًا من غيره بعبادته.

وفرقةٌ من عوام الخلق أغنياء وفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أنه يغنيهم، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل أجرا. وإنما فضل مجلس الذكر لكونه مرغِّبًا في الخير. وربما يسمع كلامًا مخوفًا فلا يزيد على أن يصفِّق بيديه ويقول: يا سلام سلِّم أو نعوذ بالله أو سبحان الله! كمريض يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو جائع يحضر عند من يصف له الأطعمة ثم ينصرف ولا يغنيه ذلك من مرضه وجوعه شيئًا.

فإن قلت: ما ذكرته أمرٌ لا يتخلص منه أحد، وهذا يوجب اليأس، فأقول: الإنسان إذا فترت همتُه في شيء أظهر اليأسَ منه، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض حتى يستنزل الطير المحلِّق في السماء، ويخرج الحوت من أعماق البحار



والذهب والفضة من تحت الجبال، ويقتنص الوحوش المطلقة في البراري ويستسخر السباع والفيلة ويأخذ الحيات ويستخرج الترياق من أجوافها، فلو همَّه أمرُ آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه، وليس بمحال لو أصبح وهمُّه الواحد هذا.

* لو صح منك الهوى أرشدت للحيل *

فهذا شيءٌ لم يعجز عنه السلف ومن اتبعهم بإحسان. فلا يعجز من صدَقت إرادته وقويت همتُه، بل لا يحتاج إلى عُشْرِ تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

فإن قلت: قربت الأمرَ فيه وأكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم النجاة؟ فاعلم أنها بالعقل والعلم والمعرفة.

أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي، فأساس السعادات العقل والكياسة.

الثاني: المعرفة؛ وأعني بها أن يعرف نفسه بالعبودية والذل، وربه بوصف الجلال والجمال والكمال، والدنيا والآخرة. فإذا عرف نفسَه وربَّه والدنيا والآخرة ثارَ من قلبه بمعرفة الله حبُّ الله، وبمعرفة الآخرة شدةُ الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الغربة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله. وإذا غلبت هذه الإرادة صحَّت نيتُه واندفع عنه كلُّ غرورٍ منشؤه تجاذُب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال، وما دامت الدنيا أحبَّ إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فإذا غلب حبُّ الله على قلبه فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله وما يقربه من الله، وجميع ذلك قد أودعناه

كتب إحياء علوم الدين، فمن ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطرٌّ إليه فيأخذ بأدب الشرع، ومن ربع المهلكات يعلم العقبات المانعة في طريق الله وطريق علاجه، ومن ربع المنجيات الصفات المحمودة وتوضع خلفًا عن المذمومة. فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حبُّ الله على القلب.

فإذا فعل جميعَ ذلك فما يُخاف عليه؟ فأقول: يُخاف عليه أن يخدعه الشيطان، فإنه إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقبَ القلبَ حتى صفَّاه من جميع المكدِّرات، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم.

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول: إذا لم يكن له قصدٌ إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعُه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدُهم وذمُّهم فلم يبالِ بذمِّهم ولم يفرح بحمدِهم.

فإن قلت: فلو ترك الوعاظُ الوعظَ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلتِ الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب؟ فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: «**حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة**»[(١)]، ولو لم يحب الناسُ الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا (١٠٥٠١). ومن قول عيسى عليه السلام في الزهد للإمام أحمد ص (٩٢)، والحلية (٦/٣٨٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (١٠٤٥٨). =



وهلكت القلوب والأبدان جميعًا، إلا أنه ﷺ علم أن حبَّ الدنيا مُهلكٌ، وأن ذكَرَ كونه مهلكًا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرَب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفًا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة].

فكذلك لا تزال ألسنةُ الوعاظ مطلقةً لحب الرئاسة ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرئاسة حرام، كما لا يدع الخلق الشرب والزنى والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله: إن ذلك حرام. فانظر لنفسك وكن فارغَ القلب من حديث الناس، فإن الله تعالى يصلح خلقًا كثيرًا بإفساد شخصٍ واحدٍ وأشخاص ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوامٍ لا خلاقَ لهم، فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدًا.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يُخاف عليه

= قال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا»، والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريقه من رواية الحسن مرسلًا». وقال الزبيدي في الإتحاف (٨١/٨): «وقال البيهقي بعد أن أورد هذا، ما لفظه: ولا أصل له من حديث النبي ﷺ إلا من مراسيل الحسن اهـ. ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح كما نقله العراقي في شرح الألفية، ولذا أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، ورد عليه الحافظ ابن حجر بأن ابن المديني أثنى على مراسيل الحسن، وقال: إذا رواها عنه الثقات صحاح. و[على] هذا فالإسناد إليه حسن اهـ. وقال أبو زُرعة: كل شيء يقول الحسن: قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلًا ثابتًا ما خلا أربعة أحاديث وليت ذكرها».

وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار؟ فاعلم أنه بقي عليه أعظمه، وهو أن الشيطان يقول له: قد أعجزتَني وأفلتَّ مني بذكائك وكمال عقلك، وقد قدرتُ على جملةٍ من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهري ومكَّنك من التفطن لجميع مداخل غروري! فيصغي إليه ويصدِّقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم إذا ظننتَ أنك بعلمك تخلصتَ مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وإن مثله لا يقوى على دفعِ الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته، ومن عرف ضعفَ نفسه وعجزه عن أقل القليل، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقوَ عليه بنفسه بل بالله تعالى، فما الذي يُخاف عليه بعد نفي العجب؟ فأقول: يخاف عليه الغرورَ بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب، فيكون حالُه الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوفُ من مكرِه، ومن أَمِن مكرَ الله فهو خاسرٌ جدًّا، بل سبيله أن يكون مشاهدًا جملةَ ذلك من فضل الله ثم خائفًا على نفسه أن يكون قد سدَّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عزٍّ وهو غافل عنه، ويكون خائفًا أن يسلب حاله في كل طرفة عينٍ غير آمنٍ من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط.

ولذلك لمّا ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له



نفَس فقال: أفلتَّ مني يا فلان، فقال: لا، بعد. ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فإذًا المغرور هالك والمخلص الفارُّ من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدًا.

فنسأل الله تعالى العونَ والتوفيقَ وحسنَ الخاتمة، فإن الأمور بخواتيمها.

تم كتاب ذم الغرور، وبه تمَّ ربع المهلكات

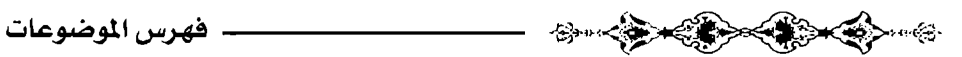
والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده

وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

** ** **

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة





الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة



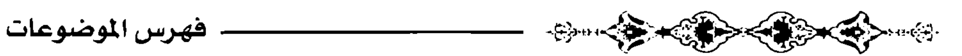
الموضوع	الصفحة





الموضوع	الصفحة

الشطر الثاني من الكتاب



الموضوع	الصفحة

** ** **